مؤلف "عكس عقارب الساعة"

جاستن أ. رينولدز

مكتبة ياسمين

EARLY DEPARTURES

رحيل مبكر

ترجمة: سلمى الحافي

عصير الكتب

رحيـــل مبكــر

لا يعرف كيو، صديق جمال، أنه على وشك أن يلقى حتفه... مجددًا. كما أنه لا يعرف أن جمال حاول أن ينجّيه بإنقاذه من الغرق، إلا أنه وجد نفسه يراقب كيو يحتضر في المشفى.

وليزداد الطين بلة، كانت صداقة جمال وكيو قد تداعت قبل سنتين، حين تُوفي والدا جمال في حادث سيارة وتركاه هو وأخته وحيدَين.

ولأن الأسى تمكّن من جمال، لامَ كيو على الحادث.

لكن ماذا لو أُعطي جمال فرصةً ثانيةً، فرصة استثنائية ليودّع صديقه؟ سمحت تقنية طبية حديثة بإعادة إحياء كيو ليعود كما كان في السابق. لكن المشكلة تكمُن في أن كيو سيظل على قيد الحياة لوقتٍ قصير وحسب، قبل أن يموت - إلى الأبد هذه المرة.

صمَّم جمال على تصحيح مجرى حياته، لكن لم يكن باستطاعته إطلاع كيو على سبب محاولته لاستعادة صداقته. إذ لم تكن لدى كيو أدنى فكرة حول موته، وما كانت والدة كيو لتبوح بالسر لأحدٍ فتسمح له بإفساد المعجزة. فكيف يستطيع جمال ردم الشرخ في صداقته مع كيو، إن لم يكن باستطاعته أن يبوح له بالحقيقة؟

يحوك جاستن أ. رينولدز من الفقدان والأسى والصداقة والحب نسيجًا ساحرًا بكلّيته، وإجلالًا، يضعه على كتفَيْ الروابط التي تجمع بين الناس طيلة حياتهم، وما بعدها.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

EARLY DEPARTURES

رحيل مبكر

عصير الكتب

مكتبة ياسمين

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: Early Departures
- العنوان العربي: رحيل مبكِّر
- طُبِع بواسطة: HarperCollins Publishers
- طُبِع بواسطة: هاربر كولينز للنشر
- حُقوق النشر: ذس جست إن ش.ذ.م.م 2020
Copyright © 2020 by This Just In LLC
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- المترجمة: سلمى الحافي
- تدقيق لغوي: أسماء أبو المجد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: أكتوبر/ 2021م
- رقم الإيداع: 2021/25016م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-71-8

مكتبة ياسمين

«إلى كلّ أولئك الذين ما عادوا بيننا، ولا يزالون بيننا».

«أرجو أن يكون رحيلي ممتعًا، وأرجو ألّا أعود يومًا».

فريدا كالو

مكتبة ياسمين

مكتبة ياسمين

حقائق

اكتشف عالم الكيمياء الفرنسيّ «آنتوان لافوازييه» عام 1785م أنّ المادة لا تَفنى، ولا تُستحدَث من العدم. بعدها بخمسٍ وخمسين سنة، توصّل الطبيب الألمانيّ «جوليوس روبرت ماير» إلى أنّ الأمر ذاته ينطبق على الطاقة. وبعدها بستين سنةً، أعطانا «آلبرت آينشتاين» معادلته الشهيرة التي تعني أنّ الكتلة والطاقة قابلتان للتّبادل: أي أنّ مُجمل الكتلة والطاقة في الكون ثابت. سيظلُّ مقدار الطاقة والمادة ثابتًا. أقصد أنّه إن كانت المادة لا تفنى، وإن كانت الطاقة لا تفنى، فإن أحدًا لا يفنى فعلًا!

خمس سنوات.

خمسة آلاف.

خمسة مليارات.

لذا، حين يعِدوننا، قبل أن يغمضوا أعينهم إلى الأبد، أنّهم سيظلّون معنا حيثما كُنّا، فسيحفظون وعدهم؛ سيظلّون بحقّ.

101

حين تَحِلّ مصيبة، ولا أقصد البربريّة في مراقبة شخصٍ يسكب الحليب قبل حبوب الفطور، ولا المحاولات الجاهدة لاستخدام القطعة الأخيرة من ورق المراحيض، المُلصَقة بإحكام على الورق المقوّى، بل أقصد المصائب الحقيقيّة، كألّا يرغب أحد بإخبارك أنّ والدَيك قد توفِّيا، وألّا يستطيع دماغك التّعِس أن يقرر ما الرّداء المناسب؛ أيّ فستان أو بذلة كانا ليرغبا بأن يغطياهما إلى الأبد. ومثل أن يكون صديقك المقرّب بأمَسّ الحاجة إليك، لكنّك غير موجود.

مكتبة ياسمين

تنقضُّ المصائب الحقيقيّة على قلبك، وتشطرك إلى نصفين؛ مرحلة سابقة ومرحلة لاحقة. مثل دعايات فقدان الوزن المبتذلة، حيث توضَع على أحد الجانبين صورة رجل سمين وأصلع بجسد غير رياضيّ، وبشرة مليئة بالعيوب، ثم بعد ابتلاعه الحبّة السحريّة -ودون سابق إنذار- تتشكّل لديه عضلات معدة استثنائية، وينمو شعره ليصبح أكثف من شعر خمسة ماموثاتٍ صوفيّة، وتصبح بشرته مذهلةَ الصّفاء. ما يقصدونه هو أنّ الصورة تمثّلك سابقًا، إلا أنها تمثّلك الآن!

المصائب حبوبٌ يصعب ابتلاعها، وتُغيّر كلّ شيء.

وتنظر في مرآتك يومًا ما، لتجد أنك قد استُبدِل شخص غريب بك، فتحاور ذاتك مرارًا وتَكرارًا، وتتمنّى لو أنك أبطأتَ سير بعض الأحداث، وسرَّعت بعضها الآخر. تُدرك حينها القيمة الحقيقيّة لأجزاء الثواني. لن تتوقف عن دفع الثمن، هذا ما لا يقوله أحدٌ لك.

100

بدأ أسوأ يومٍ في حياتك مثل كلّ يوم.

أشرقَت الشمس أبكر مما أردتَ. كنتَ قد تركتَ المروحة تدور طوال الليل، مما جرّح حلقَك، وتركك مع حكّة في أنفك.

نزعتَ مخالب النوم عن أجفانك، وضغطتَ على السجادة بقدميك، وشددتَ أصابع قدميك. بلاط المطبخ كان شديد البرودة، ومع الأخذ بعين الاعتبار أن ذلك كان في أوهايو في شهر يونيو، فقد كان الطقس المتوقَّع هو أن تصل درجات الحرارة إلى الثلاثين، أو أن تمطر بغزارة، أو أن تثلج.

بحثتَ في الخزائن والرفوف مُسرعًا، وسحبتَ كعكتين، وأكلتَهما نيّئتين. عُدتَ مندفعًا نحو الطابق العلويّ، وضربتَ باب الحمام، وصحتَ موبّخًا أختك، لأنها تحتكر الماء الساخن. ظهرَ والدُك فجأةً في البهو، وقال إنه سيغلي الماء على السخّان إن أردتَ، ويسكبه فوق رأسك، وادّعى أن ذلك بمنزلة حمّام. فرددتَ منفعلًا بأنّ الإضافة الوحيدة هي حروقٌ من الدرجة الثالثة، فتنفّس مُصدِرًا هسيسًا، وهو يضحك مثل أفعى تأخذ شهيقًا.

مكتبة ياسمين

ارتميتَ على سرير والديكَ بوسائده المبعثرة، متيقّظًا، لكن والدتك لم تُحرك ناظرَيْها عن كتابها، وقالت إن رائحة أنفاسك سيّئة رغم أنك لم تقترب حتى من أنفها! دُرتَ حول نفسك متّجهًا نحوها، ونفختَ كلّ تلك الأنفاس الساخنة في وجهها، فأبعدَتْ رأسك قائلةً: «إن لم تكُف عن هذا أيّها الفتى...!»، لكنها كانت تمنع نفسها عن الضحك، وحاولَت شفتاكَ تقبيلَ خدّها، لكنها تجنّبتك، فأصبتَ حاجبَها.

فُتِح باب الحمام فجأةً، وصاحت أختك من البهو: «راضٍ الآن؟!»، ثم صفعت باب غرفتها. بالمختصر، كان يومًا لم تستطِع فيه الحصول على دورٍ بعد انتظار؛ يومًا مثل معظم أيامك السابقة. إلا أن حياتك وعالمك بأكمله أضحى نصفين عند الثامن من يونيو، في الساعة 11:43 صباحًا. وستبقى حياتك مُقسَّمَة بهذه الطريقة إلى الأبد؛ ما قبل الساعة 11:43، وما بعد الساعة 11:43.

لا يخبرك أحد بهذا، بأن حياتك دائمًا على بُعد بضع ثوانٍ لعينة من الانهيار التامّ. ففي النهاية، لم يتطلّب الأمر أكثر من اثنتي عشرة ثانية، واتّحاد أمرين بريئين ظاهريًّا، ولا يبدو أنهما مترابطان، حتى تتداعى حياتي كليًّا:

1. جهل والدي بخصوص التكنولوجيا كعادته.
2. تهنئة صديقي المقرَّب لوالديَّ بمناسبة الذكرى السنويّة لزواجهما.

مكتبة ياسمين

بعد ثلاثة وعشرين شهرًا من الجِنازة

بصياغةٍ أخرى: الآن.

مكتبة ياسمين

لم يفوّت أحدٌ حضور إحدى حفلات «هيل»، وهي مناسبة مثاليّة لمراقبة الناس، لكنها ليست مثاليّة للمساحة الشخصيّة. كان مُضيف الحفلة أحدَ أكثر الطلاب شعبيّة في مدرسة «إليتاون» الثانويّة، مما عَنَى أن المشي جانبيًّا كان ضروريًّا للذهاب إلى أيّ مكان.

سألَت أوتوم:

- ما الذي يسمعونه بحقّ الله؟!

هززتُ كتِفيَّ معلِنًا عن لا مبالاتي قائلًا:

- الرّوك المصيَديّ ذو العشب الأخضر. مممم... أظنّه رابًا بديلًا، سوداويًّا رجعيًّا.

نصنّف الموسيقى أنا وأوتوم إلى ثلاثة أنواع: «جيّدة»، و«لا بأس بها»، و«الموت لمن انتقاها».

- لا بأس.

قالت، ووافقتُها.

توقُّع سماع موسيقى جيّدة في حفلة «هيلز» كالسباحة في إسكتلندة، وتوقّع مقابلة وحش البحيرة.

ارتفع حاجب أوتوم، واقترحَت:

- بيرة؟

فرددت:

- لا، شكرًا. سأراقب المسبح.

ضغطَت على يدي، ولم أفهم إن كانت تقصد أن تقول: «سأعود حالًا» أم «أراك بعد قليل»، واتّجهَت نحو السّاحة حتى أوقفتها عدة فتيات ليتحادثن. خلال الثواني التسعين التي استغرقتُها للوصول إلى الساحة، استهلكتُ مخزون أسبوعٍ من جملة: «أهلًا! كيف حالك؟».

يُذهلني المشهد كلّ مرة. وقفتُ هناك، وراقبتُ البحيرة وهي تناوش الأفق، والأمواج السوداء تتضارب كالشاحنات الكبيرة، وكان من الممكن أن أقتنع أننا عند طرف الكون. كدتُ أنسى أنني لستُ في عزلة.

مكتبة ياسمين

شعرتُ باهتزاز عند صدري، فسحبتُ هاتفي من جيب سُترتي. كنتُ قد تجاهلت مكالماتها الثلاثة الأخيرة.

- أنت في الحفلة بالفعل.

قالت ويت كأن ذلك تهمة!

- نعم، أخبرتك أنني...

قاطعتني قائلة:

- متى كنت تخطّط لإخباري؟

لوهلة، أقنعتُ نفسي أن المستقبل جيّد وهانئ.

متى كنت تخطط لإخباري بأنك فخورٌ حقًّا بجزّك للعشب؟

متى كنت تخطط لإخباري أنك تملك موهبةً في الغناء؟

لكن هذا ليس المشكلة، بل مجرد تهيئة للمسلسل الجاري عرضُه حاليًّا، الذي أدعوه «ما خطب جمال؟!»، ويأخذ جمال نفسه دور البطولة، بالاشتراك مع كلّ من حوله.

كرّرتْ سؤالها، فقلتُ منفعلًا:

- أخبرك بماذا يا ويت؟!

- أنك تغيب عن المدرسة مجددًا؟ حقًّا؟ ظننتُ أننا...

أبعدتُ الهاتف عن أذني حتى توقّفت عن الكلام.

قلتُ قرب الميكروفون:

- لا أغيب.

- لماذا تريد السيّدة سويت مقابلتي يوم الاثنين إذًا؟!

- حسنًا، ذهبت إلى المدرسة منذ عدّة أيام، وشعرت أنني لست بخير و...

تنهّدت ويت قائلة:

- اللعنة يا جمال! الأمر جِدّيّ. متى ستتطرّق إلى أمر مستقبلي؟

- تضع مستقبلك على المحكّ...!

انتشر المراهقون في المرج مثل دبابيس الكبس، وتجرّعوا المشاريب عند المسبح المصمَّم على شكل رمز اللانهاية، ولعبوا بالكؤوس على حافته. تغيّر

مكتبة ياسمين

لون الماء البارد الأزرق إلى البنفسج، فقد كان المسبح مخصّصًا لتحسين المزاج.

حين أنهَت ويت تصويرها لكلّ ما يحفّ طريقي الحالية التي ستودي بي نحو غياهب النسيان، أخبرتُها أنني آسف، وأنني لن أكرّر فعلتي، وألا تقلق.

- سيسحبون حقّ حضانتك منّي يا جمال، أهذا ما تريده؟!

حان دوري عندها لأؤكّد على التزامي بما بيننا، حيث تتساءل فيما إذا كانت مقصّرة معي بأي شيء.

قلتُ لها، وأنا أعني ما أقول:

- أريد أن أبقى حيث أنا.

- علينا أن نجد حلًّا لهذا.

قالت ويت، وقصدُها أن تجد حلًّا لي أنا، لكن قبل أن أردّ، نكزت أوتوم يدي:

- عليَّ الذهاب (قلتُها لأنهي الاتصال) ما الأَ... إلا أنني لم أكمل كلامي.

تبعتُ عينَي أوتوم عبر الساحة قبل الانهيار تمامًا.

حرّك صوتُ ضحكه سيلًا من الذكريات، وانفجرت كلّ ذكرى مثل حقل ألغام يتغذّى على جسدي. تلك الضحكة الساذجة، والكتفان المرتخيتان، والركبتان المطويّتان، كأنه قد يستطيع إخفاء شناعته.

- لعلّ الكون يعطيك فرصةً لإصلاح ما جرى.

قالت أوتوم بطريقة تجعل الكون يبدو مثل إله مُحِبٍّ، أو على الأقلّ مثل أمهاتنا حين تقُلن: «كلّ ما أريده هو أن أساعدك». إلا أن هذا ليس الكون الذي أعرفه، ومن المؤكّد أنه ليس الكون الذي يعرفني.

98

باختصار: كنتُ وضيعًا حين تكلّمت مع «كوينسي بارانتيس» آخرَ مرة. أعترف بهذا، وأعترف أيضًا أننا تبادلنا جُملًا بعدها على شاكلة: «عذرًا!» و«في أحلامك»، والكثير من هذه المشاحنات. لكن تصرفاتي -غالبًا- كانت تتضمّن إجراءات احترازيّة لأضمن ألا تتقاطع طرقنا. فمرةً دفعتُ دراجتي

مكتبة ياسمين

الهوائيّة نحو أجمة شائكة، وغصتُ وراءها. وبالطبع، كان كيو متّجهًا في الناحية المعاكسة، لكن هذا تفصيل غير مهمّ.

ومن أجل التخلّص من المواجهات غير الصحيّة، تجنّب الأشخاص هو السياسة المُثلى. وهو ما يفضّله كيو بصراحة، فهو لا يكره شيئًا أكثر مني سوى المواجهة. كيو مغناطيسٌ للمتنمّرين. لا أستطيع إحصاء المرّات التي دافعتُ فيها عنه، وتلقّيت ضربات كانت موجّهة إليه.

- عليك الدفاع عن نفسك، وإلا فستظلّ هكذا طيلة عمرك يا كيو! هل تريد أن تعيش مثل كيس ملاكمة بشريّ؟!

إلا أنه كان يرسم ابتسامةً ساذجةً على وجهه، ولم أعرف إن كان لا مباليًا أم خيِّرًا في جوهره لهذه الدرجة.

قال:

- أُفضّل أن أنشر الحبّ، هل تفهمني؟ تخيّل لو كانت هذه طريقة الجميع في الدفاع عن أنفسهم.. بالحبّ؟ كنت لتفضّل العيش في عالم كهذا، صحيح؟

- لكننا لا نعيش في عالم كهذا!

كنت أجيبه مغتاظًا بصبر نافد.

- لا بدّ أن يأخذ أحدٌ ما بزمام المبادرة، صحيح؟

صراحةً، كان ذلك من أكثر ما يستفزّني فيه؛ إلحاقه كلمة «صحيح؟» في نهاية كلّ جملة أريد معارضتها.

تساءلتُ إن كان عليَّ أن أقول شيئًا له.

- مرحبًا، حفلة لطيفة، أليست كذلك؟

«مرحبًا، هل أعجبتك المقرمشات؟»

«مرحبًا، كيف كانت حياتك في السنتين الأخيرتين؟»

لكن كيو كان قد ذهب حين التفتُّ.

ثم تحمّست أوتوم فجأةً، وقالت: «يا للروعة! هذه أغنيّتي المفضّلة!»، وهي تجرّني نحو مركز دوّامة المحيط البشريّ.

مكتبة ياسمين

رأيتُه أخيرًا يستند إلى الحائط مثل منصّة ركلات بشريّة. دفعتُ الناس عني في طريقي إليه، لكنني وصلتُ متأخرًا؛ كان الفتى قد تبخّر.

وضعت أوتوم كأسها جانبًا، ورفعت سُترتها المطبوع عليها اسم فرقة «مايتي موت»، وخلعتها، ثم فكّت زرّ شورتها، وأنزلَته عن وركيها. حاولتُ ألا أحدّق إليها، لكن لباس البحر كناريّ اللون، والمؤلَّف من قطعتين زاد كلّ مفاتنها فتنةً، وأظهر ألَق بشرتها البنيّة الغامقة، كأنه مُصمّم من أجلها.

- سوف تسبح يا جاي، حتى لو اضطررت لدفعك إلى الماء.

لكنني هززتُ رأسي بعِناد قائلًا:

- لا تظنّي أنني سأسبح اليوم!

أومأت إلى ساقيَّ، وقالت:

- أنت ترتدي لباس السباحة تحت بنطالك الجينز يا جاي.

- نعم، كلّ ما في الأمر أنني أحبّ أن أكون مستعدًا.. للاحتمالات.. المختلفة.

- مثل السباحة؟

- أظن أنّ السباحة احتمال.. نعم.

قادتني نحو المسبح. غاصت، وسبحت عشرة أمتار تحت الماء حتى صارت مجرّد كتلة مشوّشة من اللونين الأسود والأصفر، ثم اخترقت ماء السطح بجسدها الذي تمايل مع الأمواج المتدافعة.

قالت لتشجّعني:

- شعورٌ مذهل.

قلتُ:

- مهلًا. هناك خطبٌ ما.

اندفع الجميع متّجهين نحو الطرف الآخر من المسبح. سبقتني أوتوم بفضل ضربات يدها الطويلة. شكّل معظم المراهقين في الخارج حشدًا. سأل شخصٌ ما:

- ما اسمك؟

- كوينسي، بإمكانك أن تناديني «كيو».

مكتبة ياسمين

وقفتُ على رؤوس أصابعي، ورأيتُ كيو في مركز المقدّمة، متوهّجًا، وتعجّبتُ، فالفتى كان يتجنّب لفتَ الأنظار، كما نتجنّب الظّربان!

هتف الجميع: «كيو! كيو! كيو!»، وتجرّع كيو ثلاث كؤوس متتالية، وسقطت كلٌّ منها فارغةً عند قدميه. صفّق الجميع، وضربوا أكفّهم ببعضها بعضًا فخورين به. شرب كأسًا أخرى بلا جهد، ومسح الرغوة عن فمه، وأرخى رأسه خلفًا، وهو يعوي ضاحكًا.

صاح شخص ما:

- كيو متوحّش!

بدأ هتاف جديد يعلو: «في المسبح! في المسبح! في المسبح!».

مشى خطوة نحو الأمام، بجسدٍ متراخٍ.

«في المسبح! في المسبح! في المسبح!»

وقف عند حافته، محدِّقًا إلى قاعه العميق، وهزّ يديه جيئةً وذهابًا، كأنه يجمع العزم من أجل قفزة أولمبيّة، وانحنى ابتداءً من خصره كأن القاع يحوي كنزًا، وقد عقد العزم على إيجاده.

«في المسبح! في المسبح!»

لكنّ شخصًا ما صاح:

- كيو! لا! لا يا كيو!

توقّف الهتاف، وركّز الجميع ليرَوا الجاني.

صاح بعضهم، وهم ينظرون نحوي:

- أفسدتَ متعتنا يا رجل!

كنتُ أنا مُفسد المتعة!

- لن ندعه يغرق!

قال أحدهم دون تكلّف، كأنه يقول إنهم لن يدعوه يأكل المزيد من المقرمشات مثلًا!

ناورتُ، وأمسكتُ ذراع كيو قائلًا:

- اسمع يا رجل، لعلّه من الأفضل ألا تفعل هذا التحدّي!

مكتبة ياسمين

لا، لم أتوقّع أن يقابلني بالامتنان، فأنا لم أنقذ حياتَه، لعلّه ما كان ليصيبه مكروه في المسبح، لكنني بالتأكيد لم أتوقّع الحنق!

لم أكن قد رأيتُ كيو غاضبًا من قبل، ليس بهذه الطريقة، حتى عندما كان من المفترض أن يغضب.

صاح أحدٌ ما من آخر الفناء:

- يا للهول! جانسي يا شباب!

سرَت رعشة في عمودي الفقري. متى كانت آخر مرّة صاح أحدٌ فيها: «جانسي»؟ بل متى قيلت آخر مرّة دون صياح؟ بدأ المزيد من المراهقين بتردادها.

وقف مُضيف الحفلة بجانبنا فجأةً، وقال:

- يا للروعة يا شباب! لا بدّ أن تؤديا مشهدًا من «جانسي» في حفلي. أنا جادّ، نحتاج لمّ شمل جانسي!

ثم تعالى هتاف جديد: «جانسي!».

تجاهلتهم، والتفتُّ نحو كيو قائلًا:

- هل أنت بخير؟

لكن كيو كان يغلي غضبًا:

- لمَ فعلتَ ذلك يا رجل؟

- لمَ فعلتُ ماذا؟

- ذلك!

قال بصوت محتدٍّ قليلًا. كانت عيناه محمرّتين، وممتلئتين بسائل ليس بالضرورة دمعًا، فقد يكون بيرة أو عرقًا!

بدأت حُمّى «جانسي» تخفت خلفنا بسرعة، لحسن حظنا، كان إعادة إحياء جانسي آخرَ ما أريده.

- هل أنت جادّ؟ كن منطقيًّا يا رجل، كنتَ مصابًا بالدّوار. كان من الممكن أن تهشّم رأسك على أرض المسبح!

- ذلك كان لي.

- ما الذي كان لك يا كيو؟

مكتبة ياسمين

- كوينسي؟

- ماذا؟

- أصدقائي ينادونني «كيو»، نادِني «كوينسي».

وبينما مشى مبتعدًا عني، اندلعَت حرب أهليّة بداخلي؛ شعَر دماغي بالفخر، لأنه دافع عن نفسه، بينما أراد قلبي أن يركض خلفه ليسأله: «ما خطبك بحقّ الله؟!»

وقفتُ وظهري إلى المسبح، نظرتُ إلى البحيرة، حيث كانت كلّ المياه مصبوغة بضوء القمر.

قال صوتٌ خلفي:

- جُهِّزت الحربة، تصوّب عالمة أحياء بحريّة عالميّة نحو هدفها.

استدرتُ، ولم أستطع مقاومة الضحك. كانت أوتوم تطفو في منتصف المسبح، وتومئ بيديها، كأنها تُصوّب بواسطة مسدس.

هززتُ رأسي، وقلت:

- لا أظنّ أنّ علماء الأحياء البحريّة يستخدمون الأسلحة القاتلة، وبالأخص على الحيوانات!

- حسنًا!

قالت رافعةً يدها، وعيناها نصف مغمضة، كأنها تنظر من خلال منظار، ثم تابعت:

- هذه حربة مسالمة، مُصمَّمة لتُخضِع بتهذيب، حتى نستطيع تحديد ومتابعة الحياة المائيّة.

- حربة مسالمة! لا بد أنه من الصعب إيجاد شيء كهذا!

هزّت كتفيها بلا مبالاة، وقالت:

- أرجو أن يكون قويًّا بما يكفي. الجمالات جِنسٌ كثير الشعر كما ترون.

- حقًّا؟

سألتها، وأنا أضحك عاليًا. كوّرتُ سترتي، ورميتها على العشب. هتفت أوتوم:

- بهدوء.. بهدوء.. بهدوء، أطلق النار.

مكتبة ياسمين

تراجعت ذراعاها، وانتظرتُ قليلًا، ثم تشبّثتُ بصدري.

قلت مبتسمًا:

- أنت محقّة، لم أتألم.

هذا الرمح يكركر في الحقيقة، فلماذا أشغل بالي بصديقي السابق، بينما يقف أمامي الشخص المفضّل لديّ بالحياة!

- تعالَ إلى هنا.

قالت أوتوم، وهي تسحب حبلها الوهمي.

وسقطتُّ في الماء.

97

توبروَن

جانسي في الشارع

17.212 مشاهدةً، 2.8 ألف إعجاب، 191 عدم إعجاب، ثنائي جانسي الكوميديّ 2.728 مشتركًا.

جمال: حان الوقت يا أصدقاء، وتعرفون ما علينا فعله.

كيو: سنباشر الأمر. أهلًا بكم في حلقة جديدة من...

جمال وكيو: جانسي في الشارع!

المشهد التالي: طابور انتظار خارج صالة سينما

كيو: ما الفيلم الذي ستشاهدينه؟

فتاة بجدائل شعِثة: «تشالنجر كروسنغ».

كيو: رائع، هل تحبين «كارلا توماس»؟

الفتاة: كثيرًا، إنها الأفضل.

كيو: ما بين «خيار يوندالا»، و«ورق أم بلاستيك»...

تظهر جملة على الشاشة: «هذا ليس اسم فيلم حقيقي».

كيو: و«انهيار جرف مغسلة سيارات في آيداهو»...

تظهر جملة على الشاشة: «هذا ليس اسم فيلم حقيقي».

مكتبة ياسمين

كيو: في أيٍّ من هذه الأفلام أعجبك تمثيل كارلا توماس أكثر؟

الفتاة: «ورق أم بلاستيك» بالطبع.

كيو: ما الذي أعجبك في هذا الفيلم؟

الفتاة: إنها بارعة للغاية، وتُحرِّك مشاعرك في كلّ مشهد.

المشهد التالي: داخل متجر قهوة صغير

جمال: الفقرة التالية بعنوان: «قلب الموازين»، بإمكانكم أن تطرحوا أيّ سؤال تريدونه.

عاملة في المتجر: لا أعرف.

جمال: أيّ شيء على الإطلاق.

العاملة: هل ستشتري القهوة؟

المشهد التالي: خارج متجر كتب، وتعرض الواجهة كتبًا

جمال: أعطني اسم أيّ كتاب.

رجل في منتصف العمر في معطف ثقيل: أيّ نوع من الكتب؟

جمال: أيّ كتاب على الإطلاق.

الرجل: دعني أفكّر.

جمال: من الممكن أن يكون كتابًا قرأته في أوّل عمرك.

الرجل ضاحكًا: شغلني الحبّ حينها يا رجل، يقرأ الكتب من لا يجد شريكًا عاطفيًّا.

تُركز الكاميرا على وجه جمال المرتبك.

جمال: حسنًا، أيّ كتاب حتى لو لم تقرأه. أيّ كتاب حرفيًّا.

الرجل: لا أعرف، الإنجيل؟

جمال: الإنجيل هو جوابك؟

الرجل: هل يُعتبر كتابًا؟ ليس كتابًا، بل إحدى تلك اللفافات التي تُسحب. اللعنة، هذا يجعلني أبدو بمظهر سيئ.

يصدر رنين، وتظهر على الشاشة كلمة «صحيح».

مكتبة ياسمين

كلّ حفلات «هيلز» تنتقل إلى الشاطئ، وهذه قاعدة.

وانتقال هذه الحفلة كان أسهل، فقد وُضِع سلّم لولبيٌّ حتّته الريح في آخر الفناء ساندًا جانب التلّ.

أصابني مللٌ جفّف مزاجي، وأنا أخوض نقاشات سطحيّة، بينما نزل بضعة مراهقين إلى الشاطئ، ورشّوا الكثير من الماء على كَوْمة حطب، فالنار العملاقة تعتبر أحد متطلّبات حفلات هيلز.

أُخلِي المنزل بسرعة، وعانق بضعة متأخّرين أصدقاءهم ليودّعوهم، ثم مشوا نحو سيّاراتهم المركونة، أما الأغلبيّة، فقد اتّجهوا مثل سربٍ نحو الشاطئ.

سألتني أوتوم، محاطةً بصديقاتها، إن كنتُ جاهزًا للنزول. كانت لا تزال في لباس السباحة الأصفر ذي القطعتين، إلا أنها لبست الشورت فوقه، وظهرَ شَريطٌ أصفر رقيق حول خصرها النحيل. قلتُ لها إنني سألاقيها هناك، وإنني أريد الاستمتاع بالمشهد مدّةً أطول. قبّلت خدّي، وهمست في أذني: «هل أنت بخير؟»

أومأت برأسي مُشيرًا بالإيجاب، وقبّلتُها.

إلا أنني لم أكن بخير في الواقع، فرغم كلّ جهودي، كان دماغي لا يزال يضجّ ليحاول إيجاد إجابة عن سؤال: «ماذا أفعل بشأن كيو؟».

لذا، بالطبع، بعدها بلحظات، ارتطمتُ به، وأنا ألتفت، مما أوقعه أرضًا.

«أعتذر، يا رجل»، قلتُ وأنا أمدّ يدي لأساعده، وتجاهلها. «أقصد، كوينسي، آسف».

نفض الغبار عن نفسه صامتًا.

- اسمع، آسف لأنني وقفتُ في وجهك، ولتدخّلي بما لا يعنيني سابقًا. كلّ نيّتي كانت أن...

فكّرتُ بما تقوله «د. أوشن» دائمًا في جلسات العلاج النفسي، أنني قادرٌ على السيطرة على ما أقوله وما أفعله، لكنني لا أستطيع السيطرة على ردّة فعل الآخرين، وأنني لا أستطيع إجبار أحد على الرؤية من خلال منظوري أو الإحساس بمشاعري. هذا غير مهمّ حقًّا. أتمنّى لك سهرةً سعيدةً يا كوينسي.

مكتبة ياسمين

اتّجهتُ نحو الشاطئ، وبعد عدّة خطوات، استدرتُ، وقلت:

- ألن تأتي إلى الشاطئ؟

هزّ كيو رأسه قائلًا:

- لا.

- أنصحك بالقدوم.

أجبتُ مسرعًا، مما ترك مساحةً محرجةً للصمت، فاحترنا كيف نتابع الحوار. ادّعيت أنني أعصر شورتي الجافّ معظمه.

تنحنح كيو، وقال:

- كان ذلك شراب الزنجبيل.

- ماذا؟

- لم أكن أتجرّع البيرة يا رجل.

ضحكتُ قائلًا:

- حقًّا؟

- لستُ أحمق، أم أنك نسيت ذلك أيضًا؟

توقّفتُ عن الضحك، وقد كنت أستحقّ تلك الجملة فعلًا، لكن ما لم أنسَه هو رفض كيو للاعتراف بحصّته من الملامة، والاعتراف بأخطائه.

التفت بجسده إليَّ، وقال:

- سآتي إلى الشاطئ.

أومأتُ برأسي، بينما دفع ضوء القمر بظلّ كيو نحو الصخور في الأسفل.

95

كُنّا صديقين مقرّبين يُضرَب بهما المثل مدّة سبع سنوات. كنا نستلقي داخل القلاع التي نبنيها من الأغطية، أو في فناء منزلي، ويُغلق كلٌّ منا سحّاب كيس نومه حتى ذقنه، ونحدّق إلى النجوم. وكانت السماء تبدو بوجه جديد كلّ مرة.

شاهدنا الريح تخترق الغيوم، وكنا نُفاخر في مدى روعة ذلك. كنا أفضل من أخوين من ذات الرحم، لأنّنا اخترنا إخوتنا، ولأنّنا أصرَرْنا على اختيارها مرةً تلو الأخرى.

مكتبة ياسمين

بدأنا في بناء ثلاثة عرازيل لم تعرف طريقها خارج دفاتر رسوماتنا، باستثناء بضعة ألواح دُقَّت بمسامير على الأشجار. كان من المحتّم على صداقتنا أن تدوم.

امتدّت النّكات بيننا لأيام وسنوات. تصارعنا في كلّ مكان؛ في غرف معيشة بيتَيْنا مع صياح والدتَينا حتى نتصارع في الطابق العلوي أو في القبو، وتصارعنا في فنائَيْ بيتينا حتى تلطّعت سراويلنا بالعشب، وتمزّقت ستراتنا. افتعل كلٌّ منا كمائن للآخر، وتسلّل واحدُنا خلف الآخر بينما يحمل الحليب أو طبق السباغيتي، لندخل في نوبة ضحك حتى ونحن نمسح الأرض، أو ننزع السباغيتي عن الجدار. كنا نكذب من أجل بعضنا.

أذاقني الأمرّين حين أصرّت أمي على حلاقة شعري: «يبدو رأسك مثل مجسّم للكرة الأرضية! هنا بقع تمثّل جزرًا، وهذه قارّة كبيرة هنا، هل تمثّل أمريكا الجنوبية؟!»، لكنه أقنع قريبَه «ألونزو» بالقدوم لترميم الأذى، وحين شكرتُه قال وهو يضرب على صدره: «أتظنّ أنني سأترك فتايَ يذهب إلى المدرسة هكذا؟ لن أسمح لأحدٍ بأن يسخر منك، فيما عداي!».

كنا أصدقاء عُمُرٍ، وكبرنا قبل أواننا. كنا سندخل ذات الجامعة لنصبح شركاء سكن في الجامعة، وما بعدها. كنا نجوب إفريقيا، ساخرين في تمثيلية ندّعي فيها أننا مغامران مخبولان. «نحن في عطلة كما ترى»، كان يقول لي، فأردّ: «طبعًا طبعًا يا صاحبي، إنها مغامرة في البرّية». كنّا في غنىً عن توضيح بعض الأشياء بالكلام، أشياء كُنّا ندركها وحسب، كما ندرك أن الشمس موجودة، وكما تعرف أجسادنا كيف تتنفّس دون مساعدة منّا. كنا نعرف أنّنا سيساند أحدنا الآخر، لا بالطريقة التي تُقال بها هذه الجملة عادةً، وكأن الأمر بسهولةِ انتزاع الوبر عن سترة صوفيّة. كُنّا نتساند بالفعل.

متجانبان أو متجاوران أو متتاليان، خُلِقنا لبناء صداقة بهذه المتانة إلى الأبد. إلا أن أحدًا لم يخبرنا بأن لا شيء يدوم، وأن «إلى الأبد» مجرّد تركيبٍ مجازي يُطبَع على بطاقات المعايدة. وما كنا لنصدّقهم على كلّ حال. لم يحذّرنا أحد من أن كلّ شيء يتهاوى، وأن الجبال التي لا تهزّها الرّياح، قد تحترق كالقشّ في لحظة. تعلَّمنا كل هذا بالطريقة الصعبة، ووحدنا.

مكتبة ياسمين

تجرّعتُ رشفةً طويلةً لأُماطل. كنا قد أخذنا علب صودا من أحد البرّادات.

قال كيو: «نحتاج مكانًا هادئًا»، وتبعتُه حتى تجاوزنا النار صعودًا نحو التلّ، وكان ذلك مكانًا هادئًا فعلًا، فقد هدأت الحفلة كأن بابًا قد أُغلق عليها، ومجرّدُ جلوسِنا هناك جعلها أهدأ بطريقة ما. كانت تلك إحدى اللحظات التي نتحدّث عنها حين نسأل: «لو عاد بك الزمن، ماذا كنت لتقول؟».

ابتلعتُ ريقي بصعوبة، وشعرتُ بالمشروب الغازيّ يسري في حلقي كأنه على قيد الحياة. «وإذًا..»، قلتُ وأنا أزيد في المماطلة. كان بيننا بالكاد مترٌ ونصف، لكنّ قياس المسافة ما بين النقطتين جمال وكيو، كان يُقاس بالسنين الضوئيّة.

شدّ كيو ركبتيه إلى صدره، لكنهما انزلقتا نحو الأمام على الفور. كنت قد نسيت ذلك، كيف يبدو أنه يفتقد تمامًا السيطرة على جسده، وكأنك لو اقتربت بما فيه الكفاية، سترى خيوطًا تثبّت ذراعيه، ويتدلّى منها حذاؤه الرياضي. كم هي عشوائيّة ذكرياتنا، وأوقات استرجاعنا لها!

صاح أحدهم حين كنّا في الصف الثالث الابتدائي: «لا بدّ أن والدتك بجعة حتى تكون رقبتك بهذا الطول!». نكتةٌ مبتذلةٌ من شأن كيو أن يتركها تتدحرج بسهولة لتنزل عن ريشه الأنيق الآن، لكنها أدخلَته في دوّامة من الإحباط عندها، وارتدى المسكين سترات بياقة طويلة لأربعين يومًا دراسيًّا على التوالي.

في الصف السابع، أقنعتُ كيو بتصميم رقصة «هيب هوب» من أجل حفلة الشتاء، بينما كنا نتدرّب في قبو منزلي، قلتُ له واعِدًا: «سينضمّ الجميع لنا، ثِق بي»، ثم أكّدتُ له ونحن في مركز ساحة الرقص، بانتظار أن يضع منسّق الأغاني أغنيّتنا: «حياتنا على وشك أن تتغيّر».

حراثة الماضي تقودنا إلى قلبِ مكنوناته إلى السطح، فنحارب الرّغبة في البوح بالذّكريات، لأنّ السّؤال الحقيقيّ الذي نطرحه حين نقول إنّنا نفتقد الأيّام الخوالي، عندما نقول إنّ شخصيّاتنا السّابقة كانت لتفعل أو تقول شيئًا ما؛ هو «لماذا تغيّرنا؟»، لأنّ ما نقصده هو أنّنا غير راضين عن أنفسنا حاليًّا.

قلت:

مكتبة ياسمين

- شاهدتُ بضعةً من مقاطع الفيديو الخاصّة بنا منذ مدّة.

انكمش وجهه، وكأنّه لا يملك أدنى فكرة حول ما أتحدّث عنه، لكنني فهمتُه، لم يكن ينوي تسهيل الأمر عليَّ.

- جانسي؟ الشيء الذي أمضينا معظم ساعات يقظتنا في العمل عليه؟!

قال كأنه غير مهتمّ:

- أوه!

- كنّا مضحِكيْن بحقٍّ.

هزّ كيو كتفيه، وقال:

- فلنقل إن أحدنا كان مضحكًا.

ضحكتُ، وأجبتُه:

- لا تجلد نفسك يا رجل.

ورأيتُ ابتسامةً واهنةً سرعان ما اختفت، لكنّها كانت كافيةً لأواظب البحث عن كلّ ما فقدناه.

- هل لاحظتَ الذّكاء في النكتة؟ القاعدة رقم واحد في الكوميديا...

- كلما كانت النكتة أصدق، كانت أكثر إثارةً للضحك. يفاجئني أنّك تتذكّر ذلك.

كنتُ أُحسن الإصغاء حتى لو ظهر العكس.

هزّ كتفيه. سألتُه:

- أما زال كندريك فالون قدوتك؟

قال ليردّ اعتباره حالًا:

- أمَا زلتَ لا تعرف يمينك من يسارك؟

كان بإمكاني أن أردّ بدوري، لكنني تلقّيتُ كلامه بصدر رحب.

غاص القمر في قلب سحابة.

حاولتُ معه مرةً أخرى، فعليّ أن أتماهى مع الضّعف إن كنتُ أبحث عن نقطة ضعف، صحيح؟ قلت:

- حين كنت أشاهد مقاطع الفيديو الخاصّة بنا، أدركت فجأةً أنّني لم أشعر أنني مضحك منذ مدّة لا بأس بها. إذا كنت تعتبر أن سبعة عشر عامًا هي مدّة لا بأس بها، فأنا أتّفق معك غالبًا.

مكتبة ياسمين

- يا للهول! كيو ينقضّ على خَصمه بضربة عنيفة. إن تابع على هذا المنوال، فلن يصمد جمال حتى نهاية جولتين.

قلتُ محاولًا فعل أفضل أداء ممكن لصوت مُعلِّق الملاكمة.

- هل تملك المزيد من الضّربات في جعبتك؟

أومأ كيو برأسه، وقال:

- لديّ الكثير من اللكمات المُحكمة، صدّقني.

كان عليَّ أن أخفّف من احتدام الموقف، لكنني قلت:

- حسنًا، إليَّ بها. ماذا تنتظر؟

كانت عينا كيو تراقبان القمر حين تمتم:

- لم أسدّد لكمة جدّية لأحدٍ في حياتي، لا تدفعني لفعل ذلك.

ركض عدّة شباب مع خط الأمواج، ورموا طبق فريزبي عند الشاطئ.

- لم تضطر لتسديد اللكمات، لأنني كنت بجانبك أسدّدها بدلًا عنك. لطالما سا...

التفت كيو نحوي مثل إعصار، وقال:

- لطالما ماذا؟ لطالما ساندتَني؟ هل هذا ما كنت على وشك أن تقوله؟!

- إن لم أساندك بالطريقة التي تريدها، فلا حُسبان لكُلّ ما فعلتُه؟ كلّ شيء كان بلا معنى إذًا!

رفع كيو يده، وقال:

- ما زلت لا تفهم الأمر. مساندة الآخرين تعني مساندتهم بحسب حاجتهم، لا بحسب شروطك!

ضغطتُ على صدري قائلًا:

- أنا من لا يفهم الأمر؟ أنا؟ تقصد أنك خبيرٌ في مساندة أصدقائك؟

صاح بحنق:

- مقارنةً بك؟ بالطبع!

- متى سألتني عمّا أحتاجه يا كيو؟

همهم، وهو يلمس ذقنه، وقال:

مكتبة ياسمين

- هل كان من المفترض أن أسألك قبل أن تصدّني عنك تمامًا أم بعدها؟ لعلّه كان عليَّ أن أسألك من قبل، حين لم تصدّني سوى بنسبة سبعة وتسعين بالمئة.

وقفتُ بطريقةٍ ما، مما زاد من حنقي، لأنّ الفتى يكاد يكون بطولي، وهو جالس.

قلت:

- أنا من صدّك؟ تقصد لأنّني ما عدتُ أشاركك ألعاب الكمبيوتر، أو صنع مقاطع الفيديو المبتذلة بعد موت والديّ؟ أنا في غاية الأسف، لأنّ ألمي جرح مشاعرك يا كيو. أنا المُلام على ذلك.

- لحظة، تمهّل. هل كان سبب ألمك وفاةُ والدَيك أم تضخّم النّرجسيّة في رأسك؟

وقفتُ وأنا أحدّق إليه بقبضتين مشدودتين.

- تريد أن تضربني يا جاي؟ أتمنّى لو تفعل، أتمنى ذلك حقًّا.

تحوّل دمي إلى نار، وتطاحنت أسناني، وشعرتُ بانقباضٍ في راحتيّ، ووخزٍ في أصابعي، وبنبضاتٍ في حلقي.

وكانت تلك اللحظة الحاسمة. تباطأ الزمن، وصارت البحيرة ضبابية. رفعتُ ذراعي.

يصعب علينا تفسير بعض اللحظات، فنسمّيها قدرًا، ندمغها بدمغ الغيبيّة. وبسبب خللٍ في البصيرة، نظنّ أن اللحظة الآنية هي كلّ ما يهمّ. أيًّا كانت القوى التي جمعتني بكيو تلك الليلة، فإنّها كانت قد قرّرت كيف ستنتهي الأمور.

تدافعت الأمواج علينا. شعرتُ بأحماض معدتي، وكأنها ستندفق من شفتيّ في أية لحظة.

- عليَّ أن أضربك.

قلتُ مُخاطبًا كيو، ومخاطبًا نفسي.

سرعة انقلاب الكون تثير الغيظ، ولَكَم يثير الغيظ سرعة تسلّل السعادة من بين أصابع قبضتنا!

- افعلها! (صاحَ) ماذا تنتظر؟

مكتبة ياسمين

ولم أعرف إن كانت الإهانة تكمن في أنه يستفزّني وهو جالس، أم في ابتسامته العريضة، وكأنه قد ربح للتو عشرين دولارًا في قسيمة!

ولم يكن ذلك كيو الذي أعرفه، لكن بالمقابل، لم يكن ذلك جمال الذي أعرفه. والحقيقة هي أنّني لا أعرف ما يكفي عن أيّ شيء، باستثناء الشيء الوحيد المهم؛ لقد قتلهما.. كيو قتل والديّ. انطلقت ذراعي، واخترقت قبضتي الهواء مثل مركبة فضائيّة تبحر بين نيازك الإزعاجات التاريخيّة بيننا. أغمضتُ عينيَّ استعدادًا للصّدمة، ولم أعرف ما إذا كان جفناي مشدودين للغاية، أو إذا كانت درجة حرارة دماغي المرتفعة قد أذَت بصري، إلا أنّ السواد عمّ فجأةً، وصار كلّ شيءٍ ثقيلًا؛ شعرتُ في تلك اللحظة أن سندانًا قد هبط من السماء.

93

- ماذا تفعلان بحقِّ الله؟

قالت أوتوم، وهي تتعلّق بي، وتدفعني عن كيو، ونحن نصطدم جميعًا بالرمل.

عانيتُ لألتقط أنفاسي، ووقفتُ على قدميّ متهاويًا:

- لا، ما الذي تفعلينه أنتِ؟!

هزّت أوتوم رأسها، وقالت:

- قلتُ هذا سابقًا يا جاي، لن أكون برفقة رجل الكهف. تريد أن تكون رجلًا قويًّا بحقٍّ، جرّب أن تعتذر!

- أعتذر؟ (بصقتُ الرمل من فمي) عن ماذا؟

نظرت إليَّ، ووجهها يقول إنني أعرف قصدها، لكنني لوّحتُ في وجهها قائلًا:

- لا، هذا الفتى هو من عليه أن يعتذر.

نفض كيو سرواله القصير، وضحك قائلًا:

- هذا لن يحصل!

وقفت أوتوم مثل إشارة مرور بشريّة بيننا، رافعةً راحة يديها لتقابل إحداها كيو، وتقابلني الأخرى:

مكتبة ياسمين

- هذه حماقة؛ كلاكما على حقّ، وكلاكما على خطأ و...

هزّ كيو رأسه، وأشار إلى أوتوم قائلًا:

- هل هي حارستك الشخصية؟!

- لا تُشِر إليها. اقتربتُ منه لأضرب يدها، وأُبعدها، لكن أوتوم منعتني.

ضحك كيو، ورفع يديه معلنًا استسلامه، وقال:

- أوتوم، تبدين لطيفة. لعلّنا كنّا لنصبح أصدقاء في حياة أخرى، لكنني أشفق عليك، لأنك لا تعرفين ما سيجري.

هزّت أوتوم رأسها قائلةً:

- ما الذي تتحدث عنه؟

ابتسم كيو، وقال:

- هل تظنين أن جمال معجب بك بالفعل؟ أنت مؤقّتة يا أوتوم.

- كيو، حذار. هذا يكفي!

حاولتُ أن أخطو أمام أوتوم، لكنها ظلّت ثابتة في مكانها.

- أمثاله لا يهمّهم أمرنا، فنحن مجرد شخصيّات مؤقّتة، وسيتخلّى عنك حين يجد من يعجبه أكثر منك.

قالت:

- هذا ليس صحيحًا. أعلم أنك تعتقد أن هذا ما حدث معك، ولكنه غير صحيح!

- هذا ما حدث بالضبط.

سمع بعض الشباب ضجيجنا، وانتشروا على طول المحيط ليشاهدوا ما يجري.

قلت:

- توقف وحسب يا كيو!

- أعمِلي ذهنك يا أوتوم. لن يتردّد في التخلّي عنك. تريدين نصيحتي؟ بادري في التخلّي عنه.

- هل هذا ما تظنّه؛ أنه تخلّى عنك؟ كيف يمكنك التخلّي عمّا لم يكن ملكك يومًا؟

مكتبة ياسمين

بانت حيْرة كيو على وجهه، وقال:

- ما قصدك؟

لمستُ كتف أوتوم، وقلت:

- أوتوم، أرجوكِ، فقط...

لكنها ربّتت على يدي، وكأنها تقول إنها تسيطر على الموقف، وإنها ستدافع عني، وبدأ صوتُها يلين:

- اسمع يا كيو، لا أريد أن أجرح مشاعرك، صدّقني. لكن بالكاد كنتما أصدقاء. أشفق جمال عليك، وحاول أن يكون لطيفًا معك، لكنك... كنت تخنقه يا رجل. لم يستطِع التنفس. وكانت حياته مضطربة...

بدا أن شكوكًا بدأت تراود كيو، وصاح بصوت حادّ:

- أخنقه؟ كنت أحاول أن أسانده! هل هذا ما قاله لك؟ إنني كنت صبيًّا مثيرًا للشّفقة حتى أنقذني، هو مثل بطل خارق!

التفت إليَّ، وقال: بالكاد كنا أصدقاء؟ حقًّا يا رجل؟

لم أكن بحاجة إلى رؤية وجه أوتوم لأعرف أنها مجروحة، لكنها استدارت لتُريني وجهها على أيّ حال. ووحّدا قواهما للحظة، تحالفًا مؤقتًا ضد عدوّهما المشترك.

- جمال...

نطقت أوتوم اسمي، كأنّه إزعاج في حنجرتها!

هززتُ كتفيّ، وقلت:

- لا أرى كيف تشكّل المصطلحات التي استخدمتُها أيّ فرق...!

لكن كيو انفجر قائلًا:

- كلّ تفصيلٍ يشكّل فرقًا يا جاي! كنت صديقي المفضّل، وكنت تعاني من ألم قاسٍ، ماذا كان من المفترض أن أفعل؟

وللحظة، ما عاد الغضب وهّاجًا، وما عاد السّخط مُرًّا، فقد كان سؤاله في محلّه، ماذا كان من المفترض أن يفعل؟

- لا، أجبني يا جمال. ماذا كنت تتوقّع منّي؟

ولم أكن أعرف.. لم أعرف!

مكتبة ياسمين

تجمّع المزيد من الشباب، وشكّلوا دائرة حولنا ببطء.

سمعتُ نفسي أقول: «لا أعرف».

- هذا ما اعتقدته! (قال كيو بقسوة) الحقيقة هي أنك ضحّيت بي. كنت كبش فداء بالنسبة إليك!

بدأتُ أرتجف عندها، وأردتُ أن أقول: «لأنك قتلتهما... قتلتهما، وكنتُ لأضحي بك ألف مرّة إذا كان ذلك سيعيدهما!».

- انطق بالكلمات وحسب! (أصرّ كيو) كنت بحاجة إلى شخصيّة شريرة في قصتك، وقد اخترتني أنا الشخص الوحيد باستثناء ويت، الذي كان سيساندك مهما يجرِ.

قلت لنفسي مرارًا وتَكرارًا إن الأمر لم يكن شخصيًّا، لكنني شعرتُ بالغباء، وأنا أكرّر ذلك!

- هل تريد معرفة السّبب الحقيقي وراء غضبي الشّديد؟ لماذا ما زلت أُكنّ كلّ هذا الغضب؟

- لهذا لا أزال واقفًا هنا، ألا ترى ذلك؟

- أنا غاضب جدًّا، لأنك...

أمسكت أوتوم كتفي، وقالت:

- جاي، لا تفعل.

أفلتُّ من يدها مُقتربًا من كيو، وقلت:

- لأنك... لأنك...

لكنني لم أستطع فعلها، لم أستطع وحسب.

ضحك كوينسي قائلًا:

- لم أظن أنك قادرٌ على الإجابة!

وأومأ برأسه ناحيةَ أوتوم، وقال:

- أنت واقعة في غرام جبانٍ كما ترين!

قالت أوتوم ساخرةً:

- تُصرّ على إقحامي في المشكلة، ثم تدّعي أنك مهتمّ بمصلحتي؟! بصراحة أنا لا أفهم!

مكتبة ياسمين

سألتُه:

- ما خطبك يا كيو، ما مشكلتك؟ ما سبب غضبك أنت؟

- تعرف ما المضحك؟! (هزّ كيو رأسه، وصفّق بيديه) لستُ غاضبًا منك، رغم أنك اختفيت عندما كنتُ بأمسّ الحاجة إليك، ورغم أنك لم تبعث لي برسالة نصيّة واحدة حين كانت حياتي في الحضيض (ضحك كيو) لا، أنا غاضبٌ من نفسي، لأنني كنتُ غبيًّا، وضيّعت كلّ تلك السّنوات معك، حتى حين كان من الواضح بالنسبة للجميع أنّك لم تكن ستأتي، كنت أحمق بما يكفي لأؤمن أنك في طريقك إليَّ!

مشى كيو خطوة نحونا، وقال:

- تريد أن تعرف ما مشكلتي؟ أنت مشكلتي يا جمال.

ثم وخز صدري بإصبعه، وأكمل:

- لكنك لست مشكلتي الآن، ما عدتَ مشكلتي، ولن تعود مشكلتي مجدّدًا.

أصابني ذهولٌ وغضبٌ آلَمَ صدري، ولم أستطِع تركيب كلمة منطقيّة واحدة. تحوّل كلّ ما في داخلي إلى بخار وحرارة، وما عدتُ أستوعب حشد الشباب الذين يراقبوننا من الجسر، بوجوهٍ تعتريها ألوانٌ مختلفة من الذّهول.

كنتُ أعي أن أوتوم تمسك معصمي، وأن صديقاتها وقفن خلفها فجأةً. مددتُ يدي نحو كيو دون أن أفهم سبب تصرّفي، أو ماذا قد أفعل إذا توقّف، لكنّني كنت أعرف أنه قادرٌ على رميي نحو القمر لو أراد. دفعني بعيدًا، وتعاملت أصابعه معي، وكأنني بخفّة الرّيش... كأنني لا شيء، أو أقلّ!

92

مسحتُ أعلى كتفيّ أوتوم بيديّ، وسألتها إذا كانت بخير، وأخبرتها كم أنا آسف، وسألتُها إن كانت تريد مشروبًا، أو إن كانت تريد المغادرة، أم تشعرُ بالبرد، وتساءلتُ إذا كانت تشعر برجفتي. أجابت ثلاث أو أربع مرات قبل أن أسمع جوابها حقًّا. سقطت قطرة مطر لعينة على منتصف جبهتي، وكانت السماء أشبه بكدمة أرجوانية سوداء.

سألتني، وهي ترفع مفاتيح سيّارتها في وجهي:

- هل تريد أنت أن تغادر؟

مكتبة ياسمين

قلت:

- نعم، ربّما.

فصفعَتها في كفي.

رفعتُ حاجبيّ، وسألتُها:

- ألستِ قادمة معي؟

- سأجد من يُقلّني.

- أستطيع أن أنتظرك. لا بأس إن كنت تريدين البقاء لوقت أطول.

انحنيتُ لأعانقها، لكن الأمر كان أشبه باحتضان كرسي بذراعين.

- هل أنتِ بخير؟

سألتُ مجدّدًا.

قالت إحدى صديقاتها:

- بالطبع ليست بخير. لقد أُحرِجَت أمام المدرسة بأكملها، وأنت تركت ذلك يحدث ببساطة!

لويْتُ فكّي، وقلت:

- ما كان يفترض بي أن أفعل؟

أجابتني غاضبة:

- أن تدافع عن شرف فتاتك!

التفتُّ إلى أوتوم بانتظار أن تدافع هي عن شرفي، لكنها لم تقبل أن تلتقي نظراتنا. حاولتُ أن أقودها إلى مكان نجد فيه بعض الخصوصيّة على بُعد أمتار قليلة، لكنها لم تتزحزح.

- أوتوم (قلتُ بلطف) هل يمكننا التحدّث من فضلك؟

اعتادت أن تأخذ وجهي بين راحتيها، وتقبّل جبهتي وأنفي، وتنظر إلى عينيّ، وتقول: «سنظلّ معًا أنا وأنت مهما يحدث»، لكن ها هو جسدها ينطق بلُغةٍ لا أستطيع فهمها!

- أنا آسف، لــ... لا شيء مما قاله صحيح، تعرفين هذا.

قالت بنبرة لم يسبق لي أن سمعتُها:

- نعم، أعرف.

مكتبة ياسمين

- اسمعي، هل يمكننا من فضلك...؟

تجمّع أصدقاؤها، ووقف مَن كان خلفها إلى جانبها، وقالت:

- سألاقيك لاحقًا. اركن السيارة في ممرّ منزلك، وارمِ المفاتيح أسفل المقعد.

كانت تعرف ما يحدث عندما أستلم عجلة القيادة.

- ما رأيك لو أبقيتُها في غرفتي، وأتيتِ لأخذها عندما تصبحين مستعدّة؟

رأيتُ تلك الفكرة تطفو في ذهنها، وللحظة كانت أوتوم تتسلّق السلّم، وتدخل نافذة غرفتي. لكن للفقاعات الطافية في الهواء نهاية واحدة.

- اتركها تحت المقعد وحسب.

قالت وهي تعرف أنني غالبًا لن أستطيع مغادرة الحفلة، أو المنزل، أو الحيّ، وأنه من الممكن ألا أفتح الباب الأمامي حتى، لكنها أعطتني المفاتيح على أية حال، ولعلّها توضّح فكرتها بهذه الطريقة؛ أنني أحتاجها بطرائق لا تحتاجني بمثلها، وأنني أحتاجها أكثر.. أكثر مما تحتاجني، وأكثر مما أعرف.

- أوتوم، أخبرتك بأشياء.. أنا...

- يبدو أنك لم تخبرني كلّ شيء.

- ما الذي لم أخبرك به؟

اخترقتني نظراتها، وقالت:

- قلتَ إن كوينسي مجرد فتى، إحدى معارفك، لكن كلّ الذكريات بينكما تجعلكما أكثر بكثير من معارف!

طيّب، من الممكن أنني عدّلتُ الحكاية قليلًا، وأعطيت أوتوم نسخةً مختصرةً جدًّا؟ هذا ممكن، لكن العداوة ما بين جمال وكوينسي لم تتغيّر. كان ياما كان، كنا نتّفق، ثم قتل والديّ. انتهت الحكاية.

- كُنّا أصدقاء إذًا، من يهتمّ؟

أشارت إلى نفسها قائلة:

- أنا يا جمال، حبيبتُك، أنا أهتم.

- مهلًا، هل تستفزّك الدلالات اللغوية الآن؟

مكتبة ياسمين

- لا يا جمال، تستفزّني حقيقة أنك كذبت بشأن الأمر، وهو شيء سخيف لتكذب بشأنه، فما الذي تكذب بشأنه أيضًا؟

- لا تفهمين الأمر.

- لأنك لم ترِد أن أفهمه يومًا! ما المشكلة؟ ظننتَ أنني لو عرفت ما فعلتَه مع كوينسي، لرأيتُ أنك وضيع، صحيح؟

حرّكتُ لساني حول فمي، وقلت:

- أوتوم، أرجوك توقفي عن هذا. دعينا... دعينا نذهب إلى مكان ما، ونتحدث، وسأخبرك بكل ما تودّين معرفته.

لكن صوتها صدّني:

- من الأفضل أن تذهب يا جمال.

ولعل القمر المكتمل كان السبب في تغيّر أحوال القلوب.

- هل أنت جادّة؟

- نعم، أنا جادّة.

وتراصّ أصدقاؤها أكثر بطريقة ما.

- تدفعينني عنك بسبب شخص ناقمٍ كنتُ أعرفه؟ حقًّا؟ ظننتُ أنّ علاقتنا كانت مختلفة!

- أنا أيضًا يا جمال! (قالت، وهي تطوي ذراعيها) أظنّ أنّ كلينا قد تعلّم الكثير هذه الليلة.

- ذلك يا أوتوم (أشرتُ إلى المساحة الرملية التي كنّا قد أخليناها) ذلك لم يكن متعلّقًا بك.

- كيف لم يكن ذلك متعلّقًا بي؟

- كيف قد يكون متعلّقًا بكِ؟

- هذا هو الجزء الذي لا تفهمه، والدّرس الذي لا تدَع نفسك تتعلّمه (هزّت رأسها) عندما يحبّك شخص ما يا جمال، فهو يحبّك بكلّيّتك. أنا أحبّك بكُلّيّتك؛ ألمك هو ألمي، غضبك هو غضبي، لذلك، عندما تكون في مشكلة، أكون في مشكلة. لكن أنت؟ وكأنك تدفع الناس عنك أكثر كلما ازدادت رغبتهم في حبك!

مكتبة ياسمين

- هذا غير صحيح.

- لا؟

- على الإطلاق.

- جمال، منذ متى ونحن معًا؟

أغمضتُ جزئيًّا، وقلتُ مرتبكًا:

- ما علاقة ذلك...؟

لكنها لم تنهِ كلامها:

- هل تحبني يا جمال؟

- مهلًا، ماذا؟!

- هل.. تحبّني؟

- لن أنضمّ إلى هذه اللعبة!

- من يلعب يا جمال؟ أنت أم أنا؟

- يا إلهي! هذا البدر تسبّب بجنون الجميع الليلة.

- أو تسبّب برجوعهم إلى صوابهم أخيرًا. أخبرني إن كنت تحبّني. انطق بالكلمات.

- هل أنتِ جادّة يا فتاة؟

- الأمر سهل، صحيح؟ ثلاث كلمات. ألستَ كثير الكلام؟ قُلها الآن: أحبّك يا أوتوم.

- لماذا تحاولين إحراجي الآن؟

- أوه! أنا من أحرجك يا جمال؟ أنا أحرجك؟ يقف أصدقائي هنا، ولم يسمعوك تقول إنك تحبّني. أظن أنني من يشعر بالحرج!

- لقد رأيتِ ما حدث للتو، وتعرفين أن ذهني مشوّش للغاية، والآن تريدين أن نجدّد نذور حُبّنا؟!

وكنتُ أعرف أنّني أحمق، وأنني أحبها حقًّا. فباستثناء أختي، أحب أوتوم أكثر من أيّ شخص على الكوكب، ولهذا السّبب تمامًا لم أستطِع أن أخبرها، لأنّ الكون سفّاح مُدرَّب، وحالما تبوح بأمرٍ ما؛ لحظةَ تأكيدك لنقاط ضعفك،

مكتبة ياسمين

وكشفك لثغراتك، يبدأ الكون بالعدّ التنازليّ، وبعد حين تجده يطاردك، ويدمّر كلّ ما ومَن تحبّ.

أعرف هذا، لأنني شهدته يحدث من قبل. ليس هناك أسوأ من أن تحبّ شخصًا ما سوى أن تخبره بذلك.

- نحن معًا منذ سنتين ولم تخبرني، ولا لمرّة أنك تحبّني. سنتان، ولم أتذمّر مرّةً، ولم أضغطك، ولم أُلمّح للأمر حتّى يا جمال. كنت أعرف أنّك خائف، وفهمت سبب خوفك، وكنت أعرف أنّك ستجد طريقةً لتقولها في النّهاية، لكن ما قاله كيو صحيح، في النّهاية شعرتُ بالغباء، وأنا أكرّر ذلك لنفسي.

شعرتُ بالحُرقة في حلقي، وعرفتُ أن صوتي سيتكسّر حين أتكلّم بعدها:

- أوتوم، حبيبتي، أرجوك...

وللحظة، بدا الإحباط في نظرها واهنًا، لكنني رأيتُ بوضوح أن ما جرى ليس أمرًا بإمكانها تجاوزه، رأيتُ التحوّل في نظراتها، وتصلّبها أمام ناظريّ. كنتُ أخسرها.

وكأنني قد فعّلت برنامج تعقّب حركة الأصدقاء، حيث أستطيع أن أعرف أماكنهم دون أن يكونوا معي فعلًا. كنت أعرف مكان أوتوم، لكنني لم أستطِع أن أكون إلى جانبها.

هزّت رأسها، وقالت:

- أراك لاحقًا ربما.

كان عليَّ أن أترك نفسي أغوص في الألم، لكنني ادّعيت اللامبالاة، وتضاعف العبء؛ قلت:

- قد لا أكون موجودًا لاحقًا.

أومأت برأسها، وقالت:

- كما أخبرتك، اترك المفاتيح تحت المقعد.

أشحتُ نظري عنها، ورمقتُ أصدقاءها بنظرة، ولمستُ رأسي بأصابعي كأنني أرتدي قبّعة، كأنني أغادر صالة رسم، وقلت: «ليلةً سعيدةً أيتها السيّدات»، ثم مشيتُ وحدي خارج هيئة طلاب ثانوية إليتاون بأكمله، ولحسن حظّي، واصَل معظم الطلاب الاحتفال.

مكتبة ياسمين

ودّعتُ بضعة أشخاص، وشكرتُ المُضيف لاستضافتي، وتبسّمتُ كأن كلّ شيء على ما يرام، وضحكتُ كأنني بأحسن حال.

حرّكتُ المفاتيح بين يديّ مثل حجر نردٍ، وقلتُ لنفسي: «كلّ شيء تحت السيطرة يا جمال. ما جرى ليس بفاجعة!».

مشيتُ فوق التلال الطويلة المنحدرة، والأفكار تتدافع في عقلي مثل شريط تسجيل الأسهم المتحرّك.

كيف استطاع كيو ألا يعترف بفعلته؟ كيف له أن يقارن أفعاله بأفعالي؟ أعترف أنني فوّتُّ شيئًا مهمًّا في حياته، لكنه كان السبب في مأساة حياتي. وماذا يعني أن أخسر أوتوم خلال دقيقتين؟ غياب ثلاث كلمات لا يعني غياب الحب! قد يكتمل وجود الحبّ دون وجود الكلام. ألم تشعر به؟ ألم تشعر أنني أحبّها؟ ألم يكن ذلك الشعور، ذلك اليقين، أفضل من أيّ كلمات؟!

وأتت أفكار في الدرجة الثانية من الأهمية، مثل: كيف سأصل إلى المنزل؟

ويت، الشخص الوحيد في الوجود الذي بإمكاني أن أتّصل به. ويت، لولاها لكنتُ وحيدًا.

كنتُ في منتصف طريق صعود السلّم المتهالك، وأنا أفكر كيف للأمواج أن تتحوّل فجأةً، وتصبح بطول البشر. كنتُ في آخر السلّم تقريبًا حين سمعتُ الصرخات...

91

توقّفتُ، فلعلّه كان شخصًا ما يلعب، أو لعلّي تخيّلتُ الصوت، أو كانت تلك موسيقى، لكنني سمعتُ صرخةً أخرى مجدّدًا، بعيدًا عن الحفلة، في الطرف الآخر من التلال. لم يبدُ أنّ الشباب حول النار قد انتبهوا إلى الصوت. مسحتُ المكان بنظري بحثًا عن أوتوم، لكنني لم أرَها. عدتُ أدراجي نزولًا عن السلّم. لم تتوقّف يداي عن الارتعاش، ثم أدركتُ أن ذلك بسبب ارتعاش جسدي بأكمله. صعدتُ التلّ الرمليّ راكضًا، مُسبّبًا انهيارات صغيرة فيه، وفقدتُ توازني؛ تدحرجتُ نزولًا حتى منتصف الطرف الآخر قبل أن أتوازن.

سمعتُ صرخة أخرى أقربَ، إنما أخفَتَ بطريقة ما، لكنني لم أرَ أحدًا. مسحَتْ عيناي الأفق، وعندها رأيتُ ذراعًا أو ساقًا تندفع مُخترقةً سطح الماء،

مكتبة ياسمين

ثم ترتطم عائدةً إلى أسفل الأمواج. ركضتُ عندها عبر الشاطئ بصدرٍ مهتاج، وبرجلين وذراعين تندفعان نحو الهواء بعنف. رأيتُ نفسي شعلةً زرقاء بلهيبٍ يتّجه نحو الماء، وكنتُ أسرع من أيّ وقتٍ مضى، ورغم ذلك، لم أكن سريعًا بما يكفي.

انقضضتُ على السلّم المتكسّر قاطعًا درجتين في كلّ خطوة، وانزلقتُ في منتصف طريقي، لأتوازن وأندفع مكملًا الصعود حتى وصلتُ إلى الرصيف الأسمنتيّ الطويل.

شقّ البَرْقُ السماء إلى نصفين متعرّجين، وأرعدَت، ثم بدأ المطر يسيل على وجهي. تبلّلت سترتي، فخلعتُها، وتركتُها تسقط خلفي. لم أتمهّل في سعيي عندها، بل ركضتُ أسرع. ضربَتِ الحصى المبعثرة والصخور المسنّنة قدميَّ، لكنني لم أتباطأ، لم يكن التباطؤ خيارًا. حين وصلتُ إلى النهاية، لم أستطع التمييز بين الماء والسماء، فقد كان كلاهما حالكًا وغاضبًا. ولو كنتُ ذكيًا، لتأكّدتُ من صفاء الماء وعمقه الكافي، فضحالتُه كانت لتعني تهشّم رقبتي وعمودي الفقري، وكثرةُ الصخور كانت لتعني أن أتكسّر مثل البنياتا[1] على الشاطئ، لكن لم يكن هناك وقتٌ لإلقاء نظرة قبل القفز، وكان الأوان قد فات لتغيير مساري، فقد صارت الأمواج تطالُني، والسطح كان يقترب بسرعة وبشقّ الأنفُس، كان من المحتمل أن ألقى حتفي.

استرقتُ شهيقًا من الهواء، وسدّدتُ نفسي كالرمح بين الأمواج. لم أمُت. سبحتُ مُلتاعًا، ومددتُ ذراعيّ، وركلتُ بقدميّ. كان من المفترض أن أكون قريبًا، إلا أن الأمواج كلّها كانت متماثلة. توقّفتُ عن السباحة، وغمرتُ رأسي تحت الماء، وأنا أتلفّت برويّة ماسحًا الظلام بناظريّ، حيث كانت سمكاتٌ صغيرة تلامس قدميّ.

درتُ حول نفسي عدّة مرّات، وحاولتُ تهدئة روع قلبي، وذعره قليلًا.. ثم رأيتُ حركةً.. شيئًا ما يتأرجح على بُعد ما يقارب الأربعة عشر مترًا اتجاه القمر. تطلّبَت مواجهة التيّار كلّ قوّتي، إلا أنني وجدتُ نفسي محاطًا بالمزيد من اللاشيء عندما وصلت. أخذتُ شهيقًا بأعمق ما أستطيع، مستنشقًا الهواء

(1) دمية هشّة محشيّة بقطع الحلوى. تُصنع عادة من الكرتون، تُعلّق بحيث تُضرب حتى تتهشّم، ويقع ما بداخلها.

مكتبة ياسمين

الصيفيّ والبرغش، ثم غصتُ في الماء. عمّ السواد للحظة حتى كدتُ لا أعرف إن كانت عيناي مفتوحتين.

غصتُ أعمق، وأعمق، ورأيتُ في الظلمة القاتمة تحتي جسدًا مرتخيًا ينجرف بعيدًا. غصتُ أكثر، ولم تصل أصابعي إلى الذراع. نفدَ الهواء، لكن العودة إلى السطح كانت تعني الضياع الأبديّ للجسد.

زفرتُ ببطء، مُستنزفًا كلّ جُزَيءٍ استطعتُ كشطَه من رئتيّ، واندفعت آلاف الفقاعات الصغيرة من رئتيّ. ركلتُ، ودفعتُ بكلّ قوّتي لأغوص أعمق. ومن ذلك العمق، ما عاد باستطاعتي أن أُبصر شيئًا. مددتُ إصبعي آملًا أن أمسك أيّ شيء على الإطلاق، ثم شعرتُ بملمس قماش.

رفعتُ يدي لأقبض على مساحة أكبر من السترة، وضغطتُها قريبًا من صدري، وجدّفتُ نحو السطح كالمجانين بيدي الحُرّة. ارتطم الجسد برأسي، وابتلعتُ عدّة جرعات من الماء. ضغطتُ على أسناني حتى اصطكّت، وواصلتُ التجديف، لكنني كنتُ مشوّشًا، فلم أعرف إن كنتُ أسبح نحو الأعلى أم الأسفل. لم أتوقّف عن المعاركة بكُلّ حال، حتى رأيتُ بصيصًا خافتًا من ضوء القمر.

اخترقنا السطح، وعندها أدركتُ هويته؛ كان كيو يختنق، ويتهوَّع، ويلطم مُغرقًا رأسَينا، وسحَبَنا ذعره نحو الأسفل.

«توقّف عن مقاومتي يا كيو، وإلا فسيغرق كِلانا!»، لكنّه ظلّ يقاوم، ولا أعرف مقدار الماء الذي تنشّقتُه.

ضربتُ وجهه بقوّة، فتوقّف. سماعُ أنفاسي المهتاجة أخافني. تفحّصتُ الأفق.

انزلق كيو إلى الأمام، وضرب وجهه سطحَ الماء. سحبتُه نحوي، كأنني أؤدي مناورة هيملش. صفعتُه مجدّدًا، وأنا أهتف: «كيو، استيقظ يا رجل»، صفعتُه مجدّدًا بقوّةٍ أكبر، «كيو! استيقظ حالًا يا رجل، لا أمازحك».

بالكاد تحرّك، وكان ذلك كلّ ما استطعتُ فعله لمساعدته ونحن في الماء. فرصة كيو الوحيدة للنجاة هي في وصولي إلى الشاطئ. فكّرتُ في أنني لو استطعتُ قطع معظم المسافة سباحةً، فقد يتكفّل التيّار بالباقي، ويلفظنا على الشاطئ. ولم تكن تلك المرّة الأولى التي أتمنّى فيها أن أكون أطول

مكتبة ياسمين

وأضخم، وشعرتُ أن السنتيمترات العشرة، والثلاثين كيلوغرامًا، التي أرخى كيو بثقلها عليَّ كانت أشبه بشاحنة حاويات.

أدرتُ كلَينا على ظهرَينا، وشبكتُ ساعديّ تحت كتفيّ كيو، وبذلتُ كلّ ما في وسعي حتى أركل إلى جانبيّ جسده، لكنني لم أجِد مساحة كافية للحركة، واستغرق تقدُّمنا ضعف المفترض، وأُنهِكت قواي. فكّرتُ في أنني غير قادر على فعل ذلك، وأننا لن نصل. طنّت طائرة صغيرة فوقَنا عابرةً الغيوم. نظرتُ خلفًا تجاه الشاطئ، وبطريقة ما بدَا أقرب. واصلتُ التجديف متخبّطًا، فصار أكثر قربًا، وشعرتُ بالمسافة تتقلّص مُعتاشةً على ألمي. رأيتُ نار الشاطئ بلهيبها البرتقاليّ المتراقص، والمسافة تتقلّص.

سمعتُ بعدها صوت الباس المنخفض الصادر عن مكبرات صوت الحفلة. كنّا ما زلنا بعيدَين، وغير قادرَين على سماع الأصوات. تركت نفسي أبتسم، فقد كنّا على وشك الوصول، بعدما كانت احتمالات وصولنا معدومة تقريبًا، لكن الغريزة البشريّة للبقاء تفرض نفسها في كلّ موقف. كِدتُ أضحك، لكنني شعرتُ بألم هائل يجري في الجزء السفلي من جسدي، فقد اصطدمَت ركبتي، وربلتي، وقدمي بشيء حادّ وخشن. شعرتُ بدمي يغادر جسدي.

قلتُ لنفسي: «تماسك يا جمال! ركّز! تابع يا رجل.. لا يمكنك التوقف».

تخيّلتُ كيو يقول هذا لي، وحاولتُ استعادة وضعيّتي، وإيقاع حركتي، لكنني فقدُتها. كنا بالكاد نتحرّك.

- لا، لا، هيّا يا جاي. لن تموت اليوم. ليس بهذه الطريقة.

ركلتُ، ودفعتُ، وسبحتُ.

جدّفتُ، وخفقتُ، وتخبّطتُ.

لكننا كنّا نغرق، ولم أعرف أيّ شعورٍ تغلّب في داخلي؛ الألم المبرّح أم الأسى المُحبِط. عانيتُ لأُبقي رأس كيو فوق الماء، حتى لو عنى ذلك غوص رأسي. سعلتُ، وأخفضتُ جسدي حتى تغيّرت وضعية كيو، وصار أثقل عندها، فثبّتني وزنُه تحت الأمواج. اندفعتُ نحو السطح بعينين متّسعتين، لكنّه ازداد بُعدًا مع مرور كلّ ثانية. لم أستطع التنفّس.

مكتبة ياسمين

حاولتُ دفع معدة كيو نحو الأعلى، آمِلًا أن أستطيع رميَه تجاه التيَّار، لكنه بالكاد تزحزح، وهوى عليَّ بقوَّة أكبر وحسب. وأدركتُ أن تلك كانت النهاية، كنّا نغرق أسرع مما استطعتُ أن أجدّف.

انكمش القمر حتى اختفى.

وعرفتُ كيف يأخذ الواحد مِنّا آخِرَ زفير.

90

أفتح عينيَّ أم أغلقهما عندما أموت؟ أيّهما الأفضل عندما يجدونني؟ في حال وجدوني..

هل سيقولون: «هذا الرجل قاتَل حتى النهاية؟»، هل إغلاقُ عينيّ يعني أنني أستسلم؟

هل سيعني ذلك أي شيء لِويت؟ لِأوتوم؟ أما زالت مفاتيحها في جيبي؟ إنها النسخة الوحيدة. أعرف هذا، لأنها كانت قد قفلَت السيارة والمفاتيحُ بداخلها، وأنجدها ابنُ عمِّها صانعُ الأقفال، وجعلَها تعِده بأنها ستصنع نسخة احتياطية، وقد ذكَّرتُها، لكن... أليست هذه الحياة؛ أن نظنّ أن الغد آتٍ بلا ريب؟

اخترق الماءَ عمودٌ من الضوء فجأةً، وهرع شيءٌ ما نحونا. اصطاد أحدٌ ما خصري رافعًا إياه، ومن ثمّ رُفع خصر كيو. ومثلما تنهار الأحلام، انتُزِعنا من الأعماق.

89

لم أدرك أنني من يصرخ، وأنهم عندما قالوا: «من فضلك، توقّف عن مقاومتنا!»، كنت أنا المُخاطَب. ولا أظنّ أن اضطراب ما بعد الصدمة يحدث بعد الصدمة بثوانٍ، لكن لعلّ السبب هو الماء الذي ابتلعتُه. خِفتُ أن أفتح عيني، لأن شيئًا بدَا غير صائب، وشعرتُ أن عِلّةً أصابتني، كما لو أن رأسي وجسدي قد افترقا، وماذا لو كان هذا ما نشعر به عندما نكون حديثَيّ الوفاة؟ ردَّد شخصٌ ما اسمي: «جمال.. جمال»، بصوتٍ ساذج وأجوف، كأن حوضَ

مكتبة ياسمين

سَمَكٍ قد توضّع فوق رأسه. لمسَت يدٌ خَدِّي وكأنّها تعرفني، وقال الصوت: «افتح عينيك يا جمال.. افتح عينيك.. أرجوك».

وعندما فتحتُهما أخيرًا، مالَت أوتوم فوقي، وفي ملامحها ذُعرٌ آمل ألا يتملّكها مجدّدًا في حياتها. حاولتُ أن أبتسم، لكنني وجدتُ نفسي أتقيّأ على الرمال. لم أستطع التوقّف عن التقيّؤ حتى بعد مرور عدّة دقائق، خرجت من جسدي سوائل أشبه بِبحيرة وعلى ارتفاعٍ هائل، وشعرتُ أن عملاقًا يركل كليتي. لو كان المشهدُ مرسومًا بطريقة كاريكاتوريّة، كان القفزُ على بطني ليؤدّيَ إلى انطلاق نافورةٍ من بين شفتيّ، مع سمكة بائسة تسبح فوقها.

- أ... أين كيو؟

قلتُ متلعثمًا، وكان عليَّ أن أنازع مع كلّ نفَس، وكأنني اضطُرِرتُ فجأةً لأن أطلب من رئتيّ وأنفي التنفّس بشكلٍ واعٍ إن أنا أردتُ التنفّس.

- أين كيو؟ هل هو بخير؟ أين هو؟

كانت أوتوم قد اختفت، ولم يُجِبني أحد، إلا أني رأيتُه، كان يبعُد عني ما يقارب الخمسة أمتار، مستلقيًا على بطانيّة، ووجهُه نحو الأعلى، ورغم ضخامة البطّانيّة، فقد ظلّ نصف جسده ملامسًا للرمل.

شرَعتُ في النهوض، لكنهم أوقفوني. قالوا:

- عليك أن تهدأ.

إلا أنّ أحدًا سواهم لم يكن هادئًا.

وقف شباب عرَفتُهم طيلة حياتي في نصف دائرة حول كيو، وأيديهم تُغطّي ذُعرَهُم، وتتشابك فيما بينهم، وتمسح، وتُصلّي.

أفلتُّ من قبضتهم، لكنني تحرّكتُ بسرعة كبيرة، وقبل أواني، فكِدتُ أرتمي على كيو، وانهرتُ بجانب المرأة التي كانت تُنعشه، ولم يكُن إنعاشًا كالذي نشاهده على التلفاز، بل كانت العظام تتكسّر، والرسغان يفرقعان، وشاهدتُ جسد شخصٍ، كنت أظنّ أنه سيظلّ في حياتي إلى الأبد، وهو يُفَرَّغ من الحياة. شاهدتُ جسده يُستنزَف بسرعة، وكأنّ مضخّة قد وُصلت إلى قدميه لتمتصّ الحياة بفعاليّة حتى تكاد تراها تُسحَب منه، تنزل من رأسه إلى قدميه، إلى كاحليه، متناقِصةً أكثر فأكثر.

- لا يزال لا يتنفّس.

مكتبة ياسمين

قالت مخاطبةً الرّجل الذي يُقحم الهواء في رئتَيْ كيو.

وكأنّ كيو اتّخذ خيارًا عندها.

لكنّهما واصلَا الدّوران؛ من رأسه إلى صدره، ومن صدره إلى رأسه، كأنهما سيستمرّان في ذلك إلى الأبد. وإن فعلَا، إن لم يتوقّفا، فسيكون الأمر كما لو أن كيو سيعيش بطريقة ما.

رجَوتُ كيو أن يستيقظ، صِحتُ في وجهه، وقطعتُ وعودًا لا أستطيع الوفاء بها. كيف يموت الناس بهذه السّهولة؟ وكأننا قواطع كهربائيّة غبيّة تنزلق في لحظة، وما من أحد ليُعيد تشغيلنا! كانت أنفاس كيو متقطّعة وخافتة منذ لحظات، لكنها كانت أنفاسًا. أمّا الآن، رفعتُ يدي نحو أنف كيو، ولم أشعر بشيء.

وشعرتُ أنني لا شيء...

88

رأيتُ مشهد إنعاش في فيلم لا أذكُره، حيث تنفتح عيون الضحية التي كادت تصبح في خبر كان، وهي تسعل، وتتبدّل تعابير وجوه كلّ المتفرجين من الذّعر إلى الارتياح، لأنها ستعيش، بل تحاول الجلوس كما لو أنها قد استيقظت من حلم. وتذكرت والدة كيو، السيدة بارانتيس، وهي تهزّ رأسها، وتقلب عينيها استنكارًا، وهي تقول إن ذلك نادرًا ما يحدث بهذه الطريقة، وأن المُسعفين لا يستطيعون إنقاذ الضحايا غالبًا، لذا، عندما شهق كيو فجأةً توقًا إلى الهواء، كنتُ مصعوقًا رغم سعادتي، وما كان عليَّ أن أتفاجأ، فلطالما فاقَ كل التوقّعات.

- مرحبًا يا رجل.

قلتُ له، لكنه لم يرُدّ، واكتفى بالتحديق إليَّ لوهلة قبل أن يُغمض عينيه مجدّدًا.

- إنه بخير، صحيح؟ يستريح وحسب، صحيح؟

لمستُ كتفه، وسألتُ.

ولم يُجِب أحدٌ، إن كان أحد يعرف الإجابة. وبدأ كيو يغيب عن الوعي بينما كانوا يدخلونه إلى سيّارة الإسعاف. نهضتُ بصعوبة، وأُفلتَت مني شتيمة حين ارتطمت ساقي المُضمّدة حديثًا بخلفيّة السيارة.

مكتبة ياسمين

- مهلًا (قطّبت المُسعفة الطويلة وجهها) هل أنت أحد أفراد عائلته؟

كذبتُ:

- نحن أخوان.

- اتّصل بوالدَيكما، أخبرهما أن يقابلونا في...

اقتربت أوتوم، وتشتّتُّ.

أشارت بيدها بحركةٍ لم أفهمها، قالت:

- مفاتيحي، أنا آسفة، لكن... إن كانت بحوزنك...

سحبتُها من جيبي متفاجئًا من أنها لا تزال به.

قالت:

- شكرًا.

ولعلّ أصابعها بقيَت في يدي أطول من اللازم بثانية.

من المُربك أن القلب يحتضن الألم، والحُبّ في ذات الحُجيرة.

تابعت:

- سعيدةٌ، لأنك بجانبه الآن.

كنتُ سعيدًا بدوري، لكنني لم أشأ أن أتركها هناك، رغم أنني فعلتُ ذلك تمامًا قبل ساعة.

بعد وفاة والديّ بعدّة أيّام، ضعُفَ نظرُ عيني اليمنى، وكنت أتجاهل بعض الإشارات؛ بعض العوائم، وتشوّش في كلّ شيء، وكأن الكون غُطِّي بالبلاستيك فجأةً! كنتُ أعاني من انفصالٍ في الشبكيّة بسبب الحادث.

وبّخني الجرّاح:

- كنتَ على بعد يوم أو يومين من فقدان نظرك إلى الأبد!

هكذا كانت علاقتي بأوتوم، وكأننا كنّا نتباعَد بطرائق تبدو قليلة الأهميّة، فكان باستطاعتنا تجاهُلها، وإقناع أنفسنا بأننا نستطيع الاستمرار بتلك الطريقة، إلا أننا إن لم نُصلحها اليوم أو غدًا، فسنخسر عَلاقتنا إلى الأبد.

- هل تريدينني أن...

- لا (قاطعَتني) أنتَ حيث يجب أن تكون.

أومأتُ برأسي، ووعدتُها أن أبعث لها رسالةً حين أعرف ما يجري.

مكتبة ياسمين

نظرتُ إلى كِلتا النافذتين الصغيرتين المدوّرتين مثل تلك الآلة التي يسحبها طبيب العيون أمام المريض، ويقول: «هل ترى بشكل أفضل هنا أو هنا؟»، وكأننا لا نتحرّك، والشاطئ هو من يبتعد عنا. انزلقت أوتوم بعيدًا عني بثبات، كما لو كانت على حزام ناقل.

إلى الأمام: صفّارات الإنذار صاحت داعيةً الناس لإفساح الطريق.

إلى الخلف: أنارَت أضواء السيّارة الوامضة الكثير من الوجوه المذعورة الشبيهة بيقطين الهالوين المنحوت. حاولتُ أن أحسب مدى بُعدِنا عن المستشفى، لكن ذهني كان مشوّشًا. خاطبت المسعفة غرفة الطوارئ بواسطة الراديو: «ذكَرٌ يبلغ ستة عشر عامًا مُصابٌ بــ...»، وقرأَت معلومات كيو بسرعة كأنه بطاقة بيسبول، وحاولتُ أن ألتقط بعض المعلومات.

قالت إن رئتيه تبدوان رطبتين، نبضُه يبدو هراءً لم أفهمه.

طمأنتني المسعفة الطويلة: «لا تقلق، إنه لا يزال في الداخل. إنه مُقاتلٌ شرس».

قاومتُ السؤال عن عدد المرات التي قالت فيها ذلك، وكانت مخطئة. قبل ساعة، كانت أيدينا مُحكَمة في قبضاتٍ متعاركة، وها أنا أمسك أصابعه في يدي. رمشَت عيناه، حاول كيو سحب أنبوب الأكسجين من فمه، لكن المسعف ثبّتَه في مكانه. «كوينسي، أريدك أن تتحكّم في تنفسك، حسنًا؟»، لكن كيو بدأ بالتلوّي محاولًا تخليص نفسه. فتح عينيه، وهو يضغط على يدي.

قلت للمسعفة:

- أعتقد أنه يحاول أن يقول شيئًا ما.

أزاحَت القناع جانبًا، فمِلتُ نحو وجهه، وقلت:

- عليك أن توفّر طاقتك يا رجل.

لكن كيو كان يرتجف، وقال:

- جاي... (وفاتتني كلمة) ...بخير؟

- من تقصد يا كيو؟

- الفتاة... هل هي بخير؟

تبادلتُ النظرات مع المسعفة. لم أعرف من يقصد، لكن الوقت لم يكن ملائمًا للأخبار السيئة.

مكتبة ياسمين

قلت:

- الجميع بخير، كلّ شيء على ما يرام..

«لقد نجَت»، همس وهو يغمض عينيه. «لقد نجَت»، كرّر، وانهمر الدّمع على خدّيه.

87

توقفت صفارات الإنذار، ثم سحبوا كيو خارجها، وهرعوا به نحو الداخل، وتأرجحت العجلات المتحركة على الأسمنت، ثم على البلاط المشمّع، وركضتُ خلفهم. أشارَت المسعفة الطويلة إلى نُضُدٍ مُحاط بزجاج سميك كما في البنوك. ثم صاحت: «هنا.. مريض جديد».

ولعلّ وجوه أطبّاء غرفة الطوارئ المتوترة للغاية، أو السرعة التي دفعوا بها كيو عبر الرّدهة نحو البهو، كانت أسبابًا أعادَتني إلى الماء، وغرقتُ بكُلّي، وانتابني هلَعٌ دار بي في كلّ اتّجاهٍ إلا نحو الأعلى. فماذا لو كانت هذه هي اللحظة الحاسمة؟ آخر مرّة أرى فيها كيو. ماذا لو كانت ستبقى هذه الحال إلى الأبد؟

- مهلًا.. (سمعتُ نفسي أقول) تمهّلي وحسب!

التفتت المسعفة الطويلة، ورمقتني، لكنهم لم يتمهّلوا.

- لديّ ما... أقولُه له...

لكنهم اندفعوا نحو الباب المزدوج.

- يجب أن يعرف أنني...

لكنّهم اختفوا في البهو المُعتم.

ركضتُ نحوهم، وضغطتُ كفّيّ على دفّتي الباب المخصّص للموظّفين فقط، قبل أن يُغلَقوه، لكن موظّفة الاستقبال -وهي سيّدة متبسّمة بِخِصَل شعرٍ بنفسجيّة- قرأت أفكاري، وردَعتني:

- أهذا أخوك؟

- لا.. إنه صديقي. (لم أُكمل: السابق).

- إنه في أيدٍ أمينة.

مكتبة ياسمين

وضعَت جهازَ نداءٍ شبيه بالمطاعم في راحة يدي، وقالت: «ستصدر رنينًا عندما يستجدّ شيءٌ». وقالت: «اجلس حيثما تشاء»، وكأنّها مُضيفة، وأنا هنا لأطلب كأسًا من المثلّجات.

وجودي هناك، في مساحة انتظار بحجم غرفة المعيشة الخاصّة بي، بسجادتها الزرقاء التي تزداد تسطّحًا مع الوقت وكراسيها البلاستيكية، والبهو الملتفّ، ولون قشور البرتقال، جعلني أشعر أنني لم أكن بهذا البعد عن كيو يومًا. جلستُ على الكرسيّ الأقلّ تآكلًا، وأخرجتُ هاتفي من جيبي.

بعثتُ رسالةً إلى أوتوم: «وصلنا إلى المستشفى. يقول الأطباء إنه يقاوم. أخذوه إلى غرفة خلفية. أنتظرُ وحسب. سأُطلعك على المستجدّات حين تصلُني».

انتقلتُ إلى جهة اتّصال أخرى.

بعثتُ رسالةً إلى ويت:

- مرحبًا، لا تهلعي، حصل...

- ماذا حصل؟ حادث؟ لكن هل كان حادثًا؟ حدثًا عارضًا؟

- لا، هذا أقلّ مما جرى.

ما الذي سيفزعها أقلّ؟ تخيّلتُ طبيب ويت (د. ستروكس)، وهو يتفحّصني من مقعده الدوّار، ثم يستدير نحو ويت، ويقول: «الضغوط غير الضروريّة ممنوعة»، وجعلنا نعده بأن نُراعي ذلك.

كتبتُ في نص الرسالة: «مرحبًا، أتفقّدك وحسب»، لكنني لم أبعثها، بل اتّصلتُ بهاتفها، لكنه رنّ حتى أجاب البريد الصوتيّ، تركتُ لها رسالةً صوتية قصيرةً ومثيرة للقلق.

من خلال تجربتي المتواضعة في غرف انتظار المستشفيات، إحدى هاتين المحطّتين تظهر على التلفاز المُثبَّت برنامجُ طبخ، غالبًا أملًا بأن نشعر بالجوع الكافي للمخاطرة بتناول طعام كافتيريا المستشفى، أو قد يعرضون الأخبار المحليّة.

وقتَها، كانوا يعرضون برنامجًا عن سنجاب بهلوانيّ. «يا للهول! السنجاب الرائع يفعلُها! إنه يتحرّك حقًّا»، وأنا بالتأكيد لستُ خبيرًا بالطبيعة، لكنّ

مكتبة ياسمين

ركْض السناجب على الأسلاك حادثةٌ مُعتادة، أليست كذلك؟ لكن دون سابقِ إنذار، الخبر السابق: يمشي السنجاب منتصبًا على قدميه.

كان الرجل بجانبي يقهقه خلال المقطع بأكمله.

قال: «سنجاب بهلوانيّ. لن أرى أعجب من هذا في حياتي!».

أومأتُ موافقًا، لكنني تعاطفتُ مع ذلك الرجل اللطيف في الواقع، فإن كان سنجابٌ على حَبلٍ هو آخر رهان تضعه على الأحداث العجيبة القادمة، فأظنّ أنك لستَ مقامرًا ماهرًا، لكنني رسمتُ ابتسامة على وجهي، واستحضرتُ ضحكة، لأنه لطيفٌ كما ذكرتُ سابقًا، ولأنني أؤمن بالكارما، أو على الأقل بأن الطاقة التي نبثّها في الكون ترتدّ نحونا، ولستُ متأكدًا، لكن بما أن الطاقة تتحوّل، فلعلّ الطاقات الجيّدة التي أبثُّها تصل إلى كيو، وإلى الممرّضين، والأطباء الذين يحاولون إنقاذه.

«جمال! أين هو يا جمال؟ أين كيو؟»، كنت أعرف صوت والدة كيو، كما أعرف صوت والدتي. بينما اندفعَت نحو الغرفة نهضتُ حالًا دون تفكير.

ما الذي كنتُ أتوقّعه؟ عناقًا؟ لم يكن لَمَّ شملٍ عائليًّا!

«إنه في مركز الطوارئ -على ما أظن-، أخذوه نحو الغرفة الخلفية مُسرعين». رفعتُ جهاز الاستدعاء، وقلت: «قالَت إن هذا سيرنّ حين يصبح بإمكاننا التحدّث مع...»، لكنها هرعت نحو المكتب، وعندها فقط استدركتُ أن السيدة بارانتيس ليست ممرضة وحسب، بل ممرضةٌ هنا. الغالب أنها تملك صلاحيّات خاصة، وباستطاعتها الحصول على معلومات لا نستطيع الحصول عليها عادةً.

إلا أن السيدة ذات الشعر الأرجوانيّ وقفت فجأةً، وأومأت للسيدة بارانتيس بأن تُخفض صوتها قائلةً: «أرجوكِ يا سيمون. اسمعيني يا سيمون. أتفهّم أنك مستاءة بحقّ، لكن لمجرّد أنك تعملين هنا، فهذا لا يعني أنه بإمكانك... اسمعي أعدُكِ، أعدُكِ أنني حالما أعرف مستجدّات بخصوص كيو، أيَّ شيء، فسآتي إليكِ بنفسي، وسوف...»

شعرتُ باهتزاز في حضني. هتفتُ: «سيدة بارانتيس!»، رفعتُ جهاز الاستدعاء مثل منارة من ضوءٍ أحمر مرتعش.

مكتبة ياسمين

86

يعتبر المشي إلى غرفة الاجتماعات «ج» أطولَ طريق في المستشفى، لكن السيدة «بي» كانت في مهمة لتحطيم الرقم القياسي العالمي في سرعة قطعه. هرولتُ حتى أُجاريها. اصطفّت على جدران الرّدهةِ رسومٌ بيانيّة لأجهزة الجسم؛ الجلدُ وطبقاتُه في مقطع عرضيّ. ولاحظتُ عندها أنني مجرّد جلدٍ ملفوفٍ على عظام.

كنتُ أعرف ذلك سابقًا، لكن الغريب أنه عندما تؤدي أجسامنا وأعضائنا وظائفها، لا نفكّر بها إطلاقًا. وضعت السيدة «بي»[1] هاتفها، والتفتت إليَّ، قالت بينما انتظرنا وصول الطبيب:

- أنا سعيدة بوجودك هنا. متفاجئة، لكن سعيدة. إنه يفتقدك يا جمال. لم يكن يتكلّم حول الأمر، لكنه شعر بالأسى عندما توقّفتما عن مقابلة بعضكما بعضًا، ثم قرّر والده أن يتصرّف بنذالة، ويُصاب بالسرطان...

- ماذا؟

عقدتُ حاجبيّ.

ارتسمت على وجهها ابتسامة صغيرة، وقالت:

- مجرّد دُعابة غبيّة اعتاد السيد «بي» أن يلقيها.

هزّت كتفيها، وأكملت:

- لا أعرف ماذا أفعل يا جمال. ظننتُ أننا بحاجة إلى القليل من المزاح.

- المزاح أمرٌ لطيف.

قلتُ وأنا أرغب بأن تحصل السيدة «بي» على كلّ ما تحتاجه؛ ابنُها، والمزاح، والدعابات غير المضحكة، وراحة البال.

أومأت السيدة بارانتيس برأسها، وقالت:

- لم أكن أعرف أنكما عدتما للتسكّع معًا.

- بلى. (فتصحيحُ كلامِها كان ليبدو غبيًّا، وأنانيًّا).

---

(1) اختصارًا لـ(بارانتيس) ودليل ألفة.

مكتبة ياسمين

- لا عجب من أنه كان متحمّسًا للغاية بشأن هذه الحفلة. أعرف... أعرف أن ابني ليس اجتماعيًّا بحق. أحاول ألا أضغط عليه، لكن... أريده أن يكون مثل أيّ فتى في عمره، أن يتسلّى. وهو يحاول... يحاول... بشدّة.

- إنه فتى رائع، إنسان رائع.

مسحَت دموعها، وقالت:

- هذا صحيح.

ثم بدأ صوتُ خطوات يعلو أكثر فأكثر، حتى توقّف خارج الباب.

وقف شخصٌ ما هناك منتظرًا، مما جعلني أظنّ أن الأخبار سيّئة، فلا أحد يتمهّل في إيصال الأخبار الجيّدة، أليس كذلك؟

نُسرع مندفعين عادةً، لأنه ما من طريقة سيّئة عمومًا لإيصال الأخبار الجيّدة.

لم يبدُ أن السيدة «بي» قد لاحظت، وقالت:

- هل تشعر أنك بخير يا جمال؟ هل اتّصلتَ بأختك؟

- تركتُ لها رسالة.

- حاول الاتصال بها مجدّدًا.

- حسنًا، سأفعل.

- لستَ مضطرًّا للانتظار برفقتي هنا. بإمكانك أن تذهب، سأتصل بك حين يستجدّ شيءٌ ما.

هززتُ رأسي رافضًا:

- شكرًا، لكنني أريد أن أبقى إن كنتِ لا تمانعين ذلك.

ضغطَت على يدي، وقالت:

- حسنًا، شكرًا لمؤانستي.

كانت السيدة «بي» واقفةً تتمطّى، حين فُتح باب غرفة الاجتماعات.

وقبل أن يقول الطبيب أيّ شيء، هزّت رأسها قائلةً بحزم:

- لا. لا، د. رودريغيز. لا، ليس ابني.

- سيمون...

مكتبة ياسمين

- ليس ابني كوينسي. من الأفضل أن تذهب بهذه الأخبار إلى مكان آخر، أتسمعني؟
- سيمون، أنا...
- اذهب بهذه الأخبار إلى مكان آخر يا كيفن! لا أريدها! أرجوك! أرجوك، لا أريدها.

أردتُ أن أحضنها، أن أهوّن عليها، لكنني تصلّبتُ كالأسمنت.

تنحنح د. رودريغيز، وشغَل نفسه بيديه، فحدّق إليهما، وعصَرهما حتى وخز بَشَرَتَه، وسحب خاتم زواجه الفضّيّ نحو الأعلى والأسفل.

تساءلتُ إن كان قد أخذ هذه اللحظات بعين الاعتبار حين قرر أن يصبح طبيبًا، ويكرِّس حياتَه لإنقاذ حياة الآخرين.

الدخولُ إلى غرفة يتوقُ من فيها إلى الأخبار الجيّدة، أو حتى الأخبار المتواضعة، دون أن يملكَ أيًّا منهما. دون أن يملك سوى أخبار سيّئة وأشد سوءًا، لكن صوتَه، على عكس يديه؛ كان ثابتًا وهادئًا، سلسلةً خافتة من: «أنا آسف جدًّا، فعلنا كلّ ما في وسعنا، أنا آسف جدًّا، فعلنا كلّ ما في وسعنا، أنا آسف جدًّا، أنا آسف جدًّا، آسف جدًّا». رفرفَت في جميع أنحاء الغرفة، وحلَّقَت فوق رؤوسنا.

كنتُ بانتظار سماع صوت المنبه؛ أن أنهض من نومي في سريري، أن أرمش مرةً فينتهي الكابوس. واصلتُ الانتظار مطوّلًا.

انهارت السيدة «بي» كأن عظامها صارت سائلة، وجثَت على ركبتيها، وبالكاد استطاع الطبيب منعها من التداعي في جميع أنحاء غرفة الاجتماعات «ج»، وصرخاتها كانت عالية لدرجة جعلت الناس يهرعون نحو الغرفة: «هل كلّ شيء على ما يرام؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

وكيف قد يكون هذا صحيحًا؟ لن يعود أيّ شيء على ما يرام يومًا.

مكتبة ياسمين

85

قبل أسبوعٍ من الجِنازة

انتزع الطبيب القلنسوة الجراحيّة عن رأسه، وقال:

- هل أتّصل... بشخصٍ ما من أجلكما؟

نظرَت ويت إليَّ، ثم إلى الباب، وقالت:

- لا... نحن وحيدان.

سأل الطبيب:

- ماذا عن الأجداد؟

قالت ويت:

- لم يبقَ منهم أحد.

- عمَّات، أعمام، أبناء عمومة؟

- لدينا عمَّة في كالي -على ما أعتقد-، أو أريزونا. اسمع أيها الطبيب، أنا آسفة إذا كان هذا وقحًا، لكن متى يمكننا رؤيتهما؟ كلّ ما نريده هو أن نرى والدَينا.

قال:

- أنا آسف للغاية، لكن والدَيكما... لقد تـــ...

إلا أنني نهضتُ مندفعًا من مقعدي، انطلقتُ بسرعةٍ إلى آخر المدخل نحو غرفة الطوارئ. أُسدِلَت ستائر ثقيلة على أحد جانبيّ البهو الواسع، وتوضّعَت غرفٌ عادية بجدران وأبواب على الجانب الآخر.

كانت معظم الغرف شاغرةً، ومليئة بآلات بلونٍ بيج، وأطباقٍ تحوي أدواتٍ لامعة. وعند منتصف البهو، وصلت إلى أول بابٍ مُغلق.

بينما قال صوتٌ اسمَها، أدارَت يدي المقبض.

التفتُّ، فرأيتُ باب غرفة الطوارئ رقم (2) يُفتَح دفعًا، ورجلًا يمسح الأرضيّة، وامرأة ترشّ رذاذًا على طاولةٍ معدنيَّة.

سألتُ الرجل:

مكتبة ياسمين

- هل قلتَ «جيدا»؟

رمقَ المرأة بنظرة.

مصّت أسنانها، وقالت:

- أخبرتك أن الهمس لا ينفع.

لوَّح بيده مُشيرًا إليها أن تصمت، وقال:

- من أنت أيها الفتى؟

- أبحث عن جيدا آندرسون.

حكَّ خده، وقال:

- عليك أن تسأل مكتب الاستقبال، سيساعدونك.

لكنني شعرتُ بما يُخفيه.

- هل كانت هنا؟

تجهّم وجهه.

تنحنحت المرأة، وحذَّرَته:

- لا تفعل، سيطردونك إن فعلت.

استقام الرجل في وقفَتِه، وغمَس رأس المِمسحة في الدلو، وقال:

- أنا آسف، عُد إلى نهاية هذا البهو و... بحقّ الله يا أخي، لا تبكِ. بحقّ الله يا رجُل.

حكَّ ذقنَه كأنه يفكّر، وقال بلطف:

- اسمع، عمّن تقول إنك تبحث؟

- جيدا آندرسون. إنها... إنها أمي، وأبي آندريه آندرسون، أبحث عنه أيضًا. لو كان بإمكانك إخباري عن مكان أيٍّ منهما، فسأكون...

وعندها رأيتهما خلفَه تمامًا، في غرفة أخرى داخل غرفة الطوارئ (2)، تحت اسم «طوارئ (2ج)».

اندفعتُ متجاوزًا إيَّاه، وحاول الإمساك بي، لكنني كنتُ أسرع من أن يفعل. لم تحاول المرأة ردعي. اضطُرِرتُ للوقوف على رؤوس أقدامي حتى أرى.

وكانا هناك أمي وأبي مسطَّحَين على ظهرَيهما فوق طاولتين معدنيَّتين، وأَعينُهما موجَّهة نحو أضواء السقف.

مكتبة ياسمين

تحرَّكَت ممرِّضتان بين الطاولتين، وربطتا عباءة على أمي، ومسحَتا وجه أبي.

كنتُ أضع راحة يدي على صفيحة الباب المعدنيّ، وأضغطُ حين أمسك بي شخصٌ ما من الخلف.

صرختُ: «لااا!».

لكمتُ ذراعيه، لكنه لم يسمح لي بالذهاب.

- مهما يحدث أيها الفتى، ستكون بخير.

كان صوته رطبًا، وهو يخرجني من الغرفة. قال مرارًا وتَكرارًا:

- ستكون بخير.

رحتُ أرفرف، وأصرخ، لكنني لم أستطع الهروب من قبضته. كنا في مكتب الاستقبال تقريبًا عندما هرعت «ويت» من آخر البهو صارخةً:

- لا يمكنك فعل ذلك، لا تفعل ذلك مرّةً أخرى، لم يبقَ سوى أنت وأنا، لا تستطيع أن ترحل فجأةً، لا تستطيع أن.. لا تستطيع أن...

84

قالوا لها: «سيمون، رجاءً، عليك الانتظار. من فضلك يا سيمون. مجرد دقيقة أخرى».

قالوا إنهم ينظّفون.

إنهم أوشكوا على الانتهاء.

طلبوا منها أن تكون...

إنهم سيأخذونها إليه بمجرد أن...

- لن أذهب إلى أيّ مكان أو أستمع إلى أيّ شخص حتى أرى ابني. ستأخذونني إلى ابني الآن.

لم ترفع صوتها، وتحوَّل صراخها وعويلها إلى موجة متكررة من النَّشيج، وارتسمَ على وجهها ألمٌ صامت، كأنّ جراحَها تجمّعَت في مؤخّرة حلقها، وتكوّرَت في حجرات قلبها.

لا أريد أن أرى شخصًا مُثقَلًا بكل هذه المعاناة مجدّدًا. لا أريد أن أشهَد الأسى بوجهي ذاك عاجزًا... بأملي ذاك مُهشَّمًا.

مكتبة ياسمين

صلاحيَّة جُمَل، مثل: «تحدث أشياء طيّبة للناس الطيّبين»، تُعادل صلاحيَّة فقاعات الصّابون.

ما من يدٍ قُدسيَّة تمتدّ لتنقذ من نُحبّ. انتهى عصر المعجزات!

83

«ما كنتُ لأستوعب ما تمرّين به، سيدة بارانتيس».

جلسَت المرأة ذات الثوب الرمادي، كما لو كانت تُجري تجربة أداءٍ بعنوان: «إنسان ذو وضعيّة استثنائيّة»، بيدين مطويَّتين، ووجهٍ خالٍ من أيّ تعبير. زينتُها الوحيدة كانت سِوارًا فضِّيًّا، خشخَش وهي تصافحنا.

إخصائيَّةُ أسى، اتّصل بها د. رودريغيز بينما كان يقودنا عبر قسم من المستشفى مباشرةً بعد نوبة هلع. كان مصدر الإنارة الوحيد حبلًا من المصابيح الخافتة في أقفاص معدنية، معلّقًا على طول جدران من الطوب الرّماديّ. كان معظم السقف مفقودًا أيضًا، وقد تدلَّت حِزَمٌ من الكابلات؛ بعضُها كان واطئًا بما يكفي لنتحرّك حولها، وبعضُها يصدر هسيسًا. أسرعنا إلى اليمين من خلال لافتة تُشير إلى أن الدخول مسموحٌ للأفراد المُصرَّح لهم فقط.

سألت السيدة بارانتيس:

- إلى أين نحن ذاهبون، دكتور؟

قال:

- سيشرحون أفضل مما سأفعل.

وقبل أن أتمكّن من الإشارة إلى أنها سألت أين، وليس مَن أو ماذا، أضاف:

- اسمعيهم، رجاءً يا سيمون.

عندما وصلنا إلى بدايةِ المدخل الأخير، ساد ظلامٌ وصمتٌ موحِشان.

تردَّدتُ، وبحثتُ في وجه السيدة بارانتيس عن تأكيدٍ على أنّ لا بأس بهذا، وأننا بأمان، لكنني لم أرَ سوى الألم.

دون معرفة وجهتِنا، أو ما ينتظرُنا، توطَّد التزامُنا مع كلِّ خطوة. بطريقة ما، كلانا كان يعرف أنه بغض النظر عمّا يقع على الطرف الآخر من قوس

مكتبة ياسمين

قزح المظلم هذا، كنّا سنوافق. فماذا قد نخسر؟ في غرفة الاجتماعات، عندما هدّأها بما يكفي لسماعه، قال د. رودريغيز شيئًا، أقلُّ ما يُقال إنه غريب: «لديكِ فرصةٌ ذهبيّة يا سيمون. لا تدعيها تفُتك».

افترضتُ بدايةً أنه يريدها أن تتبرّع بأعضاء كيو، انتظرتُ أن يقول: «هكذا يحيا كيو».

لكن القضيّة لم تكن كذلك، بل أغرب بمراحل. عندما أنهينا المتاهة، كنا أمام مصعد واحد ببابٍ مفتوح، وضوء برتقالي مُغبَر يسطع متدلّيًا من سقفه. بالكاد كنّا داخل السيارة عندما هرس إصبعُ الطبيب زرًّا يحمل الرمز «ت.أ.» أُغلِق الباب، وأصدر المصعد صوتًا يوحي بأنه مُصابٌ بالحازوقة بينما خرجنا منه.

سألت:

- إلى ماذا يرمز الحرفان «ت.أ.»؟

ارتسم تعبير على وجه السيدة بارانتيس، وقالت:

- الدّورُ التّحتانيُّ الأدنى.

- ماذا يوجد في الدور التحتانيّ الأدنى؟

همست:

- لا شيء.

قال د. رودريغيز، وهو يمسك باب المصعد:

- هذه أقصى نقطة أُرافقُكما فيها. اقصدا الباب الثالث إلى اليسار.

لكن السيدة بارانتيس لم تتحرك، وفعلتُ المِثل.

- لماذا أنا هنا؟ ماذا نفعل؟ (قالت وهي تهزّ رأسها) لا يمكنك أن تكتفي بـ... بـ... تركي في ممرّاتٍ مريبة يا كيفن!

- أنا آسف، ولكن يجب أن يَتِمَّ الأمر على هذا النحو يا سيمون. أنصتي إلى كلامهم. أعتقد... أعتقد أنك ستجدين فيه سلوىً.

خرجنا من المصعد، وشاهدنا الأبواب تنغلق. وفجأةً، ساد ظلام دامسٌ حتى صار بإمكاني أن أرى نفس القدر بعينين مُغلقتين. تحسّسَت السيدة بارانتيس طريقَها إلى يدي، ومعًا مشينا خطواتٍ صغيرةً إلى الأمام، ومشينا

مكتبة ياسمين

بعدُ، حتى سمعنا نقرةً، ووَمضَت لمبة هالوجين قويّة، مما أعطانا إضاءةً كافية لمواصلة المضي قُدمًا.

تابعنا المشي.

تخطَّينا بابًا واحدًا.

تجاوزنا آخرَ بهدوءٍ وحذَر.

رأيناه في نفس الوقت، البابَ الثالث إلى اليسار. خرج الضوء من الشقّ تحتَه.

نظرت السيدة بارانتيس إليَّ، ثم أدارَت المقبض.

كنا قد وصلنا.

تابعَت المرأة حديثَها:

- فقدانُ طفل. لا ينبغي لأحدٍ أن يحمل عبءَ هذا الصليب.

- هل فقدتِ طفلًا؟

سألَتها السيدة بارانتيس.

هزّت إخصائيّة الأسى رأسها، وقالت:

- ليس لديّ أطفال.

ثم صمتَت لوهلة، كأنها تقول إنها لا تستطيع أن تفقد طفلًا، ثم تابعت:

- لكنني خسرت أشخاصًا أحببتهم؛ زوجيَ، العام الماضي.

قالت السيدة بارانتيس:

- أنا آسفة للغاية.

- لم يُصَب بأيّ مرضٍ من قبل، ولا حتى البرد. اعتاد جميع زملائه في العمل أن يقولوا له إنه جعلهم يبدون بمظهر سيّئ. كانوا يقولون له: «خُذ إجازةً مرضيَّةً ليومٍ واحدٍ يا روس». أدّى روس كلّ أعماله بأمانة، كان ذلك طبعه. استيقظ من نومه في إحدى الليالي، وهو يعاني من آلام شديدة في البطن. قال الأطباء إنهم بحاجة إلى استئصال الزائدة الدودية، وإنه ما من وقتٍ ليضيّعوه. (بدا وجهُ المرأة محايدًا) عندما فتحوا بطنَه، وجدوا خلايا سرطانيّة متفشّيةً في بنكرياسه. كان قد وصل إلى المرحلة الثالثة. مات بعد أربعة أشهر.

مكتبة ياسمين

وأردتُ أن أقول شيئًا لمواساتها، ولكن ماذا أقول؟!

أكملت المرأة:

- عندما تواصل المركزُ معنا، كنت متشكّكةً، وأنا متأكّدة من أن الظنون تراوِدُك الآن. روس كان حالَتهم الثانية. ما قدّموه له ولنا... لقد تركتُ عملًا زاولتُه مدة ثلاثة وعشرين عامًا للجلوس على هذا الكرسي لأتحدّث إلى أشخاص مثلك. لنقدّم لك نفس الهديّة.

أخذَت السيدة بارانتيس شهيقًا حادًّا، ومسحَت عينيها قائلةً:

- أريد أن أرى ابني وحسب. لا يهمني إذا كان عليَّ أن أتسلّق طاولة المستشفى لأكون معه... يجب أن أراه.

- سيّدة بارانتيس، ماذا لو جلس على تلك الطاولة؟ ماذا لو خرج كلاكما من تلك الغرفة معًا؟

فغرت السيدة بارانتيس فاهَا، لكنها لم تقُل شيئًا. تصبَّبَ وجهُها عرقًا.

قفزتُ من مقعدي، وسألتُها:

- سيدة بي، هل أنتِ بخير؟

غطّت السيدة بارانتيس أذنيها، كما لو أنها تحجب تردُّدًا مؤلمًا لم يسمعه أحدٌ سواها، وسُحِب الدّمُ من وجهها بسرعة، كما لو أنّ سُدادةً داخليَّةً قد شُدَّت.

قالت الإخصائية:

- سيّدة بارانتيس، قولي لنا، ماذا يحدث؟ سيدة بارانتيس!

لكن السيدة بارانتيس مالَت نحو الأمام، وعيناها تلمعان، وقطرات العرق تتسابق على كلّ جزء من وجهها مثل المطر على مظلّة. ضغطَت المرأة على زرٍ مخفيٍّ خلف المكتب، فضجَّت الغرفة. اندفع رجلان يرتديان ملابس سوداء، كما لو كان هناك مشتبهٌ به يجب إخضاعه، ولحِقَتهُما امرأة ترتدي معطفَ مُختبر في الخلف.

أشار أحد الرجُلين إليَّ، ثم إلى الحائط، وقال:

- عليك أن تِقف هناك الآن.

لم تُبدِ المرأة ذات المعطف أيّ انزعاج، وقالت مُخاطِبةً الإخصائيّة:

مكتبة ياسمين

- واندا، اصطحبي جمال إلى الغرفة المجاورة.

إلا أنني اقتربتُ من السيدة بارانتيس، وقلت:

- لن أفارقها.

مدّت «واندا» يدها إلى ذراعي، لكنني ابتعدت قائلًا:

- أنا باقٍ.

أومأت المرأة ذات المعطف برأسها، وقالت:

- لا بأس يا واندا.

أسندَ أحد الرجُلين رأس السيدة بارانتيس، في حين أخرج الآخر عودًا بحجم عود تنظيف الأسنان القطنيّ، ولوَّح به تحت أنفها. أزالت المرأة ذات المعطف حاسوبًا لوحيًّا من جيبها، وحرّكَت إصبعها على الشاشة، وأشارَت بحافة من حافاته نحو السيدة «بي»، مما أدّى إلى إصدار صوتَيْ رنين سريعيْن. أمالَت الشاشة ناحيَتي، وأوضحتْ سلسلةً من العناقيد الخضراء والزرقاء المتشابكة، مثل خريطة الطقس. لم أملك أدنى فكرةً عن ماهية ما أنظر إليه.

وأخيرًا، عندما أدركَت المرأة ذلك، ابتسمَت قائلةً:

- إنها بخير. من المفهوم أن تكون قلقةً بعض الشيء.

وفي الوقت المناسب، فتحت السيدة بارانتيس عينيْها.

قالت السيدة «بي»، وهي تحكّ صدغيها:

- لقد أغمي عليَّ.

قالت المرأة ذات المعطف، وهي تبتسم، وتمدُّ يدها:

- هذا صحيح.

- أنا د. مايا إيفرسون، سيدة بارانتيس. ورغم أنني كنتُ أتمنّى لو أنك لا تحتاجين إلى خدماتِنا، فأنا سعيدة، لأنك قبلتِ عرضنا.

فركَت السيدة «بي» رقبتها، وقالت:

- لم أقبل أيَّ شيء. لست متأكدةً من أنني فهمت العرض.

أعادت د. إيفرسون الجهاز اللوحي إلى جيب معطفها، وقالت:

- نريد لَمَّ شملك بابنك، سيدة بارانتيس.

ضحكَت السيدة «بي»:

مكتبة ياسمين

- لَمّ شملِنا! بهذه البساطة؟! كما لو أننا أضعنا بعضنا بعضًا في المركز التجاري!

ابتسمت د. إيفرسون:

- أنتِ ممرضة، وتعلمين كم يحبّ الأطباء تحاشي ذِكر التفاصيل، لكن بلى، نحن واثقون للغاية.

- لقد سمعتُ شائعاتٍ منذ سنوات، كلُّنا فعلنا، لكنني لم أعتقد أن شيئًا كهذا ممكن حقًّا. أوحى وجهُ السيّدة «بي» بأنّها قد استيقظَت من حُلمٍ للتوّ:

- أتفهَّمُ موقفكِ. صدِّقيني، فأنا أفهم كيفية إجراء الأمر، لكن عندما أفكر في ما فعلناه، وما نفعلُه، بالكاد أستطيع أن أفهم أيًّا من ذلك.

- يفكّرُ الوالدان...

لامسَت السيدة «بي» فمها بيَدٍ راعِشةٍ، وتابعت:

- يفكّر الوالدان في ما سيحدث لهم عندما يموتان، لكن... ليس هذا. ليس من المفترض أن نعيش بعد أولادنا.

وماذا قد يُقال كَرَدٍّ على ذلك؟ لا شيء!

كان لوقْعِ الصمتِ في الغرفة قوةٌ كافية لزعزعة الجدران. صمتٌ سمَح بسمَاعِ طقطقة الهالوجين في الأضواء العُلويّة.

تلاشَت ابتسامةُ د. إيفرسون:

- أعرف. أعرف أنه... من الصعبِ استيعاب الأمر، وأنه... ما من شيء أو أحد يمكنه تغيير ما حدث، ولكن ألن يكون من الجيّد لو تمكنّا من تخفيف الصدمة، ولو قليلًا؟

ولم أكُن مُخوّلًا للتحدّث، لكن...

- أهذا حقيقيّ؟ ليست عمليّة احتيال؟

عادت ابتسامة د. إيفرسون:

- إنه حقيقي مئة بالمئة.

التقَت نظراتُها بنظرات السيدة «بي» المتفحّصة:

- إذا قبلتِ عرضنا، سيعيش كوينسي مرةً أخرى.

مكتبة ياسمين

استقامت السيدة «بي» في جلستها، وشدَّت الجلد تحت عينيها الحمراوين:

- إلى متى، د. إيفرسون؟

تجعّد جبين د. إيفرسون:

- إلى متى؟!

- كم من الوقت حتى يموت ابني مرّة أخرى؟

أومأت د. إيفرسون برأسها قليلًا.

قلتُ:

- مهلًا! ماذا تقصدين بقولِك إنه سيموت مرّة أخرى؟

ظلَّت عينا د. إيفرسون مثبّتَين على السيدة «بي»:

- لن نعرف حتى يكمل كوينسي المرحلة الخامسة من الإنعاش.

- إذن، ما المُدّة؟ خمس سنوات؟ عشر سنوات؟

هزّت السيدة «بي» رأسها:

- لا يا جمال. هذا ليس ما يقدِّمونه، هل هو كذلك، دكتورة؟

- نحن نقدّم لك فرصةً لتوديع ابنك.

- لكن إلى متى؟

أصررت.

اخترقَت فقاعاتُ نفاد الصبر الأولى سطح وجه الطبيبة أخيرًا:

- كما قلت، لن نعرف حتى...

قاطعتُها:

- طيّب، لكن ما هي أطول مدّة استعدتُم فيها أيًّا من الآخرين؟

- نُجري إنجازات مذهلة كل يوم. التكنولوجيا في تحسُّنٍ مُستَمِرٍّ. ما نحققه لا يخلو من المعجزا...

تدخَّلَت السيدة بي:

- أجيبي عن السؤال من فضلك دكتورة.

طوَت د. إيفرسون ذراعيها:

- ما حقّقناه في الماضي ليس مؤشرًا على...

- دكتورة!

مكتبة ياسمين

قالت السيد بي بحزم.

هزّت د. إيفرسون رأسها:

- تسعة عشر يومًا، وسبع ساعات.

تجهّم وجهي:

- أعرف أن هذا يبدو جنونًا، لكنني ظننتُ أنك كنتِ تقصدين شهورًا، لكن... لكن هذا...

- ذات يومٍ، قريبًا، سنكون قادرين على تمديد الصّحوة بأمان. لكن حاليًّا...

أومأت السيدة «بي» برأسها:

- إذن، حتى لو نجح الأمر، وأظنُّه احتمالًا بعيدًا، سيعيش كوينسي بضعة أسابيع أخرى؟

- الخبر السارّ هو أننا نملك سببًا للظنّ بأنّ كوينسي سيتجاوز تقديراتنا الأوليّة.

سألت:

- يتجاوز بكم؟

- أُفضِّل عدم التكهُّن، إلا أن التشخيصات الحالية تُشير إلى عدَّة أيّام إضافيّة. قد لا يبدو هذا فرقًا هائلًا، إلا أنّ كلّ دقيقة تُحتَسب عندما نتحدّث عن إعادة إحياء شخص ما.

وكانت على حَقّ، لماذا أعمَتني الصّدمة بالإطار الزمني؟ كانوا يعكِسون موت إنسان. أيُّ مقدارٍ من الوقت مذهل!

قلتُ:

- أنا آسف يا دكتورة. أعتقد أنني سمعتُ أنه بإمكانكم إعادة كيو، وافترضت أن ذلك سيكون... إلى الأبد، لكن طبعًا، حتى لو لبضعة أسابيع فقط، فلا يزال...

- لا.

قالت السيدة بي، ومدّ صوتُها المتذبذب: «لا!» حتى بدَت قسمَين منفصلَين.

كرَّرَت بحزم: «لا». وأعادَت: «لا».

وكاد الصّراع في دماغها وصميم قلبها يظهر علنًا.

مكتبة ياسمين

هزّت د. إيفرسون رأسها:

- لا! ماذا؟

غاب الشكّ في صوت السيدة «بي»:

- جوابي هو لا. سنترك كوينسي يعبُر بسلام.

نقرت د. إيفرسون سُلاميّاتها فوق المكتب:

- سيدة بارانتيس، لا أعتقد أنك استوعبتِ ما نقدمه لك. لا تتكرّرُ...

نظرَت الطبيبة نحوي طالِبةً المساندة.

سألتُ:

- هل أنتِ واثقة، سيدة بي؟

أومأت برأسها:

- منذ مدّة طويلة، كانت أول وظيفة تمريض لي في وحدة الأورام، وخِفتُ من ارتكاب الأخطاء. فماذا لو أذيتُ شخصًا ما؟ اعتدتُ أن أتأكّد كل شيء أربع مرات، حتى طلبات الغداء الخاصّة بهم، لكن بعدها، بعد أسابيع قليلة في العمل، شاهدتُ مريضةً كانت تحت رعايتي تموت. كانت هناك خيارات أخرى بإمكانها أن تجرّبها؛ جراحة أخرى، المزيد من العلاج الكيماويّ، لكنها رفضَت. حزنت عائلتها، وغضبَت للغاية. أخذوا الأمر بشكل شخصيّ. لماذا لم تشأ الاستمرار في المحاولة؟ في المقاومة؟ ولن أنسى ما قالته لهم ممرضة أخرى: «أحيانًا ليس المهمّ إن كُنّا نستطيع فعل شيءٍ ما، بل إن كان علينا فعلُه حقًّا».

هزّت السيّدة «بي» رأسها:

- لا أحد يرغب بعودة ابني أكثر منّي، لكن هذا يبدو أنانيًّا، إعادته إلى الحياة حتى أستطيع أن أودّعه أنا، إيقاظُه حتى يموت مجدّدًا.

لكن د. إيفرسون لم تستسلم:

- وكأننا رمَينا ديناصورًا في حضنك يا سيدة بارانتيس. أفهمُكِ. هذا كثيرٌ على الاستيعاب، لكن الوقت جوهريٌّ الآن. نافذة الإنعاش ضيقة بشكل لا يصدق، و...

قاطعَتها السيدة «بي»:

مكتبة ياسمين

- بصراحة، طوال هذا الوقت، كلّ ما كنت أفكر فيه هو ما أردتُه، لكن من يهتمّ لِمَا يريده كوينسي؟

- ومن يستطيع معارضة ذلك؟!

قالت د. إيفرسون:

- أنا آسفة، سيدة بارانتيس، لكنني أعتقد أنك ترتكبين خطأً ستندمين عليه لبقيّة حياتك.

إلا أن السيدة «بي» وقفت حينها، وقالت:

- ربّما.

أقرّت، وهي تفتح الباب قائلةً: «لكن إن كنتُ قد ذُكِّرت بأيّ شيء اليوم، فهو كم أن بقية حياتنا وجيزة!».

82

عادت السيدة «بي» أدراجَها إلى نهاية البهو، ومرةً أخرى، بذلتُ جهدي حتى أجاريها. لكن بابَ المكتب فُتِح فجأةً، واندفعَت د. إيفرسون وراءنا، بعَينَين منفعلتَين.

- سيدة بارانتيس، الاختلاف في قصتك هو... صاحَت د. إيفرسون في البهو: أنَّ الشخص قد قرَّر.

نظرتُ نحو السيدة «بي». ضغطَت على زرِّ المصعد.

ظلّ صوتُ د. إيفرسون منفعلًا:

- كان لديها الوقت للموافقة، لِلتَّلفُّظ بكلماتها الأخيرة.

رنَّ المصعدُ وفُتِح الباب. دخلَت السيدة «بي»، وتبِعتُها. صارَت د. إيفرسون خلفنا.

- كوينسي لم يحصل على ذلك الليلة، لكن ألا يستحقُّه؟

مِلتُ برأسي لأَجذب انتباه السيدة «بي»، وسألتُها بصوتٍ منخفض بحيث لا يسمعني أحدٌ سواها:

- هل أنتِ واثقة؟

بدأ الباب ينزلق منغلقًا. قلتُ بهدوء:

مكتبة ياسمين

- سيّدة بي!

كانت د. إيفرسون على بُعدِ خطوةٍ واحدة خارج العتبة:

- سيّدة بارانتيس، ألا يستحقّ ابنك الفرصة نفسها؟

قلتُ مجدّدًا:

- سيّدة بي؟ سيّدة بي؟ سيّدة بي؟

كادت دَفّتا الباب تنغلقان. إلا أنّ السيدة «بي» رمَت ذراعها بينهما.

81

- لماذا ابني؟ لماذا كوينسي؟

عبسَت د. إيفرسون:

- أخشى أنني لا أستطيع إخبارك.

- ولمَ لا؟

- أنا آسفة، لا أحاول أن أتظارف! لا أستطيع أن أخبرك، لأنني لا أعرف. أنا أؤهِّل مرشَّحي الإنعاش، لكنني لا أختارهم.

أصدَر المصعد صوتَ إنذار من أجل أن يُغلق دَفّتيّ بابه، لكن ذراع السيدة «بي» كانت بينهما. أومأت برأسها لي، وعُدنا إلى البهو.

- مَن يقوم بالاختيار؟

- عادةً؟ لجنَة.

- عادةً، تقولين. ليس هذه المرّة؟

- سأكون صادقةً، لم نعِد إحياء أيّ شخص في ظِلِّ ظروفٍ كهذه.

انضممتُ إلى الحديث:

- ظروف؟!

ألقَت د. إيفرسون نظرة سريعة نحوي:

- لقد أجرينا تسع عمليات إنعاش. كان الجميع جاهزين قبل وفاتهم، لأنّ وفاتهم كانت متوقَّعة.

- لكن موت ابني لم يكن متوقّعًا بالتّأكيد!

أومأت د. إيفرسون برأسها مؤكِّدةً:

مكتبة ياسمين

- سيكون هذا هو أوّل إنعاش تلقائي لكم إذن؟

إيماءة أخرى.

- إذا فعلنا هذا، فهل... سيتألّم؟

هزّت د. إيفرسون رأسها:

- لن يشعر كوينسي بأيٍّ شيء.

لامسَت أصابعُ السيدة «بي» لوحةَ المصعد، كما لو كانت تقرِّر إذا كان يجب عليها الضغط على الزرِّ، والرجوع إلى الداخل، والسير إلى منزلها الفارغ وحيدةً.

أخيرًا، قالت السيدة «بي»:

- إنه يستحقّ المزيد من الوقت. أنت على حق. الجميع يستحقُّ كلمة أخيرة.

أرخَت يدها إلى جانبها ثم قالت:

- دكتورة، هل ستعتنين جيّدًا بابني؟

- سأشرف شخصيًّا على الإنعاش بالكامل.

أومأت السيدة «بي» برأسها، وصافحَتها د. إيفرسون:

- لقد اتّخذتِ القرار الصائب.

ألقَت د. إيفرسون نظرةً على ساعتها، وابتسمَت:

- أعتذر، ولكن كما ذكرتُ سابقًا، ليس لدينا الكثير من الوقت. كان من المفترض أن أكون قد غادرتُ المستشفى بالفعل. هلّا تبعتماني لنعود إلى...

قاطعتُها:

- إلى أين كان من المفترض أن تغادري؟

أجابت:

- إلى المركز.

- أيُّ مركز؟ (سألت السيدة بارانتيس) ألن تجروا العمليّة... هنا؟

- الإنعاش عمليّةٌ... مُعقّدة للغاية. تستلزمُ الكثير من المعدّات، والكثير من الناس المُنهمكين.

تنحنحتُ، وقلت:

- وكلّ هذا قانونيّ، أليس كذلك؟

مكتبة ياسمين

ابتسمَت د. إيفرسون:

- ليس غيرَ قانونيّ، لكن بالطبع التكتُّم مطلوب.

اهتزّ جيب د. إيفرسون، فرفعَت إصبعها نحونا مُستأذِنةً، وهي تُجيب عن المكالمة:

- نعم، (قالت مُتحدّثة باستخدام جهاز الاستقبال) والغرفة مُعَدّة؟ حسنٌ. أنا قادمة.

حاولتُ استراق التواصل البصريّ مع السيدة «بي»، لكنها كانت تتّكئ على جدار الرّدهة، وعيناها مغمضتان، وشفتاها مزمومتان، وكانت تهمهم بصوتٍ خافت.

ردّدَت الطبيبة العديد من الأرقام، وقبل أن تنهي المكالمة، قادتنا نحو نهاية البهو مجدّدًا.

- لن يَطول الأمر، أعِدُك.

80

كان هناك بابٌ خلف مكتب إخصائية الأسى. لم أكن قد لاحظتُه من قبل.

بعد ثوانٍ من خروج د. إيفرسون المليء بالاعتذارات، فُتح هذا الباب الإضافيّ. دخل منه رجلٌ نحيلٌ أنيقُ الهِندام؛ يرتدي سروالًا رماديًّا مكويًّا، وقميصًا أبيضَ ناصِعًا، وربطةَ عنق رماديّة من الصوف. أوّلُ فكرة راودتني هي أنه يشعر بالحرّ الشديد حُكمًا، فإليتاون حارّة للغاية.

فكرتي التالية: كلُّ ما يتعلّق به يبدو مُصمَّمًا، ومنظَّمًا، مثل منزل معروضٍ للبيع؛ ابتسامتُه، نظّارتُه ذاتُ الإطارِ الفضيِّ، والشّكل المربّعيّ المثاليّ، التي تلائم عينيه الرّماديَّتين.

مهما يكن العرضُ الذي يُقدِّمُه هذا النوع من الرِّجال، فمن الأفضل قراءة سطورِ العقدِ وما بينها.

مدَّ يده نحو السيّدة بارانتيس، ثم نحوي، قبضةٌ باردةٌ ومُحكَمة.

- أنا السيد أوكلاهوما.

- تشرَّفتُ بلقائكَ، سيد أوكلاهوما.

قالت، وهي تنظر إليَّ، وكأنها تريد مني أن أبادِلَه التحيّة، لكنني رفضتُ كُليًّا. ذلك الرجُل من فِئة الذين لا أستطيع أن أفهم تمامًا ما خطبهُم.

مكتبة ياسمين

سألتُ:

- لماذا يقول حدسي إنّ هذا ليس اسمك الحقيقي؟

لم تذبل ابتسامتُه المُعَدّة لخدمة العملاء إطلاقًا:

- سأكون مسؤول التواصل الشخصيّ الخاصّ بك، سيدة بارانتيس، فيما يتعلّق بالإنعاش. قضيَّتُكِ هي مَهمَّتي الوحيدة. وبناءً على هذا، فأنا جاهزٌ لتلقّي اتصالاتك ليلًا أو نهارًا. إن احتجتِ أيَّ شيء، فسأبذل قصارى جهدي لتحقيقه. إن راودَتكِ أسئلة أو مخاوف، فسأعمل على الرَّد على استفساراتك. نرى أنّ هذه التجربة تصبّ في مصلحة كوينسي، ومصلحتِك، ومصلحة عائلتك. نحمِلُ على عاتقنا مَهمّة تحقيقَ رضاكِ الكامل.

قالت السيدة بارانتيس:

- يبدو هذا... أفضل من المتوقَّع.

قدّم لها السيد أوكلاهوما لوحًا شفّافًا برِقّة الورق.

قالت:

- هذا نقلٌ لترخيص الرعاية.

- سيَسمح لنا بنقل كوينسي إلى منشآتنا.

نظرَت للأعلى، وقالت:

- لكن كيف لي أن أتأكّد من أنّ هذا شرعيٌّ؟

ولثانية، توقّعتُ منها أن تطلب منّي النّهوض؛ أن تقول إننا سنغادر، لكن بدلًا من ذلك، انزلقَت إصبعُها على خطّ التوقيع.

- لن تندمي على هذا.

قال بصوتٍ جعلني أتساءل متى سيزورُنا النّدم!

79

قبل عامين، اندفعَ مُدرِّس الأحياء الجديد في مدرستي، داخلًا المختبر بحماسٍ مبالَغٍ قياسًا بأنّ السّاعة كانت التّاسعة صباحًا، وسأل طُلّابه عمّا إذا كنّا قد شاهدنا جلسات الاستماع.

مكتبة ياسمين

لم نكن قد شاهدناها.

قال:

- إنّهم يقولون إنّ بإمكانهم إعادة شخص ما من الموت. ماذا؟ كيف؟ هل فعلوا ذلك بالفعل؟ كلّنا أردنا أن نعرف.

قال مُعترفًا:

- ليس بعد، لكنّهم قاربوا على ذلك، و...

لكنه كان قد فقد اهتمامنا عندها، لكن هأنذا الآن، على وشك رؤية العجائب.

لكن هذا لا يمتُّ بِصِلةٍ لما شرحه أستاذي في ذلك الصباح.

قال إن الباحثين يعملون على إطالة عُمُر الإنسان لبضع دقائق، عدة ساعات ربّما، وإنّ هذه التكنولوجيا ستعيدهم أيضًا إلى مستواهم الصحيّ السّابق، قبل المرض، قبل وقوع الحادث، وإنهم يتأمّلون مع مرور الوقت أن يتمكّن أفراد العائلة والأصدقاء من الجلوس إلى جانب أسِرَّة أحبّائهم المحتضرين، وتبادل بعض الكلمات الرّائقة قبل وفاتهم. يمكن استخدام الوقت لترتيب شؤون الوصيّة، والرغبات الأخيرة، لمشاركة كلمات المرور، وكشف الأسرار. لم تكن كلّ الحالات مؤهّلة للأمر، ورغم ذلك بدا إنعاش أفضل الناس صِحَّة غير قابل للتصديق، لكن ما قدَّمه المركز أبعدُ من ذلك بكثير. لم يسَعني إلا أن أتساءل حول ما لا نراه أنا والسيّدة «بي»:

- ما الذي فاتَنا؟

«لماذا اختار المركز كوينسي؟»

«ماذا سيستفيدون؟»

78

وضع رجلان أسودان يرتديان بِزَّتَي بولو سوداوين وبنطالين أسودَين، الحقيبةَ السوداء في الشاحنة السوداء في الليل الأسود، استعدادًا لنكتة مروّعة لا ينبغي لأحد أن يُنهيها. أحدهُما تولَّى أمر الباب الخلفي، والآخر انزلَق في مقعد السائق. ابتعدا حاملين صديقي.

سألتُ السيد أوكلاهوما:

مكتبة ياسمين

- هل يمكنني أن أدعوه صديقي مجدّدًا؟

- إلى المركز.

- مركز ماذا؟

عبس مستهجِنًا كما لو أن الإجابة واضحة:

- إنّه المركز وحسب!

- يبدو أنّكم أردتم منح فريق تسويقكم مهمَّةً صعبة!

إلا أنَّ أحدًا لم يضحك! أحد الأشياء التي لا أحبُّها في نفسي هو أنني أُلقي دُعابات مزعجة عندما أتوتّر!

قال، وهو ينقر على شاشة هاتفه:

- تصل سيارتنا في غضون أربع دقائق. تنتظرنا رحلة طويلة. أقترح الاستفادة من مَرافِق المستشفى قبل المغادرة.

- سأنتظر هنا.

قادَتني السيدة «بي» إلى نهاية مَمرّ، وقالت:

- أقربُ دورة مياه تحوي جلَّاسًا واحدًا، سأستخدمه بعدك.

أصررتُ قائلًا:

- أنتِ أولًا. (وقبل أن تدخل، ناديتُها.. تضيّق حَلقي) أظنّ... أشعر أنه ربّما من الأفضل إن... إن تركتُكِ تتولّين الأمر... يبدو هذا... شأنًا شخصيًّا؛ شأنًا يخُصّ العائلة فقط. وأظنّ أنك ربّما ترغبين ببعض الخصوصيّة من أجل... إنعاش ابنك؟

قصدتُ أن أقول جملة إقراريَّةً، لكنني طرحتُ سؤالًا!

رمشَت، وأدمعَت عيناها العسليّتان مجدّدًا:

- كما تعلم، لم يبقَ سوى نحن الاثنين؛ كوينسي وأنا، هنا في إليتاون. لم يبقَ سوانا في أيّ مكان، حقيقةً. أودُّ أن تأتي معي يا جمال، ما لم تعترض أنت أو ويت. هل اتصلت بها؟

هززتُ رأسي نافيًا، وبدا أنها قد توبّخُني، إلا أن نصف ابتسامة وجدَت طريقها إلى وجهها:

مكتبة ياسمين

- يجب أن نتّصل بها من السيارة، إن كنتَ ستأتي. إن لم يكن هذا كثيرًا لأطلبَه. (حكّت مؤخّرة رأسها، وتابعت) ماذا أقول؟! بالطبع هذا كثير. يجب أن تذهب إلى المنزل. صحيح؟ يجب أن تذهب إلى المنزل حيث أختك، والطفل، لكنني سأكون ممتنةً لو... اسمع، سأستخدم دورة المياه، إذا لم تكن هنا عندما أعود، فلا بأس بذلك؟

أومأتُ برأسي موافقًا.

- حسنًا.

قالت وهي تنظر نحو عينيّ لثانيةٍ أكثر من المُريح بالنسبة لي.

زفَر المِكبس مع انغلاق الباب خلفها.

- حسنًا.

قلتُ دون أن أخاطب أحدًا. إلا أنّ شيئًا لم يكن حسنًا. لم أستطِع أن أفعلها. أردتُ أن أذهب. كان عليّ أن أذهب.

لكن بأيّ اتّجاه؟ لماذا تبدو كلّ الممرّات في المستشفيات متشابهة؟ مشيتُ عشرة أمتارٍ جنوبًا (بحسب ظنّي)، لكن لم أشعَر أن الطريق مألوفة. عدتُ أدراجي، ولكن... شخصٌ ما كان يتّجه نحوي، أصواتُ خطوه صارت تعلو أكثر فأكثر، وتصبح أقرَب فأقرَب. انحنيتُ داخل بابٍ يحمل علامة «صيانة»، عندما توقّف الخَطوُ تمامًا. استحالَ ضوءُ المدخل الفضيُّ القادم من تحت الباب إلى ظلام. كانوا هناك، في الخارج.

حبستُ أنفاسي. كانت تبحث عني. بعد بضع خطوات، ثم توقفت مرة أخرى. شعرتُ أن دهورًا انقضَت قبل أن تذهب. انتظرتُ صوتَ قَفل أبواب الخروج الثقيلةِ العالي، ثم عدتُ إلى البهو، ومشيتُ بخِفّة في الاتجاه المعاكس. اقتربتُ من الرَّدهة الرئيسيّة حيث حدّقَت موظفة الاستقبال ذات الشعر الأرجواني دون أن تقول شيئًا.

تركتُ كل شيء ورائي. قبضَ هواء الليل البارد على حنجرتي. ما كان ينبغي أن أكون هناك. ما كان كيو ليرغب بوجودي هناك. قبل ساعات قليلة، كنا مستعدّين لإنهاء بعضنا بعضًا.

وحتى لو رغِب بوجودي بحُكمِ معجزةٍ ما، فلم أكن متأكّدًا من أنّني أريد ذلك.

مكتبة ياسمين

أدخلتُ رقمَ ويت، ووضعتُ الهاتف على أذني. لكنه لم يرِنّ؛ لم تكن هناك خدمة.

هتفَ صوتٌ: «هيه! أخبرتكَ أنه مقاتل».

كان مسعِفو كيو يُمرِّرون سيجارة إلكترونيَّة فيما بينهم في قسم الإسعاف، بجانب لافتة تقول «إن التدخين ممنوع».

- لن أكذب، بدا وضعُه سيّئًا، لكن الكون يُخبِّئ لنا الخير أحيانًا.

قلتُ:

- شكرًا.

أمالَت رأسها، وتدحرجَت بكَرَة من الدخان من شفتيها.

بعدها ركضتُ مُسرعًا إلى آخِرِ مُنحدَر المدخل، قافزًا بقوة. تجاوزتُ الزاوية بشكلٍ حادٍّ للغاية، وأُطلِقَ صوتُ زمّورٍ صاخب، وعَلَا صرير الإطارات، بينما كِدتُ أُقبِّل غطاءَ مُحرِّك شاحنة صغيرة. ولولا أنني قفزتُ على الرصيف المطليّ باللون الأحمر، لكانوا أعادوني إلى داخل المستشفى!

صاح السائق، وهو يشتمُني:

- هل فقدتَ صوابك؟!

رفعتُ يدي مُعتذِرًا، لكن الوقت كان يمضي. لاحظتُ وجود سيارة سوداء تُناورُ لعبور الممرّ الضيّق. بالكاد وضعتُ قبضتي على ممتص الصدمات بينما انزلقَت السيارة نحو الشارع. اهتزّت حتى توقّفَت، ودرتُ حولها. تلاشى اللون الغامق على نافذة الراكب الأماميّ، ولمعَت عينا السيد أوكلاهوما الفضيّتان عبر الزّجاج بالغ الشفافيّة. قال من خلف النافذة:

- ما من وقتٍ لمزيدٍ من التردُّد، سيّد آندرسون، هل هذا واضحٌ؟

- نعم.

نظر السيد أوكلاهوما نحو الخلف، وعادَت نافذتُه إلى لونها الغامق. أصدرَت الأقفال صوتًا، وجلستُ في المقعد الخلفيّ بجوار السيدة بارانتيس. كانت تبكي، وشعرتُ بالإحراج، فلَمْ أعرف ماذا أقول. ضغطَت على يدي، وقالت بصوتٍ خافِتٍ حتى ظننتُ أنني أتخيّلُه: «شكرًا لك».

مكتبة ياسمين

77

أعدتُ السؤال: «أما زلنا في إليتاون؟»

اخترقَت مصابيحنا الأماميّة الظّلام في مواجهتِنا.

من ذلك البُعد، ودون وجود ضوضاء بيضاء لتُخفِت ما حولها، تسمع نفسك تفكّر، أصغر فكرة تضجُّ مثل طلقة بندقية. يسكُن الكون، فتتمنّى لو تهزُّه.

اعتادَت أمّي أن تضَع إصبعها على شفتيها، كما لو كانت تهزُّ العالم لينام، حين يعمُّ الصّمتُ فجأةً، وتقول: «أنصِت، حتى الأشرار يأخذون قيلولةً».

قال السيد أوكلاهوما دون أن يستدير: «نعم، يا جمال».

كان يليق به أن يبرع في وظيفة مُعلِّقٍ يصفُ تفاصيلَ نهاية البشريّة. أراهن أن صوته حين يقول: «أحبك» يبدو كأنّه يُلقي تأبينًا!

ألصقتُ رأسي بالمقعد الأماميّ، لكن قبل أن أتمكّن من التململُ مع سؤال: «هل وصلنا بعد؟»، انعطفنا بحِدَّة عن الطريق، فارتددتُ خلفًا، وضرب وجهي البابَ.

- بإمكانك استخدام المكابح في المرة القادمة!

قلتُ وأنا أفرقعُ غضبًا كالفشار أسفلَ السيارة.

نقرَ السائق عدّة مرات على شاشة اللّمس في وحدة التحكُّم المركزيّة للسيّارة.

تحدّث السيد أوكلاهوما بصوتٍ خافِتٍ باستخدام هاتفه، وانتقلَت السيدة «بي» بعينيها المنفعلتين نحو المنتصف. مالت نحو الأمام لتحدّق من خلال الزّجاج الأماميّ، كما لو أنّها لا تصدّق ما تظهره لها نافذتها.

سألَت السيدة «بي»:

- هل هذه دعابة سمجة؟!

76

ماذا كنتُ أتوقَّع؟

توقعتُ مبنىً من الزّجاج القُزَحيَ... قلعةً فولاذيّة متلألئة... إنجازاتٍ هندسيّة وتصميميّة تجعل الفكّ ينفرج تلقائيًّا في انذهال، وتجعلك تتمنّى لو أنّك اشتريتَ هاتفًا بكاميرا أفضل... شجرةَ فاصولياء معماريّةً تنبثقُ من الأرض.

مكتبة ياسمين

لكن هذا؟

- هل يعملُ نظامُ تحديدِ المواقعِ هنا؟ هل ضللنا الطريق؟ سألتُ، وأنا أنظر من النّافذة الخلفيّة.

قال السيد أوكلاهوما:

- نحن حيث من المفترض أن نكون.

- وأين هذا؟

أجابت السيدة «بي»:

- مصنع الحليب القديم. لمَ نحن في مصنع الحليب القديم؟!

أمسكَت مِقبض بابها، ونظرَت إليَّ. بدَت مرعوبةً للمرّة الأولى. لعلَّها أدركَت ما أدركتُه. أنّنا في سيارة غريبة، في منتصف الليل في مكانٍ ناءٍ، في مصنع ألبان بائدٍ، ولا أحد يعرف أنّنا هنا، أو مع من نحن. نحن لا نعرف أين نحن، ومع مَن نحن!

لعلّنا بصددِ الخروج من تعويذة: «فلنوقظ كيو مهما يكن الثمن!». لعلّنا ندرك أخيرًا أن هذا الوعد ليس حقيقيًّا.

لا يستيقظ البشر من الموت، وحتى لو استطاعوا، فلن يكون ذلك في غرفة مليئة بصناديق الحليب.

أخرجتُ هاتفي، لكن السيد أوكلاهوما هزّ رأسه:

- لا توجد خدمة هنا. أتقدّمُ باعتذاري.

- أريد الاتصال بأختي؛ إنها مذعورة غالبًا.

أومأ برأسه، وقال:

- يمكنك الاتصال بها عندما نكون بالداخل يا جمال، لكننا أبلغناها بالفعل. إنها على علم بالوضع.

- هل تسمّي وفاة ابني وضعًا؟!

عبس السيد أوكلاهوما:

- أرجوكِ سامحي اختياري غير الموفَّق للكلمات. سيدة بارانتيس، أؤكّد لكِ أنّني لا أستخفّ بموت ابنك المفاجئ. أما ويتني، يا جمال، فهي مُحاطةٌ عِلمًا. هي وطفلها بخير.

مكتبة ياسمين

ماذا بحقّ... ماذا جرى للتو...!

- كيف تعرف اسم أختي، وأنها حامل؟

- عندما نكون على أعتاب المعجزات، يجب أن نتَّخذ كلّ الاحتياطات يا جمال. يجب ألا نترك أيّ شيء للصّدفة.

لم أرضَ بإجابتِه، لكني كنت أعرف أنه لن يقول المزيد، ولكن إذا تحدَّث إلى ويت، فلديه رقمها، وقد عرف بشأن الطفل بطريقة ما، وربما يعرف أين نعيش. هل يراقب منزلنا الآن؟

انكشف الحصى عن الأسفلت، وانعطفنا نحو مساحة غير مرئيّة من الطّريق، وعندها رأيناه. أولُ أثرٍ للتكنولوجيا الحديثة. جرَت شمالًا وجنوبًا سلسلةٌ من أشعة الضوء البرتقاليّ السّاطع، متباعدةً بشكل متساوٍ على مدّ نظري في كِلا الاتّجاهَين، مثل أعمدة سياج.

فتح السيد أوكلاهوما صندوق القفّازات، وأزال شريطين تتدلى من كلٍّ منهما شارةٌ بيضاء بسيطة، ثم قال: «ضع هذه. من الضّروريّ جدًّا ألّا تنزعها أثناء وجودك في المختبر».

أردتُ أن أسأل ماذا سيحدث إذا فعلنا ذلك، إلا أنني كنتُ مشغولًا بالتّحديق بما أراه أمامي. انتظرتُ أن تُكبح الفرامل، أن نُبطئ مع اقترابنا، إلا أننا مشينا أسرع. تبادلتُ النّظرات مع السيدة «بي».

عبرنا، أضاءنا اللون البرتقاليُّ جميعًا، وبَدا كأنّنا توقّفنا داخل الأضواء بطريقةٍ ما. كأنّ هناك غرفة كاملة داخل الأشعّة. وأقسم أنني شعرتُ بأعينٍ تراقبنا من الجانبين، لكن في النهاية، مررنا دون أن يصدُر أيُّ صوت.

- عبرَت آلاف الأبقار من هذا المكان ذات مرّة.

قال السيد أوكلاهوما، بشكل عشوائيٍّ، على ما أعتقد، حتى لمحتُ لافتةً صدِئة تقول: «تمهّل! أبقارٌ تعبر».

سألتُ:

- ماذا حدث؟ لماذا أُغلِق؟

قالت السيدة «بي»:

- اعتيدَ أن تحدُث أشياء غريبة مع الأبقار.

وواصَلنا السيرَ على الطريق المظلمة بصمت.

مكتبة ياسمين

تعرفون المثل القائل بأنّ المظاهر خدّاعة؟

داخلَ المركز كان كلُّ ما يتوقّع المرء من منشأةٍ تدَّعي إحياءَ الموتى. ردهةٌ شرِحة مليئة بالضوء الأزرق الخافت المُنبعث من الأرضية الخرسانيّة. كان بالإمكان رؤيةُ خمسة مستويات في الأعلى، أكوام من الغرف الزجاجية المربعة.

رحّبَت بنا المرأة السوداء في مكتب الاستقبال، برأسٍ حليق، وشفاهٍ لمياء:

- مرحبًا بكم في المركز.

أومأ السيد أوكلاهوما برأسه:

- كاساندرا سترافقكما إلى كبار علمائنا. لقد سبَق وقابلتُما د. إيفرسون.

سألتُ:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لديَّ بعضُ المشاغل التي تتطلّب اهتمامي. سأنضمُّ إليكما بعدها.

قالت كاساندرا، وهي تتّجه نحو لوح زجاجيّ:

- من هنا. سيّدة بارانتيس، جمال، اتبعاني فضلًا.

قادَتنا عبر جسر زجاج، وهناك كانت د. إيفرسون، التي عرّفَت عن زميلها د. لانغدون.

تنحنحَ د. لانغدون:

- قبل المضيِّ قُدمًا، يجب أن تعرفا أنه لا د. إيفرسون أو أنا أو المركز، مرتبطون بأيّ شكل من الأشكال بمستشفى إليتاون أو بأيّ نظامِ مستشفى. نحن كيانات منفصلة تمامًا. المركزُ عبارة عن منشأةِ أبحاثٍ طبيَّة مموَّلة من القطاع الخاص. هل هذا واضح؟

شبكَت السيدة «بي» يديها، ثم أردفت:

- نعم... يمتلك الأثرياء هذه التكنولوجيا، ويتحكَّمون في كيفيّة استخدامها!

تدخّلت د. إيفرسون قائلةً:

مكتبة ياسمين

- لحسن الحظ، فإنَّ الأشخاص القائمين على هذا المكان ليسوا كرماء وحسب، بل مدفوعين أيضًا بأفضل النوايا. ابتسمَت د. إيفرسون، وتابعت: لكن هذا ليس سبب وجودكما هنا. كما أكّدنا قبل نقل كوينسي إلى هنا، فهو بالفعل يفي بجميع معايير الإنعاش الرئيسيّة لدينا.

التقَت نظراتي بنظرات الطبيب:

- والتي هي؟

- إنَّه يتمتع بصِحَّة جيدة، وجسمُه سليم إلى حدٍّ كبير، وكان لديه قدرٌ كبير من نشاط الدماغ والقلب بعد انقضاء أجَله.

سألتُ:

- انقضاء الأجَل؟ تقصد أن أعضاءه كانت لا تزال تعمل بعد وفاته؟!

ابتسم د. لانغدون:

- هل تعلم أنه قبل أن تلفظ أنفاسك الأخيرة، يحصل اندفاع كيميائيّ كبير في دماغك؟ في الواقع، إنه نشاط أكبر مما يختبره دماغك طوال حياتك، كانت تلك بداية كلّ هذا. (وبينما قال ذلك، رفَع ذراعيه، وكأنه يبيعُنا منزلًا) هذا النشاط الكبير هو المفتاح.

قالت السيّدة «بي» مُطالِبَةً بالمزيد من التفسير:

- ولكن كيف يعمل؟ ماذا لو حدث خطأ ما؟

قال د. لانغدون:

- بينما لا يمكنني الخوض في تفاصيل عمليّة الإنعاش، يمكنني أن أخبرك أننا نُراقب كلّ مرحلةٍ من كثب.

أضافت د. إيفرسون:

- صحيحٌ أنّ التكنولوجيا جديدة، لكننا نوظِّف العديد من العقول العلميّة الأكثر كفاءةً في العالم. سيكون كوينسي الإنعاش العاشر لدينا. وفي كلّ مرة، كما هو الحال في كُلّ العمليّات، نحسّن جودة التجربة.

عبس الدكتور لانغدون، واتّخذ خطوة صغيرة إلى الأمام:

- هنالك... عنصرٌ نفسيّ للإنعاش يجب أن تكونوا على درايةٍ كاملة به.

التفتَت السيدة «بي»:

مكتبة ياسمين

- ما هو؟

- حتى يتمّ الإنعاش، نحتاج إلى إرجاع ذاكرة كوينسي إلى عدّة لحظات قبل لحظة قفزه في الماء.

سألتُ:

- لماذا؟

- لأنّ صدمة تلك الحادثة وشدَّتها يمكن أن تضُرّ صحّة كوينسي الذهنيّة.

- قلتَ إنّه لن يكون هناك ألم، لكنّك تقول الآن إنَّه من المُمكن أن يُصاب ابني بالجنون! (قالت السيّدة «بي» بصوت عالٍ).

قال د. لانغدون، وهو يرفع يديه لأعلى:

- لا، لا... إرجاع ذاكرتِه يمنع ذلك، يُقلّل من صدمةِ النظام. ولهذا، يحدّد فريقنا أيضًا النافذة المثاليّة لإعادة تهيئة ذكريات ابنك حول اللّيلة الماضية.

أومأت السيدة «بي» برأسها ببطء:

- يبدو أنّك تملك المزيد في جعبتِك.

أمالت د. إيفرسون رأسها:

- لن يتذكر كوينسي أيَّ جانب من جوانب وفاته.

- لا أفهم!

- نقصد... (شبكَت د. إيفرسون يديها معًا كما يفعل الأطبّاء عادةً) لن يعرف كوينسي أنّه مات، ولكن في غضون أسابيع قليلة، سيموت مجدّدًا، سيّدة بارانتيس. من الناحية الفسيولوجيّة والنفسيّة، فإنَّ إعادة تهيئة الذاكرة هي الطّريقة الأكثر أمانًا لنُتِمَّ الإنعاش، ولكن بمجرد عودة كوينسي بالكامل إلى عالمه القديم، فقد يكون من المُفيد... تنبيهُه إلى طبيعة وضعه.

- تقصدين أنك تريدينني أن أخبر ابني أنّه مات، وتمّ إنعاشُه مؤقّتًا في مصنع ألبان، وأنّه سيموت مجدّدًا خلال عدّة أيّام؟

انقبض وجه د. لانغدون:

- إنّها مسألة أخلاقيّة بشكلٍ أساسيّ. من الأخلاقيِّ فعلُ ذلك.

مكتبة ياسمين

- إذن، تُلمّحُ إلى أنّ إخفاء هذا عن ابني يجعلني غير أخلاقيّة؟!

قالت د. إيفرسون:

- نحن نتفهّم لماذا قد تختارين عدم إخبار كوينسي. تريدينه أن يكون سعيدًا، أن يستمتع بأيّامه الأخيرة دون أن يُنغِّصَه عدٌّ تنازليٌّ سخيف.

- أريد أن يعيش ابني في سلامٍ؛ دون قلق، حرًّا في أن يكون على طبيعته.

- وهذا حقُّك القانونيّ (أومأ د. إيفرسون برأسه) سنحتاج منك التوقيع على مستندٍ للإقرار بهذه المحادثة.

وكان من الواضح أنّ ذلك ليس قراري، لم يطلب أحد رأيي، لكنني قلتُ مُندفعًا:

- أمَا كنتِ لترغبي بمعرفة الحقيقة؟

حدّقَت السيدة «بي»:

- هذا ليس مُتعلِّقًا بي، هذا لمصلحة لكوينسي.

- لقد وافقتِ على أنّه يستحقّ المزيد من الوقت. ألا يستحقُّ معرفةَ ما حدث له أيضًا؟ أعتقد أنه كان ليُريد...

- هل تعرف كوينسي أكثر مني يا جمال؟

تراجعتُ خطوة إلى الوراء:

- لا، أنا فقط أقول ربّما ينبغي علينا التفكير...

كرّرَت السيدة «بي» مُهتاجَةً:

- علينا؟ علينا أن نفكّر؟ متى كانت آخر مرّة أجريتَ فيها محادثة حقيقيّة مع ابني؟

عمليًّا، كان ذلك على الشاطئ، لكن هذا لم يكُن ما عَنَتْه.

- أطول مما ينبغي.

أومأت برأسها قائلةً:

- أُقدّر وجودك هنا، لكنني أعرف ابني، وقد اتّخذت قراري. لن يُخبره أحدٌ بكلمة واحدة، ولا كلمة. هل هذا واضح؟

أخيرًا، أومأتُ برأسي. هل كنتُ موافقًا؟ بالطبع لا، لكنني كنتُ سأدعم قرار السيّدة «بي» حتى لا يعودَ باستطاعتي فعل ذلك.

مكتبة ياسمين

74

عندما عاد السيّد أوكلاهوما، فركَت السيدة «بي» يديها ببعضهما بعضًا:

- والآن ماذا؟ هل تحدّثتَ حول اختبارات؟

أومأ موافقًا:

- سيكون هناك تحليل رسميّ، لكن أوّلًا، نحتاج إلى أخذِ عيِّنات الدم من كلٍّ منكما.

وأعرف أنني قلتُ إنني سألزَم الصمتَ في هذا الشأن، لكنني سألت:

- عيِّنات دمٍ من أجل ماذا؟

- من الجوهريّ أن نحافظ على منشأة نظيفة، ولهذا، نحن بحاجة إلى التأكّد من أنكما بصحة جيّدة، لئلّا نعرّض كوينسي لمخاطر غير ضروريّة.

كنتُ على وشك المتابعة عندما لمسَت السيدة «بي» ذراعي، وقالت:

- سنفعل كلّ ما هو مطلوب.

- هذه هي الروح المطلوبة (نزع السيد أوكلاهوما نظّارته، وفرك كلتا العدستين بقطعة قماشٍ أخرجَها من جيبه)، لكن أوّلًا، الحمّامات، سوف تجِدان مناشف وملابس نظيفةً في غرف الملابس.

- متى ستعيد ابني؟

- قريبًا جدًّا.

أمسكَت السيدة «بي» رأسها:

- ما زلت لا أفهم كيف يكون هذا ممكنًا. لا يمكننا القضاء على السّرطان، أو حلّ مشكلة الجوع العالميّة، ولكن يمكننا إحياء الموتى!

- من الصعب فهم الأمر. أعترف أنّ هناك أوقاتًا أتساءل فيها عمّا إذا كان هذا حقيقيًا. إذا كان هذا العمل -تأنّى قليلًا- قضيّة الجوعُ العالميَّة نتيجةٌ للجشع، ويمكن حلُّها بسهولة. أما عن حلِّ السرطان، فنحن قريبون. العمل الذي نفعله، سيدة بارانتيس، قائمٌ على عكس هندسة الموت نفسه، وبقَهر الموت تتساقط كلّ أحجار الدومينو بسهولة. كلّ آفَة، كلّ جريمة قتل باردة، كلّ بلاء... يختفي هذا للأبد.

مكتبة ياسمين

تدخّلتُ:

- لم يذكر أحدٌ السعر! كم سيكلّف هذا؟

هزّ السيد أوكلاهوما رأسه:

- هذا الإنعاش إهداء.

- ماذا؟ (هزّت السيدة «بي» رأسها) مِن قِبل مَن؟!

عدّل موضع نظارته:

- متبرِّع مجهول (رفع السيد أوكلاهوما إصبعَين أمام الكاميرا المُثبَّتة في الزّاوية)، يبدو أنّ شخصًا ما يعتقدُ أن ابنك بطل.

- بطل؟!

- كان هناك تقريرٌ يقول إنَّه أنقذ شخصًا من الغرق.

قالت السيّدة «بي» بصوتٍ يشوبُه الارتباك:

- مهلًا! ماذا تقصد؟ ماذا تقول؟

تذكَّرتُ سؤال كيو: «هل هي بخير؟»، هل كان هذا ما قصده؟ هل كان هناك شخصٌ آخر في الماء؟ وإذا صَحّ هذا، فكيف تمكَّن كيو من إنقاذها؟

قال السيّد أوكلاهوما:

- سيُفسَّر كلّ شيء في الوقت المناسب.

قالت السيدة «بي» بحزم:

- بل حالًا! ما رأيك لو تخبِرُني حالًا؟

إلا أنّ امرأةً ترتدي زيَّ أطباء رماديًّا وقفت بجانبنا فجأةً، مُنتظرة بجانب السيّد أوكلاهوما.

- أتفهّم رغبتك في معرفة ما حدث الليلة، وسنُخصّص وقتًا لذلك، لكن في الوقت الحاليّ الأولويّة هي إعادةُ ابنك سالمًا. الآن، بعد إذنكما، أراكما قريبًا.

بدأت السيّدة «بي» بالاعتراض، لكن المرأة ذات الزيّ الرماديّ أومأت لنا لنتبعَها. وقررتُ أن أُبقي ما قاله كيو لنفسي، مؤقّتًا على الأقلّ.

قالت مُرشدتنا الجديدة: «من هنا، لُطفًا». قادتنا عبر ممرٍّ أبيض طويل، وتوقّفنا عند بابين: «من فضلكما عودا إلى هنا عندما تنتهيان». وذهبَت بعدها.

مكتبة ياسمين

وتبادلتُ النظرات مع السيّدة «بي».

- هل أنا مجنونة يا جمال؟ هل من الجنون أن أفعل هذا؟

- ماذا قد تخسرين؟

ضغطت على كتفي، وقالت:

- ابني مرّة أخرى. ثم اختفت داخل غرفة الملابس الخاصّة بها.

والحمَّام.. كان أشبَه بمغسلة سيَّارات؛ كبيرًا بما يكفي لتحميمِ قطيعٍ كامل من الأبقار، مما كان مقزّزًا. وعلى أيَّة حال، فقد كان الدش آليًّا بالكامل. لم يكن هناك أدوات تحكُّم مرئيّة؛ لا مقابض، أو أذرع، أو أزرار، أو شاشة تعمل باللمس. دخلتُ عبر الباب الزجاجيّ الذي انغلق بصمتٍ خلفي. انزلقَت ثلاث أذرُع شفّافة على الجدران الثلاثة المحيطة بي، وأطلقَت نُفاثًا دافئًا يشبه التدليك على جميع جوانب جسدي. ثم سادَ ضبابٌ أرجوانيّ. شطفٌ.. ضبابٌ أصفر.. شطفٌ مجدّدًا.. انقطع الماء فجأةً.

توقّعتُ لوهلة أن تخرج ذراعٌ من الحائط وتلبسني، إلا أنني ارتديتُ الملابس الجديدة بنفسي؛ بذلة بلون أزرق شاحب وحذاءً منزليًّا. كانت السيدة «بي» قد عادت إلى الرّدهة. قادتنا المرأة ذات الزيّ الرماديّ إلى منطقة أخرى من المركز. غرفةٌ بنافذة واسعة تُطلُّ على معمل ضخم أبيضَ بالكامل، فيها رجالٌ ونساء يرتدون أقنعةً وملابس مستشفى مثل تلك التي كنتُ أرتديها، باستثناء أنّها كانت بيضاء، ويجلسون في محطات عمل تحوي صفوفًا متتاليةً من الشّاشات المترابطة. تطايرَت الأحرف والأرقام المختلطة عبر الشّاشات بمعدَّلٍ لم أستطِع استيعابه. حتى لو تمكّنتُ من إبطائها، ما كنتُ لأعرف معنى أيٍّ منها.

وقف السيّد أوكلاهوما رفقة رجل وامرأة يرتديان معاطف مختبر. ابتسم، ولوّح لنا:

- سيّدة بارانتيس، جمال، أُقدِّم إليكما مُصمِّما النماذج السريريَّان عندنا؛ ماركوس وكيانا.

- مصمِّمان؟!

- سيقابلاكما. المعلومات التي يجمعانها ستساعد في استعادة شخصيّة كوينسي.

مكتبة ياسمين

- مهلًا، لماذا... هل تقصد أنَّ كوينسي قد لا يكون بنفس الشخصيّة؟

- سيكون كوينسي ذاته، لكن التصوير يخفّف أيّة مشاكل محتملة قد نكتشفها خلال المرحلة الأخيرة من الإنعاش. من المحتمل ألا تكون هناك حاجة لذلك، لكننا نفضّل أن نكون استباقيِّين بدلًا من أن نتصرَّف عند اللزوم.

دفعَت كيانا الباب، وحافظَت عليه مفتوحًا:

- سيدة بارانتيس، هلّا تبِعتِني إلى غرفة التحليل الأولى، سنبدأ.

قلتُ لماركوس:

- هذا يعني أنّنا معًا.

لم يبتسم... قال:

- تعالَ... من المهمّ ألا نتخلَّف عن المُنعِشين.

73

لم يكُن ماركوس من مُحِبّي الدردشة.

- وكيف كانت حالة كوينسي العقليّة في الحفلة؟

- كان... طبيعيًّا إلى حدٍّ ما، في البداية.

- القيمة العدديّة فقط، من فضلك.

استعنتُ بالجهاز اللوحي الذي أعطاني إيّاه. كان يحوي أعمدةً من المشاعر، كلٌّ منها يحوي نصفَ دزِّينة من العواطف الفرعيةِ، وخُصِّص لكُلٍّ من ذلك نطاقًا رقميًّا.

هل فهمتم ما المطلوب أعزّائي القُرَّاء؟

ولا أنا!

نقرتُ على الشاشة.

- حسنًا.. آسف.. ثمانية.. لا، سبعة على ما أظن.

حدّق ماركوس إلى الأعلى من المحطة قائلًا:

مكتبة ياسمين

- كلُّ ردودك تخميناتٌ، سيّد آندرسون. كما شرحتُ، ستُنزَّل غالبيّة ذاكرة كوينسي مباشرةً. ما نفعلُه مجردُ واجهةٍ وتنظيم. كلّ ما عليك فعله هو الإجابة بأفضل ما لديك، اتفقنا؟

- بصراحة، لا أفهم كيف يساعد أيّ من هذا!

تنهَّد:

- كلّما ازداد فهمُنا لنظرةِ المُقرَّبين منه، يتحسَّن التصوير. هل فهمتَ؟

- لا، لم أفهم!

- بلى، بالتأكيد. كلُّ ما في الأمر أنّني... لم أنَم، وكلُّ ما في الأمر أنّني... هل تملك أدنى فكرة حول كم من الوقت سيستغرق هذا؟

- ألديك أشياء أهمُّ لتفعلها؟

- بالطبع لا، ولكن...

- أتريد أفضل نتيجة لصديقك؟

- بالطبع.

- أفضلُ نتيجة تستغرق وقتًا طويلًا. هل يمكننا المتابعة الآن، أم أنَّك تحتاج إلى استراحة قصيرة؟

- لا، لا، أنت على حق. دَعنا... فلنُتابع.

- جلستنا القادمة عبارة عن أسئلة طويلة. استخدم كلمات بقدر ما تحتاج للإجابة. واضح؟

لم يكن ذلك واضحًا بما يكفي. أومأتُ برأسي موافقًا.

- إذن، حسب فهمنا، لم تعد أنت وكوينسي صديقين؟ لماذا انتهت هذه العلاقة؟

عصرتُ يدي في حضني، وجفّت شفتاي وحلقي:

- ماذا تقصد؟

هزَّ ماركوس رأسه، وتنهّد للمرة المئة منذ جلسنا:

- جمال، أخبرني لماذا انتهت صداقتكما؟

مكتبة ياسمين

72

بعد شهرين من الجِنازة

كوينسي: مرحبًا، ظننتُ أنّك قد تريد أن تعرف أنه ليس بخير. قال الأطباء إنه قد لا يعيش سوى بضعة أسابيع أخرى، لذا ظننتُ أنّك قد ترغب في القدوم لرؤيته.

وبعد ذلك بأسبوع...

كوينسي: لقد توفّي.

كوينسي: وكأنّك قد تبالي.

لامسَ إصبعي جرس الباب، لكنني لم أضغطه. لا أعرف كم وقفتُ هناك، على شرفة منزل آل بارانتيس قبل أن يُفتح الباب.. قبل أن يحصُل ما حصل.

صاح كيو حانقًا:

- لقد فات الأوان يا جمال. لماذا كلَّفتَ نفسك عناء القدوم؟

ولم أتمكّن حتّى من النّظر إليه.

قلتُ:

- كيو.. كيو (كرَّرتُ دون أن تجد الكلمات طريقها إلى فمي).

مدة شهرين، كنت غاضبًا جدًّا. كلّ ما كنت أفكّر فيه هو أنه لو لم يتّصل، لكان والداي هنا، في مطبخ بيتنا، في سريرهما، على الشّرفة. وكلَّما ازدادت محاولة كيو لمساندتي، ازداد حنقي.

كنتُ غبيًّا للغاية. وكلما حاولت لكن كعادتي، زِدتُ الطين بِلَّة بتجاهلي لرسائله! وبالطّبع، ظنَّ أنّ السّبب في ذلك هو أنّني لم أهتمّ، لكن الحقيقة هي أنّني لم أستطع أن أنظر إليه.. لم أستطع فصل وجه كيو عن وجهيهما.

- أنا... أنا...

لكن كيو قاطعني قائلًا:

- إيَّاك.. إيَّاك يا هذا.

ولم أستطِع أن أتلفَّظ بكلمة أخرى قبل أن يُصفَع الباب مُهتزًّا بقوّة حتى أفلتت اللوحة المرسومة يدويًّا من خطافها.

مكتبة ياسمين

«اللهم بارك هذا البيت»، كُتِب على اللوحة.

لكن الأوان كان قد فات.

قبل أن أخرج من تلك الشرفة، كان الدرس واضحًا؛ بغضّ النظر عن فِعلة أيّ شخص، يأتي أوانٌ لا نعود فيه قادرين على تبرير مواصلةِ معاملتهم بسوء.. يأتي أوانٌ لا تعود المشكلة مشكلتهم، بل مشكلتك أنت فقط، ويمكنك أن تسامح وتُشفى، أو أن تواصل ضمَّ ذلك الألم المُشتعل كجمرةٍ إلى صدرِك.

71

توبرون

تحديث مميّز من قِبل جانسي

22.212 مشاهدة، 45 إعجابًا، 1691 عدم إعجاب، ثنائيّ جانسي الكوميديّ، 4.244 مشتركًا

كوينسي: مرحبًا يا رفاق، هذا إعلان بشكل أساسيّ. أعلم أنكم جميعًا تسألون حول ما يحدث بيني وبين جاي. طيّب، لن أخوض في التفاصيل، لأنّني أتساءل حول الأمر ذاتِه بصراحة، لكنّني سأوضّح أمرًا واحدًا: من الآن فصاعدًا، لن نسجّل أيّ فيديوهات معًا، فبحسب خبرتي، لا نستطيع أن نصنع فيديوهات مع أشخاصٍ لا نتواصل معهم، لذا... لكن لا تخشوا شيئًا، فأنا سأظلُّ هنا، فالجزء الخاصّ باسمي «نسي» من ثنائيّ «جانسي» لن يبارح مكانه... لذا، أتمنى أن تتشبّثوا بدوركم يا رفاق. تابعوني كلَّ سبت في محتوىً جديدٍ. كان معكم كوينسي.. سلاام.

70

لا أستطيع إخباركم بعدد الأسئلة التي أجبتُ عنها، أو كم قيمةً عدديّةً عيّنتُ!

أخذنا فترات راحة متقطّعة، وفي مرحلة ما، قادانا إلى غرفة مليئة بالطّعام الكافي لإطعام جميع سكّان إليتاون. قالا قبل أن يتركانا أنا والسيدة «بي» وحيدَيْن: «نأمل أن تجدا ما يعجبكما». توضّعَت وسط الغرفة طاولةٌ بيضاء

مكتبة ياسمين

مجهَّزة بأدوات لشخصين. كانت غرفةً زجاجيّة، مثل جميع الغرف الأخرى، إلا أنّ مُرشدَينا حرِصا على أن يضغطا على لوحة بجانب الباب، ممّا جعل الزجاج الشفّاف يتحوّل إلى لونٍ جليديّ شفّاف، وهما يقولان: «سنعود إليكما بعد ثلاثين دقيقةً». وعندما عادا، أخذانا لإجراء المزيد من الاختبارات.

باستثناء وجبتنا، فُصِلنا أنا والسيّدة «بي» خلال العمليّة بأكملها، ولكن بعد ذلك، وفي النهاية، اقتِدتُ إلى غرفة كبيرة على شكل نصف دائرة. كانت أشبه بقاعة محاضرات جامعيّة، لكن بمقاعد مخمليّة أكثر فخامة، وزخارف من الخشب المُعالج، وشاشة ضخمة وسطَ الجدار الأمامي.

سألتُها:

- هل لديك فكرة عن سبب وجودنا هنا؟

وإذا بالأضواءُ تخفُت، والشاشة تضيء. تبسَّمت لنا عبر الشاشة امرأة ترتدي بذلة مُفصَّلة. كانت تقف في بهو المركز الرئيسي:

- نيابةً عن الجميع هنا في المركز، نودّ أن نشكركما على عملكما الشاقّ اليوم. نُقدِّر رغبتكما في المشاركة في إنعاش من تحبّان (قالت وهي تمشي في طابق البهو).

تابعَت على هذا المنوال لفترة من الوقت، وسلَّطَت الضوء على كلّ مرحلة من مراحل عمليّة الإنعاش، باستثناء أنّ نسختها كانت أسلَس، وبذلتُ قصارى جهدي لفهم مقصدِها حتى نظرَت في الختام إلى الكاميرا، وقالت:

- ولضمان تجربة الإنعاش الأمثل لمن تحبّان، من واجبنا أن نطلب منكما اتّباع ثلاث قواعد أساسيّة (رفعَت إصبعها): أوّلًا، باستثناء العائلة المباشرة والأصدقاء المقرّبين، يجب ألا تنقلا ما شاهدتماه أو سمعتماه أثناء زيارتكما هنا. من أجل سلامة كيو، من الضروريّ أن نحصر المعرفة بإجرائه، وبهذه المنشأة على من يحتاج أن يعرف فقط. ومن المفترض أن يكون التالي بديهيًّا، لكن من فضلكما، لا تنشرا أيّ شيء على وسائل التواصل الاجتماعي، (ابتسمَت ورفعَت إصبعين) عُيِّن مستشار إنعاش خاصّ بكما. رغم أنّ الأمر مُستبعَد، لكن في حال حدوث شيء غريب مع كيو، لا يمكنكما الاتّصال بالسّلطات المحليّة إطلاقًا. يخضع كيو للمراقبة على مدار أربع وعشرين ساعة، ولهذا،

مكتبة ياسمين

فالأرجح أنّ فريقًا من المحترفين المدرّبين سيكونون في طريقهم إليه سابقًا، ولكن، من أجل راحة بالكما، لا تترددا في نقل أيّ مخاوف إلى مستشاركما مباشرةً، (رفعت ثلاث أصابع) لعلّها القاعدة الأكثر أهميّة؛ اغتنما هذه اللحظات الثمينة مع من تحبّان. هذه هي الفرصة الثانية التي لم تعلما بوجودها.. استمتعا بها!

إن كان هذا المطلوب منّي ومن السيّدة «بي»، فلا أستطيع أن أتخيّل ما الذي يُخضِعون كيو له؛ النبشُ في حمضه النوويّ، وتحليل هذا، وتشخيص ذاك.

عندما عادت الأنوار، لم نكُن بمفردنا.

قال السيّد أوكلاهوما، وهو يسلّمنا أكياسًا محكَمة الإغلاق تحوي ملابسنا الشخصية مضغوطةً فيها:

- واحد لكِ، وواحد لكَ.

قالت د. إيفرسون:

- نشكركما على مساعدتكما وصبركما. سيكون إنعاش كوينسي أنجح بفضل ذلك.

سألت السيّدة «بي»:

- هذا كلّ شيء إذن؟ لقد انتهينا؟

أومأ السيّد أوكلاهوما برأسه:

- الآن اذهبا إلى المنزل، وحاولا أن تناما. سنخبركما قبل ساعة من وصولنا.

سألتُ:

- وماذا ستفعلون؟ تتركونه في سريره فيستيقظ؟

أجاب السيّد أوكلاهوما:

- ببساطة شديدة، نعم.

تنحنحَت د. إيفرسون:

- هناك شيء أخير علينا مناقشتُه؛ نافذة الموت، هل فهمتماها عند شرحها لكما؟

أومأت السيدة «بي»:

مكتبة ياسمين

- كوينسي سوف... هناك نافذة مدتها أربع ساعات، وخلالها سوف... يُتوفّى مجدّدًا.. تنقضي. وهل من المؤكّد أنّ... كوينسي لن يُعاني من أيّ ألم؟

أومأت د. إيفرسون برأسها:

- باستثناء آلام المراهقة ربّما.

قاطعها السيّد أوكلاهوما قائلًا:

- هناك أخبار جيّدة لنتشاركها. المدّة المتوقّعة لبقاء كوينسي على قيد الحياة.

ضمّت السيّدة «بي» يديها معًا، كأنها تُصلّي:

- كم من الوقت؟

- من المتوقّع أن يعيش من أربعة وعشرين إلى ثمانية وعشرين يومًا.

ضمّت السيّدة «بي» وجهها بيديها، وسمعتُ نفسي أشهق.

كيو سيعيش شهرًا كاملًا تقريبًا!

ابتسمت د. إيفرسون:

- سيتفوّق كوينسي على رقمنا القياسيّ السابق.

لم تستطِع السيّدة «بي» الكفّ عن البكاء، وقالت مرارًا وتكرارًا:

- شكرًا لكم، شكرًا لكم.

قالت د. إيفرسون:

- على الرّحب. قبولك لخدماتنا يُشرّفنا. لن يخيب ظنّك.

قال السيّد أوكلاهوما:

- الآن، من فضلكما، اذهبا إلى المنزل واستريحا. الوقت هو أثمن ما نوفّره هنا. سترغبان بأن تكونا في أفضل حالٍ عندما يفتح ابنكِ، وصديقكَ.. عينيه.

69

عندما غادرنا المركز، دارَت ثلاث أفكار في ذهني:

1. يجب أن أضع الأمور في نصابها الصحيح مع كيو. ما من وقتٍ لأضيّعه.
2. يجب أن يعرف كوينسي الحقيقة.
3. أتمنّى لو يعود والداي أيضًا إلى المنزل.

مكتبة ياسمين

لم نكن قد بلَغنا منتصف الطريق نحو الطريق الرئيسيّة عندما اختفى المركز. وعندما مشَت السيارة، شوّشني الشعور بأنّنا تركنا شيئًا وراءنا؛ شيئًا لن نسترجعه.

الطريق إلى المنزل كانت أكثر هدوءًا.

ضغط وجه السيدة «بي» على بابها؛ لم أستطِع معرفة ما إذا كانت نائمةً أم غارقةً في التفكير. نظرًا إلى دوّامات المشاعر في الاثنتي عشرة ساعة الماضية، خمّنتُ أنّ الخيار الأخير هو الأصحّ.

بعد عشرين دقيقة من الرحلة، غلبني شعور غريب، ومن ثمّ أدركتُ أين كنّا.. على الطريق الخلفية لمنزلي؛ الطريق التي تجنبتُه مدّة عامين. ثم رأيتُ الأضواء السّاطعة، وكأنّ جسدي سُرِق منّي، وكأنّ المقبض الذي يتحكّم بحواسي قد حُرِّك فجأةً إلى أقصى اليمين، ثم تحطّمت لوحة التّحكم بأكملها إلى أشلاء.

صار بإمكاني سماع يديّ السائق تتضيّقان حول عجلة القيادة عندما اقتربنا من المنعطف، وشممتُ رائحة الصنوبر المحترق، وكنّا قد وصلنا إلى قمة تلك الأضواء. صارَت داخل سيارتنا. كنّا نتجاوز الزّاوية، وقفز كلّ فوتون في عيني، وما عدتُ أستطيع أن أرى، إلا أنني رأيتهما. رأيتُنا نبتسم، ونضحك في سيارة عائلتنا المليئة بالضّوء الساطع.

«حبُّنا أعلى من الصنوبر! حبنا أعلى من الصنوبر!».

قلتُ:

- سوف أتقيّأ.

كنتُ قد ابتعدتُ نصفَ مترٍ بالكاد عن السيارة، حين تقيّأت على جانب الطريق.

مسحت السيّدة «بي» ظهري بيدها صعودًا ونزولًا:

- هل تشعر بتحسُّن؟

- نعم، أظنّ ذلك.. ربّما. أشعر بالدّوار وحسب.

عبست قائلةً:

مكتبة ياسمين

- تنفّس ببطء وعُمق.

ففعلتُ.

اعتدتُ أن ألعب مع نفسي لعبةً حيث أركز على كلّ نفَس، وأتظاهر أنّ معدتي وحنجرتي لا تتآمران عليَّ.

- يجب أن يراك طبيب يا جمال، (أمسكَت معصمي) نبضك خارج عن السيطرة. من الواضح أنك تعاني من الجفاف و...

رفعتُ يدي، أؤكّد لها كما قال الأطباء:

- لا.. أحتاج أن أرتاح فقط؛ لقد كانت ليلة مُنهكة لنا جميعًا.

ولم أكذب في ذلك. خلفنا، ارتفعت الشمس، وأُنيرت السماء. اضطُررتُ لأن أقسم لها بأنّني أشعر بتحسُّن، وأنّني سأخبرها حالما أشعر بالمرض، وأنّني سأخبر ويت، وبمجرد العودة إلى المنزل إن شعرتُ بالمرض، ثم عدتُ للجلوس تحت حزام المقعد، ورنّ هاتفي في جيب الباب. بينما عادت السّيارة إلى الطريق فتحتُ قفل الشاشة.

أوتوم:

- مرحبًا، ما الذي يحدث؟

«هل أنتَ هنا؟»

«هلّا أطلعتَني على المستجدّات عندما تسنح لك الفرصة؟»

«أُفضّل أن أعرف، حتى لو كانت أخبارًا سيّئة. لا تقرّر أيّ شيء عنّي»

«اتصل بي -يا جمال- بحق الله»

«بجديّة يا جماال؟!»

كتبتُ ردًّا سريعًا، وأزعجني أنّني لا أستطيع أن أقول لها الحقيقة:

- مرحبًا، أنا آسف جدًّا! لكنّ كل شيء على ما يرام.

ردّت على الفور تقريبًا:

- يا للهول! هل كنت تحاول قتلي؟ لا يمكنك أن تتركني مُعلّقة هكذا يا جمال. ليس حين أراك لآخر مرّة في مؤخّرة سيارة إسعاف!

رسالتها التالية كانت ستة صفوف من الرموز التعبيريّة الغاضبة المتناوبة، والرموز التعبيريّة الباكية.

مكتبة ياسمين

- أنتِ محقة. كنتُ وسط معمعة، ولم يُسمح لنا باستخدام هواتفنا هناك بسبب المعدّات الكثيرة، ولم أكن صافي الذهن. أنا آسف للغاية بحقّ.
- هل ما زلت في المستشفى؟ أين كيو؟
- نعم، لقد أبقَوه لديهم ساعات قليلة أخرى ليراقبوه.

شعرتُ بذنب هائل لكذبي عليها، لكنّها كانت الطّريقة الوحيدة لنجاح العمليّة، صحيح؟ من المضحك أنّ البالغين يعِظوننا دائمًا بخصوص الصّدق.

- أتظنُّ أنّه لا بأس بمجيئي؟
- بصراحة، كنتُ لأنتظر لو كنتُ مكانك. كان نائمًا معظم الوقت. ما كانوا ليتركوني أراه لولا أنني كذبت، وقلت إنه أخي.
- حسنًا.. هل تمانع أن تعطيني رقمه؟ أريد أن أبعث له رسالة نصية إليه لاحقًا، أو قد أتصل به.
- نعم، سأرسله حالًا. مهلًا.. ماذا عنك؟ هل أنت بخير؟
- باستثناء أنّني لم أنَم إطلاقًا، لأنني كنتُ قلقةً للغاية؛ أجل، أنا بخير.
- و... ماذا عنّا؟ هل نحن بخير؟
- لا.. ليس من المفترض أن نكون كذلك. لقد جرحتني، وهذا ليس أمرًا عابرًا.
- نعم.. أعرف.
- لكن، وهذا سيبدو مروّعًا بحقّ وأنانيًّا ربّما، لكنّه حقيقيٌّ بكلّ الأحوال.
- لقد حُذِّرتُ.

مضَت بضع دقائق، وتساءلتُ حول ما يشغلها. كان الانتظار مؤلمًا. هل كانت تحاول أن تقرّر كيف تقول ما ستقوله، أم إن كانت ستقولُه؟ هل صرفَت انتباهها رسالةٌ أخرى من شخص آخر؟ هل نامت أم قررَت أنّني لا أستحق فكرةً أنانيّةً مروّعةً حتى؟

اهتزّ هاتفي، إلا أنها مجرّد رسالة من المكتبة، كنتُ قد تأخّرتُ في تسليم كتبي. قلتُ:

- هل ما زلتِ هنا؟

لكن هاتفي رنّ في نفس اللحظة التي ضغطتُ فيها على خيار الإرسال.

أوتوم:

مكتبة ياسمين

- لا أستطيع التوقّف عن التّفكير فيما لو حصل مكروهٌ أعظم اليوم... مثل... ماذا لو مُتَّ في المياه، على ذلك الشاطئ الغبيّ؟ لو كان ذلك الشجار آخر لحظاتنا معًا. كم كان ذلك ليكون مروّعًا؟

أردتُ أن أقول إنني أنا أعرف بالضبط كم هو مروِّع، لأنّ تلك المشاعر راودتني حينها. فمشكلتي مع كيو، وتلك المعركة على ذلك الشاطئ الغبي كانت آخر لحظاتنا معًا. نقرتُ على رمز تعبيري باكٍ، لكنّني حذفتُه.

قلتُ:

- لا أريد أن أفكّر في ذلك.
- ولا أنا، لكن هذا كان كلّ ما فكّرت فيه، فشكرًا لهذا الفتى. مغزى الحكاية: لا تكذب عليّ مجدّدًا! نهائيًّا!
- لن أفعل نهائيًّا. (باستثناء الكذبة المدمّرة التي قلتها لك للتو بخصوص كيو. لكن حقًّا هل كان لدي خيارٌ آخر!) هل تريدين أن تأتي قريبًا؟
- أنا سعيدة، لأنّك بخير، ولكن... بصراحة لا أريد أن أراك.

وكانت محقّة في ذلك.

- أنا آسف للغاية يا أوتوم.

وانتظرتُ ردَّها، لكنه لم يأتِ.

وصلتني عشرات الرسائل من ويت، ومن بعض الشّباب الذين كانوا على الشاطئ، كانوا يسألون عمّا إذا كان كيو بخير.

الأخبار التي ستصل إلى الجميع هي أنّ كيو على قيد الحياة وبصحّة جيّدة، وبانتظار أن يسمح له الأطباء بالخروج من المستشفى، وبعدها سيعود إلى المنزل، كما أوضَح السيّد أوكلاهوما.

قلّبتُ سجلّ رسائلي مع ويت؛ رسائلها الأولى كانت محمومة وقلقة، ولكن بعد ذلك أصبحت نبرة كلامها مثل ثمانينيّات القرن الماضي تمامًا. وكما قال السيّد أوكلاهوما، فقد كانت على دِراية بما حدث، ولم تستطِع أن تتصوّره، أو أن تصدّق شيئًا. عبّرَت عن شعورها بالسّوء، لأنّها ارتاحت، لأنّني كنت بخير بينما لم يكن كيو كذلك.

ويت: «أنا أنتظر. لست مضطرًا للتحدّث الليلة، لكنني سأكون هنا، في انتظارك».

مكتبة ياسمين

67

بعد ستة أسابيع من الجِنازة

ظلَّت الأزهار ترِدُ مدّة ستّة أسابيع. كومة من زهور الأقحوان وزنابق النمر، وكومة من أزهار عباد الشمس، والأزهار البريّة، وباقة من الورود مع الأشواك، في حالات متنوِّعة من التلَف.. التلَفُ مسيرةٌ بطيئة نهايتها النسيان.

بعد شهر من دفن أمّي وأبي، أضاف مجلسُ المدينة صفوفًا من الأضواء السّاطعة البريق عند المنعطف، ووضعوا لافتة كبيرة، مكتوبٌ عليها: «منطقة حوادث خطرة».

مما بدا غريبًا، صحيح؟ أمَا كان عليهم إضافة «توخّوا الحذر»؟ أو «أبطئوا»؟ أو على الأقل «يرجى القيادة بحذر» بكل بساطة؟

بدلاً من ذلك، كانت اللافتة أشبه بنقرة مؤدّبة على الكتف، كمَن يقول: «إحم... أرى أنّك مشغول بالقيادة المتهوِّرة، وبتعريض حياة الآخرين للخطر، لكن اسمع، لأخذ العلِم وحسب، ونرجو أن تفعل ما تشاء بكلّ الأحوال، ولكن...»، وهمسًا يقولون: «حصل عددٌ كبيرٌ من الحوادث هنا، لذا...»، فيقول السائق: «أوه يا للهول! شكرًا لإعلامي. هل يجب أن أبطئ؟ أن أتوخّى الحذر؟»، فيجيب الصوت: «الأمر متروك لك تمامًا. نحن نخوّلك حتى تستخدم منطقكَ السّليم».

كما صنعت المدينة لوحةً؛ مستطيلًا عموديًّا من خشب البلّوط بِلوحٍ برونزيٍّ شديد اللّمعان، مثل تلك الموجودة في علبة عرض مدرستنا التي تقول: بطولة الكرة اللينة في مقاطعة تشارلز، الشعبة الثانية. باستثناء أنّ تلك كانت بحجم لافتة مرور التوقف، ومُثبَّتة إلى الشجرة الأقرب إلى الطّريق.

كُتِب بخطٍّ مُزخرف:

«جيدا وآندريه آندرسون.

لَن ننسى».

سألتُ ويت:

مكتبة ياسمين

- لن ننسى ماذا؟! أنّهما رحلا؟ أنّ جسد أبي رُمي في مكان ما بين تلك الأدغال؟ بالإضافة إلى أن ذلك كان غريبًا وباعِثًا للسّخرية، فمن يخلّد مأساةً بلوحة شجرة؟

قالت:

- أنت تُبالغ، هذه بادِرة لطيفة، وهذا ما يلجأ إليه النّاس عندما لا يكون هناك ما يفعلونه ليساعدوا بحقّ؛ المبادرات اللطيفة.

بعد ليلتين من تثبيت عمال المدينة لها، تسللت إليها ونزعتُها، مما خلَّفَ خدوشًا في الشّجرة، بالإضافة إلى ثقوب حيث غرسوا البراغي. كنت لا أزال أعمل على فكِّ المسمار الرابع عندما اِلتوَت اللّوحة. رميت المسامير في الغابة، وكدتُ أُلحقُها باللوحة. لست متأكّدًا ممّا منعني من فعل ذلك، لكن لم يكن هناك أيّ طريقة للاحتفاظ بها في المنزل، رميتها في سلّة المهملات. وبعدها، حين أتى شخص ما من المدينة إلى المنزل للاعتذار عن التخريب وطمأنتِنا بأنه ستُركَّب لوحة بديلة، قلت له:

- شكرًا، ما من داعٍ.

- متأكّد؟

قال، وعيناه تنظران خلفي، بانتظار التأكيد من شخص بالغ، لكن ويت لم تكن في المنزل. أخبرتُه أننا متأكدون.

لأنّ أمي وأبي توفّيا هناك.. عند المنعطف بجانب تلك الغابة. لم يفوزا ببطولة!

مكتبة ياسمين

66

تبقّى 24–27 يومًا تقريبًا من حياة كيو

قالت ويت منفعلة:

- أهلًا بعودتك إلى أرض الأحياء.

- يا لهُ من اختيار مُريع للكلمات!

فركتُ عينيّ:

- كم من الوقت بقيتُ في الخارج؟

لكنني لم أسمع إجابتها.

دارَت بي غرفتي مثل أرجوحة مُتحرّكة، وتزايَد الألم في رأسي.

لم ينفع إغلاق عينيّ للتخلُّص من الألم، لكنه أبطأ الدوران. غلبَني إرهاق شديد، وبَدا التثاؤب عملًا شاقًا.

- ويت، آسف... أنا نعِسٌ للغاية... أنا...

65

«الأرض إلى جمال. الأرض إلى جمال، حوِّل؟»

أصبحَت حبوب فطوري عصيدة رقائق رسميًّا. بالكاد تذكرتُ دخولي إلى المطبخ. كان من الواضح أنّني فتحت الثلاجة، وأخرجتُ وعاءً وملعقة، إلا أنّني لم أستطِع أن أعرف كيف وصلت إلى هناك أو متى، كأن نصل إلى وجهتنا فجأةً دون أن نذكُر قيادة السيارة إليها. كان شعورًا مشابهًا للاستيقاظ في منتصف حلم حيث نضطرُّ لتلمّس أنفنا بعد أن كان الزومبي يلتهمونه للتو، أو أن ننظر من النافذة، لأنّ نيزكًا قد هدم المرأب!

- جمال، مرحبًا، (هزَّت ويت ذراعي) مرحبًا يا رجل، هل ما زلت واعيًا؟

حاولت «ويت» إخفاء قلقها بابتسامة، لكنها لم تكن ماهرة في إخفاء مشاعرها. أحب أن أمازحها بأنّها ترتدي أزياءً عصريةً حيث تُعلّق المشاعر على أكمامها وطاقمها.

مكتبة ياسمين

هززتُ رأسي:

- هاه؟ بالتّأكيد.. ماذا؟

- لم أكن أعرف أنك تفضّل حبوب الفطور متشرّبة بالحليب. كيف وجدتَها؟

غرفتُ من العصيدة البنيّة بالملعقة، وابتلعتُها، ولعقتُ شفتي:

- في الواقع، إنّها بحاجة إلى مزيد من البلل، (أكلتُ لقمة أخرى) نعم، تحتاج المزيد من البلل بالتّأكيد.

ضحكنا، مما ذكّرني على الفور بأن جمجمتي لا تزال تكرهني. دلّكتُ صدغي:

- لماذا تنظرين إليَّ بهذه الطريقة؟!

عبست ويت:

- تقصد مثل شخصٍ شاهد صديقه المقرّب يموت الليلة الماضية؟ هل هذه الطريقة التي أنظر إليك بها؟

أجبت:

- نجحتِ في ذلك.

وقبل أن أتمكن من تكرار كلامي حول كم أنا نعِسٌ، مشَت نحوي حول الطاولة مشية النّساء في الثلث الأخير من الحمل؛ غير قادرةٍ على لف ذراعيها حولي، لأنّ طفلًا ينمو بداخلها، لكنها حاولت على أيّ حال. اكتفَت بعناق جانبيّ حارّ ثم قالت:

- اسمع يا جاي، أشعر بالسوء تجاه ما حصل لكيو، وتجاه كلّ ما حصل. لا أعرف من أين أبدأ، لكن...

ضغطتُ على كتفها:

- لا تغضبي، ولكن هل يمكننا تأجيلُ هذا؟

- تتشبّه بوالدِنا؟

هززتُ كتفي:

- والدُنا كان مَلِك المحادثات المؤجّلة.

- نعم، وكلانا أحبَّ ذلك. أبي، هل يمكنني الذهاب إلى السينما مع كارلا؟

قلّدتُ صوت أبي:

مكتبة ياسمين

- سأخبرك لاحقًا يا ويتني.

- أعمق. كان صوت والدنا أعمق بكثير. يكاد يكون صادرًا عن حلقه وحسب.

- ماذا عن هذا؟

- أفضل، لكن أعمق.

- هذا أفضل ما بوسعي يا ويت.

- حسنًا.. (تنهدَت) يبدأ الفيلم في غضون ساعتين.

- ساعتين! كان عليكِ أن تخبريني قبل أربع ساعات. تعرفين أنني أكره أن أستعجِل!

قالت ويت:

- ما كنا لنستطيع الحديث عن الليلة الماضية لو كان والدنا هنا، لأنّنا كنّا ما زلنا نتحدّث عن أشياء جرَت منذ عامين.

وكانت على حق. اعتدنا أن نفعل هذا أحيانًا، نتحدّثُ عن والدينا، ونطْلقُ دعابات حولهما، كما كنّا نتلاطف نحن الأربعة فيما بيننا، إلا أنّ ذلك بدا غريبًا حينها. حياتنا الطبيعيّة كانت قد انتُهِكَت مجدّدًا.

- أعلم أنّ هناك الكثير لنتحدّث عنه يا ويت، وأعلم أني سأتحدّث عن موضوع الليلة الماضية لبقيّة حياتي، لكن كلّ ما أريده الآن هو أن أجلس هنا، وأن أتناول حبوب الفطور، وأتسكّع مع أختي كأنّه صباح عادي. هل يمكننا فعل ذلك من فضلك؟

- حسنًا، أفهمُك، لكنني أعتقد أنّه علينا أن...

- أرجوكِ يا ويت.

- لا يمكننا مواصلة إخفاء القذارة تحت السجاد يا جمال. لا يمكننا ترك المشاكل تتفاقم في الداخل. تذكّر ما قاله د. أوشن: «إذا كُنّا نريد أن نشفى، فعلينا أن...»

- أعرف. لا أؤجِّل الأمر إلى الأبد، مؤقتًا فقط.

تنهّدَت، وعرفتُ ماذا ستقول:

- تركُك للمدرسة أمرٌ، وإخفاءُ هذا عنّي أمرٌ مختلفٌ تمامًا.

مكتبة ياسمين

- حقًّا؟ تريدين أن ترمي عليَّ هذا العبء الآن؟
- أنت من يرمي عليَّ الأعباء منذ عامين يا جمال!
- ألا تستوعبين؟ من المحتمل أن أموت وأنا أصعد تلك السلالم، أو في الحمام. ماذا لو... ماذا لو أنّك... (لكنني لم أستطع أن أقولها. وبصراحة، ما كنت لأستطيع متابعة حياتي بعدها) ما فائدة المدرسة يا ويت؟ ما فائدة الرياضيات أو علم الأحياء أو أيّ من هذا؟!
- جمال، رغم كلّ مشاعر الوحدة والمشاكل الشخصيّة التي سبّبها فقدان أمي وأبي بالنسبة لك، بالنسبة لي، لسنا أول من يواجه المصاعب، ولسنا الأخيرَيْن. كما أنّك على حق، قد لا تحتاج إلى حساب التفاضل والتكامل، لكن الحياة لا تُبنَى بالأشياء التي تريدها فقط. وبالتأكيد لا يمكنك استخدام موت والدَينا كذريعة لتدمير حياتك. إذا كنت تريد الرسوب في المدرسة الثانويّة، افعل ذلك بنفسك. إذا كنت تريد اتخاذ خيارات سيّئة، فتحمّل أنت مسئوليّتها، لا تحمّلهما إيّاها. لا تُسِئ إلى ذِكراهما!

وودتُ لو أخرج من ذلك المطبخ، وأتسلّق أعلى جبل، وأصرخ شاتمًا بكل اللعنات التي يمكنني التفكير فيها، وأبتكر لعناتٍ جديدة عندما تنفد تلك حتى يتعب صوتي، إلا أنّ الحياة لا تتمحور حول ما أريده حسب ما سمعتُ.

أمسكَت ويت يدي، ونزلَت إلى الكرسي بجانبي. لا أعرف كم دقيقةً مرَّت قبل أن يتكلم أيٌّ منّا مجدّدًا! أخرجتُ هاتفي، وتنقّلتُ بين عدة تطبيقات، محاوِلًا التّظاهر بأنّني غير منزعج، دون فائدة.

- أنجيليس ركبَ سيارته حالما أخبرتُه بما حدث.

تقوّس حاجبي:

- مهلًا، ماذا؟! لكنّه أسبوع الامتحانات النهائية، لا يمكنه أن.. إنه لا يعرف كيو!
- لا، لكنه يعرفك!

كان من السهل تصوُّر أنجيليس، وهو يركض إلى سيارته السيدان القديمة، ويقودها من شيكاغو إلى أوهايو، رغم أنّني لا أعرف الطريق.

- أعني، فهمت. وهذا تصرُّف لطيف فعلًا، ولكنه ليس مضطرًّا لفعلِه.
- أوه! أنت قلق بشأن غياب شخصٍ ما عن دراستِه؟

مكتبة ياسمين

حاولتُ ألا أضحك، لكن النظرة التي اعتلَت وجه ويت كانت شبيهة بنظرة أمي عندما كانت توبِّخُنا. ضحك كِلانا.

- لا تظنّ أنّنا قد انتهينا من الأمر لمجرَّد أنني أضحك. سنقابِل مستشارك غدًا.

- اللعنة! غدًا؟ ألا يمكننا تأجيل مقابلتِه حتى الأسبوع المقبل؟

لكن ويت رمقتني بنظرة مختلفة؛ نظرةٍ لا تشبه أحدًا سواها، فسكتُّ.

- سيركن أنجيليس سيّارته في ممرّنا في أيّة دقيقة من الآن إذًا؟

- لا، طلبتُ منه أن يعود أدراجَه. لقد استاءَ، لكنه يعلم أنني على حق.

قلتُ:

- هذا جيّد. فأنا أحبّه، لكن تغيّبه عن امتحاناته النهائيّة بعد كلّ ما ضحيّتما به ليتمكّن من إنهاء تعليمه... هذا غير منطقيّ!

أومأت ويت برأسها موافقةً:

- قلتُ له: «أنجيليس، أنا أحبك وأقدّر دعمك لي ولجمال، لكنني أريدك أن تبقى في نورث وسترن مدّة أسبوع آخر، وبعدها يمكنك أن تأتي، وتجعل أخي يضحك وتخنقني، اتفقنا؟».

أعادتني تلك الكلمة: «تخنقني»، إلى الشاطئ، وإلى صوت أوتوم الحادّ كشفرة، وإلى الألم الحيّ والعابر في وجه كيو، مثل وخزة إبرة.

- إنه رجل جيّد.

- صحيح، إنّه الأفضل، ولعلّه كان بإمكانه تبرير غيابه عن الامتحان، لعلّه كان عليَّ السّماح له بالمجيء، لكنه... يُقدِّم الكثير بالفعل.

- لقد كرهتُ كل أحبّائك باستثنائه. بجديّة، إنّه رائع لدرجة أنّني أحتاج أن أمنع نفسي عن سؤاله عمّا يعجبه فيك!

ضحكتُ.

لكمَت ويت ذراعي:

- أوه! صدّقني، لقد طرحتُ على أوتوم ذات السّؤال.

سماع اسم أوتوم كان بمنزلة لكمة أخرى شعرتُ بها بداخلي. كدتُ أفقدها على ذلك الشاطئ.

قلتُ:

مكتبة ياسمين

- مهما يكن.

استقمتُ في جلوسي، ورتّبتُ مقدّمة قميصي، واتّخذتُ وضعيّة كأنّني في منتصف تصوير الغلاف، وأضفتُ:

- أعتقد أنّ ما يعجبها فيَّ واضح للغاية.

- رأس كبير بشكل غير طبيعيّ؟ ميل لتخريب نهايات الدعابات؟ أنك ترفض استخدام الأطباق، ولكنك تحتاج أربعًا وسبعين كأسًا كل يوم؟

- حسنًا، حسنًا، فهمت -هززتُ كتفي- أظنّ أنّ كلينا محظوظ جدًّا.

أضافت ويت:

- كما أنّنا غير محظوظيْن إطلاقًا.

وما كنتُ لأجد كلمات أصدَق.

- يركل هذا الطفل بطريقة تجعلني أقسم أنه سيكون نجمًا على أرض الملعب!

- أتمنّى ذلك. أحتاج أن يشرح لي أحدٌ مبادئ كرة القدم.

تقلّص وجه ويت:

- لقد لعبتُ خلال سنواتي الأربعة كلّها في المدرسة الثانويّة، وحضرتَ مبارياتي، لكنك ما زلت لا تفهمها؟!

- صحيح.

هزّت ويت رأسها:

- أحيانًا تكون أغبى ذكيٍّ على قيد الحياة.

ضحك كلانا، ممّا ولّد شعورًا جيّدًا. لا، لم يكن جيّدًا لدرجة تجعلني أرتاح بشأن مشكلتي مع كيو بالطبع، لكنّها كانت استراحة قصيرة، عطلة مؤقّتة.

- كما أودّ أن أُعيد إخراج ملف معارضتي الشديدة لقرارك أنت وأنجيليس بعدم معرفة جنس المولود. هذا يزعجني فعلًا! بالإضافة إلى وجود إيجابيّات واضحة لمعرفتنا، فعلى سبيل المثال، كان من الممكن أن أدهن الحضانة.

لكمتني مرةً أخرى:

- ما علاقة جنس المولود بلون الطلاء؟!

مكتبة ياسمين

أملتُ رأسي:

- محقّة، إنه خطئي.

فركَت بطنها:

- أقسم أنّني أرى وجه الطفل يحدّق إلى وجهي أحيانًا، ويداه الصغيرتان تضغطان نحو الخارج. من الغريب أنّه باستطاعة البشر، النساء، احتواء الحياة. هذا جميل بشكل غريب. وأعرف أنّ النهاية تعِد بألم لا يوصف؛ ألمٍ لن يفهمه الرجال أبدًا، لكن النساء يواصلن فعل ذلك... يا للروعة!

موعد ولادة ويت كان بعد أسبوعين فقط. أخبرتني أنها كانت قد حدّدت موعدًا سابقًا لإجراء ولادة قيصريّة في الأسبوع التالي، في حال لم تحدث الولادة الطبيعيّة. ما يعني أنّه من المحتمل أن يولد الطفل في يوم وفاة كيو الثانية. ماذا يعني أن يتزامن عيد ميلاد ابنة أو ابن أختي إلى الأبد مع ذكرى الوفاة الثانية لصديقي السابق؟

مطّت ويت ذراعيها:

- أعترف أنّ الفضول تملّكني في البداية، لكن الآن... أحبّه أو أحبّها فعلًا أكثر ممّا أستطيع أن أشرح.

- لم أكن أعرف أنه موجود بالفعل، لكنك تملكينه. تألُّق الحمل.

- هل تتسكّع حول الكثير من الحوامل؟

- أقسم أنّك متألّقة.

- توقّف عن ذلك.

- ستكونين أفضل أمٍّ على الإطلاق.

أخفضَت بصرها، وقلّبت كوب قهوتها في الخمسة سنتيمترات بين راحتيها:

- ليس الأفضل. كان هناك واحدة من هذا النوع فقط.

قلتُ:

- توقّفي أنتِ عن ذلك.

جلسنا هناك، صامتيْن، وتركنا ذكرى والدَينا تغمرنا. اعتدنا أن نقاومها ونُبعدها. تناوَب الانهزام علينا؛ كنا نبحث في الخزانات، وتستحوذ علينا فجأة الرغبة في تناول وجبات خفيفة من الفاكهة، أو الكاجو، أو أيّ شيء قادرٍ

مكتبة ياسمين

على صَرْف انتباهنا، وعندما ننتهي من الأشياء التي نستطيع فتحها، عندما لا نجد سوى القنوات الدمعيّة، كنا ننجرف بعيدًا منتحبيْن، لكن الآن، صرنا نترك الأشباح تفعل ما تريد غالبًا.

صار المنزل بأكمله كأنّه مرحلة زمنيّة ضبابيّة من حياتهما، حلقة مستمرّة من خطوط مبهمة تحرّكهما، وهما يمشيان على الأرضية، يسيران في الطابق العلوي، يفتحان الأبواب، يرتميان على الأريكة، ينظفان أسنانهما؛ أضحَى أمي وأبي حِرقًا في ذاكرتي، مثل شرائط الأفلام.

كيف يمكنني أن أحلق ذقني دون أن يظهر أبي بجانبي، ويوضّح لي كيفيّة تحريك الشّفرة دون أن أُجرَح؟ كيف يمكنني الجلوس على هذه الطّاولة دون أن أرى أمي تُقلِّب الأخبار على جهازها اللوحي، وكوب عصير الجريب فروت يحوي أحمر شفاهٍ أكثر من شفتيها؟ لماذا كانت تفعل ذلك؛ تضع مكياجها أوّلًا؟ لماذا لم تنتظر؟ لماذا لم ينتظر أبي؟ لو امتنع عن الضغط على الفرامل لخمس ثوانٍ أخرى كان ليظلّ كلّ شيء على ما يرام.

كنت أتساءل إن كان سيأتي يومٌ تعتقني فيه الذكريات، لكنني أعرف الآن أنّ بعض الذّكريات تبقى حاضرة إلى الأبد. ذكريات تتّحِد بوجودك. لم يحُل بيني وبين أختي سوى الارتفاع، لذلك انحنيت، ودفنتُ وجهي في كتفها القطنيّ، فأمسكت يداها مؤخرة رأسي حالًا. تشبّثنا ببعضنا بعضًا، كأنّ المطبخ سفحُ جبلٍ نتدلّى على حافة هاويتِه، وإذا أفلتنا بعضنا بعضًا... لم يكن ذلك الاحتمال مُتاحًا!

قالت ويت بصوتٍ خافت في أذني:

- لقد سئمت للغاية من رحيل الجميع.

قلتُ:

- أعرف. أنا أيضًا.

- أريد أن أكون والدةً جيّدة، لكن مهما أحاول، مهما أتمنَّ العكس، فأنا لست أبي.. لستُ أمي.

- لا.. أنتِ موجودة هنا.

مكتبة ياسمين

تزلّج هاتفي فوق جزيرة المطبخ.

- جمال؟ هل أنت مستيقظ؟

لو لم أكن مستيقظًا، كنت لأستيقظ الآن. لماذا يطرح النّاس هذا السّؤال؟!

- نعم، سيد أكلاهوما. أستمتع بوعاء من الحليب المُنكَّه وحسب. ما الخطب؟

- استرخِ. كل شيء سيكون على ما يرام.

إلا أن الوقفة الطويلة التي تلَت ذلك بدَت متعارضة مع طمأنتِه. ومن ثمّ، هل أنا الوحيد الذي يكره أن يُطلب منه الاسترخاء؟ في تاريخ الإنسان العاقل، لم يُطلب من أيّ شخص الاسترخاء، فاسترخى بعدها فعلًا، بالإضافة إلى أنّ ذلك متعالٍ، أليس كذلك؟

- حصلَت تطوّرات جديدة.

أمكنني أن أشعر بالسيد أوكلاهوما يزِن كلماته؛ يُفكِّر في ما يجب أن يقوله، وكيفيّة قوله، وبأية صياغة، مثل آلة بيع تلقائيّ تُدعى «كيف لا تثير ذعر الناس في مواقف مثيرة للذعر كُليًّا؟!».

- ما هي؟

- كما أوضحتُ خلال زيارتك، كنّا بحاجة إلى إرجاع ذاكرة كيو.

انتظرَ منّي الإقرار بتلك الحقيقة.

- حسنًا.. بالتأكيد أذكُر.

- هدفنا الأوّلي لإعادة التّعيين لم يعد قابلًا للتّطبيق. نحن بحاجة إلى إرجاع ذاكرة كيو خلفًا أكثر بقليل.

- لا أفهم! أكثر بكم؟

قال السيّد أوكلاهوما:

- سوف يتذكّر الحفل، لكنّه لن يتذكّر شيئًا حول الشاطئ.

- مهلًا، هل هذا التغيير...

قاطعني السيّد أوكلاهوما:

مكتبة ياسمين

- هذا يعني... إنعاش كوينسي قد يكون... حافلًا بالأحداث أكثر مما توقّعنا.

- ماذا تقصد بقولك «حافلًا بالأحداث؟!».

- هذا يعني أنّنا نودّ أن تكون حاضرًا عندما يستيقظ.

- أنا؟! ماذا عن السيّدة بارانتيس؟

- السيّدة بارانتيس تمرّ بوقت عصيب هذا الصباح. نحتاجك هنا يا جمال. هل باستطاعتك فعل هذا؟

لماذا بدا لي السيّد أوكلاهوما من النّوع الذي يعتذر عن موعد الطبيب بسبب مرضه؟!

- سآتي حالًا.

- ويتني معك الآن، أليس كذلك؟

ما دخل هذا بأيّ شيء؟!

- ممم نعم، لماذا؟

- لعلّه من الأفضل أن أتحدّث معها، وأتأكّد من أنّها لا تمانع أن...

كان دوري في المقاطعة قد حان:

- لا بأس. ما من داعٍ لهذا، لكنني لا أفهم ما الذي تريدونني أن أفعله تمامًا؟

- لا شيء يا جمال. حضورك سيساعد في المحافظة على استقرار الإنعاش فقط. تشير جميع نقاط البيانات لدينا إلى أنّك شخصيّة مهمّة في حياة كوينسي. عندما يراك، ويرى والدته، سوف يترسّخ وعيُه بقوّة في واقعنا، فقد كنتَ صديقه المقرّب.

«كنتَ!»، اللعنة، كيف عرف أنه عليه استخدام الفعل الماضي؟! إلا أنني تذكّرتُ الاثني عشر ألف سؤال شخصيّ التي طُرحت عليَّ، تركزت معظمُها على علاقتي مع كيو؛ فمن البديهيّ أن يعرف.

- أنا قادم.

- إلى أين؟

مكتبة ياسمين

سألَت ويت، وأنا أضع هاتفي في جيبي. تبعَتني إلى الردهة، وراقبتني وأنا أغلق سحّاب سترتي.

أجبتُ:

- إنعاش كيو.

- مهلًا، لا أفهم. ظننتُ أن...

- نعم، هذا ما ظننتُه أيضًا، لكن أعتقد أنه بعد كلّ ما حدث، لا ينبغي أن يفاجئنا شيء.

- ماذا يفترض أن تفعل إذًا؟ أن تكتفي بالجلوس هناك حتى...

- يفتح عينيه. نعم.

فتحتُ الباب الأمامي:

- سأتّصل بكِ بعد قليل.

سألَت ويت:

- ماذا تقول لشخص ذاهبٍ نحو إنعاش؟ «حظًّا طيّبًا»؟

أومأتُ موافقًا:

- سأكتفي بهذا.

كنتُ على وشك الوصول إلى سيّارة أبي عندما بدأ صدري يلتهِب. مجرّد فكرة قيادة هذه السيّارة جعلتني أرغب بالتقيّؤ مجدّدًا، إنّها تفتِل مليون خنجرٍ في قلبي. لعلّ محرّكها لا يعمل! إلا أنّني أعرف أنه سيفعل.

تقودُها ويت من وقت لآخر لهذا السبب بالذات، حتى أنها أخذتها للصيانة منذ مدّة.

«إنها متوافرة متى ما أصبحت جاهزًا»، قالت مراتٍ أكثر مما يمكنني أن أذكر، ولم ترمش حتى عندما رفضتُ المفاتيح، أو حين طلبتُ منها أن تُقلّني مرّةً تلو الأخرى، كما لو أنّها لا تملك ألف التزام آخر. فُتح الباب الأمامي.

مشَت ويت متأرجحة:

- هل أنت بخير؟

استدرتُ، وأنا أمشي إلى الخلف خارجًا من الممرّ:

- نعم... لا... لست متأكدًا. هل أنا بخير؟

مكتبة ياسمين

- أنت تقود سيارة وا... ثم استدركَت، لعلّها خشيَت من أن تنحس الأمر.

هززتُ كتفي:

- المعجزات تحدث في كل مكان.

انزلقتُ في المقعد، وغمرني الحنين. كانت لها رائحة أبي. كم مرّة جلس حيث أجلس الآن؟ لم أشأ أن أعدّل مرآة الرؤية الخلفيّة، وكان ذلك سخيفًا، لأنّ ويت قادتها، من المحتمل أن تكون قد عدّلتها، لكن مع هذا لم أشأ أن أغيّر أيّ شيء. جلّ ما أردتُه هو أن أجلس هناك للحظة، لكن اللحظات كانت الشيء الوحيد الذي لم أملِكه. ضغطتُ على زرّ التشغيل، هدَر المحرّك مُعلنًا عن إحيائه. كانت ويت لا تزال تسير نحوي، بالقرب من نافذتي، إنّما بعيدًا بما يكفي حتى أقود السيارة خلفًا دون أن أخاف إيذاءها.

كان عليَّ أن أرفع قدمي عن الفرامل وحسب. كان عليَّ أن... وجدتُ نفسي فجأةً في مقعد الرّاكب، ونظرتُ إلى يساري فرأيتُ أمي، مدّت يدها لتقرص خدّي بتلك الطريقة التي لا أطيقُها، لكنّها كانت تبتسم تلك الابتسامة التي تقول: «أحبك بغض النظر عمّا إذا كنت قد قتلت شخصًا، وما كنتُ لأتهاون في شيء كهذا عادةً، لكنني سألتمسُ لك ألف عُذرٍ بالتأكيد، وسأُنصِت إليك دون شكٍّ قبل التّسرع في الحكم». ومن يمكنه مقاومة تلك الابتسامة؟

قالت أمي:

- عزيزي جمال، أنا فخورة بك، لأنّك تفعل هذا.. تفعل الصواب.

- ماما، لا أعرف إذا... ماذا لو لم أستطِع...

أومأَت برأسها بلطف، كما تفعل عندما تقيّم موقفًا، عندما تمنح الشخص المُقابل كلّ انتباهها، وتوجّه طاقتها نحو تلك اللحظة بالتّحديد معه:

- صغيري، لقد خُلِقت من أجل لحظات كهذه.. ألا ترى؟

«ماما»، قلتُ بصوت خافِت، ثم تحرّكَت يدي إلى يدها التي كانت لا تزال تقرص خدي، إلا أن يدي مرّت من خلال يديها، مثل دخان الثعبانيّ الذي يلتفّ متلاشيًا عندما تطفئ شمعة، استحالَت إلى سراب.

«ماما»، ناديتُها، لكنها ذهبت، وعدتُ إلى مقعد السائق، بيديّ المرتجفتين على عجلة القيادة.

مكتبة ياسمين

قال أبي من مقعد الرّاكب: «هيّا يا جاي. تمالك نفسَك. كيو بحاجتك. حرِّر الفرامل وحسب. يا رجلّ، كلّ ما عليك هو أن ترفع كعبك وأصابع قدمك. كلّ ما... باستطاعتك فعلُها يا جمال».

والآن ما عدتُ أستطيع إيقاف البكاء. لم أستطِع أن أحمل نفسي على النّظر إليه. ليس هو الآخر.. ليس لمشاهدته يذوب.. يتلاشى في الفراغ.

قال ويده صارت على الرّاديو: «جمال، اسمع، أعرف أنّ والدتك تقول إنّه لا ينبغي الاستماع إلى الموسيقى أثناء تعلّم القيادة، لكنّها تبعث على الاسترخاء في بعض الأحيان. يجب أن تركّز على الطريق دون الإفراط في التّفكير والمعاوضة، اتّفقنا؟ من المهمّ ألّا تبالغ في ردود أفعالك، اتفقنا يا بُنيّ؟».

قررتُ ألا أنظر.. لم أستطع.

غطّت يده الثّقيلة يدي: «ستكون بخير يا بُنيّ، ارفع قدمك فقط.. اتفقنا؟».

انتهى إعلان تجاري، وانتشرَت أغنية في السيارة.

- جمال، لماذا لا تنظر إليَّ يا بُنيّ؟

- لستَ موجودًا يا أبي. هذا ليس أنت.

- ما الذي تتحدّث عنه؟ بالطّبع هذا أنا. من عساه يكون سواي؟!

- أبي، سأتوقّف عن التّحدّث إليك. من فضلك، توقّف عن التّحدث إليَّ. لا أستطيع... لا أستطيع أن أفعل هذا... رجاءً.. ليس الآن.

- فقط انظر إليَّ، يا بنيّ. انظر.. مرةً واحدة...

واستسلمتُ، فابتسم ابتسامةً عريضةً بما يكفي لأتمكّن من رؤية ضرسه الذهبي، في الصفّ السّفلي، على الجانب الأيمن.. يقول: «هل رأيت؟ الأمر ليس بهذه الصّعوبة، صحيح؟ ليس الأمر كذلك (يبدأ في التلاشي... وميض) الأمر ليس... (بدأ يتلاشى وامضًا) ليس... لــلــلــليس...». ابتسمَ ابتسامة أَعْرَض، ثم أصبح سحابةً باهتةً تتبدّد، حتى لم يبقَ منه سوى أثره، كما لو أنّه استلقى على ورقة، وتتبّعتُ بالقلم قوامه، ثم قصصتُ أطراف الشكل، ثم فرّغتُه من الداخل أيضًا، فلا يتبقّى سوى خيط رفيع هو راحةُ أبي. ثم اختفى ذلك أيضًا.

سقط رأسي على عجلة القيادة، وصدر صوتُ بوقٍ حادٍّ، لكن هذا لا يهمّ، لأنّني لا أستطيع أن أفعل هذا.

لماذا اعتقدت أنّني قادر على فعله.. على فعل أيٍّ من هذا؟

مكتبة ياسمين

ثم تكرّر رنينٌ.. كان الباب الجانبيّ للسائق مفتوحًا، لأنّ ويت وقفت هناك تنظر إليَّ.

قالت:

- لا بأس.

لم أستطع منع جسدي من الارتعاش والارتجاف.

قالت، وهي تخطو خطوة نحوي:

- جاي، سأصحبُك.

حاولتُ أن أقول: «حسنًا.. شكرًا»، لكن عقلي كان لا يزال يحمّل برمجته اللّغوية على ما يبدو، لأنّها تُرجمت إلى تأوه منخفض. انزلقتُ إلى مقعد الراكب. في الواقع، لويتُ جسدي نحوه. ارتدَّت السيارة خلفًا، وأنزلتُ النوافذ الأربعة كُلّها. صفعَت الريح كلّ شيء، بينما انزلق الحيّ مُبتعدًا أسرع وأسرع. لأنّني لم أرغب بالتّحدّث عن ذلك، لأنّني أعرف أنّ ويت ستشعر أنها مُلزمة، لأنّني تعبت من التّحدّث إلى الأشباح، لأنّ هذا ما كنّا في طريقنا لفعله.

63

أمسكت السيّدة «بي» المزلاج بيدين راعشتين.

قالت:

- قلتُ لهم ألا يتّصلوا بك، (كان صوتها خافتًا، وعيناها ورديّتين) أنا آسفة يا جمال. كان ينبغي أن تكون في المنزل مع ويت. (نظرَت خلفي): هل هي من في السيارة؟ تعرف أنه مُرحَّب بقدومها.

هززتُ رأسي:

- إنها تشعر بالغثيان، وقالت إنها لا تريد أن يكون رأسها في المرحاض عندما يعود كيو للحياة.

ضحكنا بصعوبة، وتبعتُها إلى المطبخ:

- أعرف أن هذا يبدو جنونًا، ولكن... لست متأكدةً من أنّني أستطيع المشاهدة -ارتعشَت- أعني، أنا ممرضة، لقد رأيت الكثير من الأشياء المخيفة، لكن هذا ابني... ماذا لو تألّم على عكس ما ادّعوا؟ ماذا لو...

مكتبة ياسمين

ماذا لو لم تنجح العمليّة؟ لعلّها غلطة. يجب أن أتراجع عنها. هل فات الأوان على...

- هل لديك بعض الشاي سيّدة «بي»؟

نظرَت إليَّ بأعين واسعة.

ابتسمتُ:

- كانت أمّي تحضر لي الشاي دائمًا عندما أتوتّر أو أخاف. كانت تقول إنه ليس لتهدئة الحلق وحسب، بل لتهدئة الرّوح على حدّ سواء.

حسنًا، لعلّ أمّي لم تقل ذلك بالفعل، لكن أعتقد أنّها كانت لتوافق.

62

لا شيء يُحضِّرُك للحظة التي يفتح فيها صديقك الميت عينيه. لا بدّ أنني غِبت عن ذلك الدّرس في مادّة الصّحة! ورغم تخبُّط والديَّ بشكل مثير للإعجاب أثناء حديث العصافير والنحل[1]، فقد نسيا تمامًا إخباري ماذا يجب فعله عندما يعود صديقك إلى الحياة.

كانت تلك حالي إذًا؛ غير مُستعِدٍّ. وها أنا ذا جالسٌ على كرسيٍّ مكتبيّ، أحدّق إلى صديقي الميّت الرّاقد في سريره الخالي من اللوح الأماميّ، وذراعاه الثخينتان مطويّتان فوق صدره. هناك استيقاظ بعد وفاة شخص ما. وهذا انتظار قبل أن يموت كيو مجدّدًا.

سمعتُ السيّدة «بي» في الطّابق السفليّ تتحرّك في أرجاء المطبخ. لقد استنفدتُ كلّ طرائقي في إقناعها بالبقاء معي في الغرفة، لكنّني وعدتُها في النهاية بأنّني سأكون بخير وحدي، وأنّ كيو سيكون بخير، وأنّني سأستدعيها حين يستيقظ كيو.

قالت بشفتين ترتعشان مثل عصا العرافة:

- لا أستطيع أن أطلب منك فِعل هذا.

- لستِ بحاجة لأن تطلبي.

كنت في منتصف السلّم متّجهًا إلى الطابق العلويّ عندما نادَت اسمي:

---

(1) مصطلح العصافير والنحل يستخدم لترميز حديث التوعية الجنسية.

مكتبة ياسمين

- ماذا حدث بينك وبين كوينسي؟
- ماذا تقصدين؟ (سألتُ، لكنني عرفتُ قصدها).
- لماذا ما عدتما أصدقاء فجأةً؟ كان يرفض التحدّث عن ذلك!

ابتلعتُ ريقي بصعوبة:

- مع كلّ احترامي، سيّدة بي، إن لم يخبرك كيو، فأشعر أنّه لا ينبغي أن أفعل أنا الآخر.. أعتذر.

حدّقت لوهلة، ثم أدارت رأسها، مثل حارس يسمح لي بعبور نقطة تفتيش.

تذكّرتُ ما قالته السيدة في فيديو المركز: «اطمئنّا، سنراقب الاستيقاظ بأكمله من مسافة آمنة». ماذا لو كنتُ مراقَبًا الآن؟ لم يشرح الفيديو كيف سيراقبوننا. افترضتُ أنّهم وضعوا رقاقةً إلكترونية في دماغ كيو أو شيئًا من هذا القبيل، لكن... ماذا لو كانوا يقصدون المراقبة حرفيًّا، باستخدام الكاميرات والميكروفونات؟ ألقيتُ نظرة سريعة بحثًا عن أدوات تجسّس أو أيّ شيء لا أعرف ماهيَته. كنتُ أعرف غرفة كيو كما أعرف غرفتي. كان باستطاعتي رسمها من مخيّلتي بكل تفاصيلها، بدءًا من ملصقات فرقة «مايتي موت» حفلة ببث مباشر، على الحائط، وانتهاءً بما يحتفظ به في جميع أدراج الخزانة الخمسة. وحتى بعد كل هذا الوقت، لم يتغيّر الكثير. بدا من الواضح أنّ شيئًا لم يكن في غير مكانه، أو مُرتّبًا بشكل مثير للريبة، أو موحيًا بأنّه أداة مراقبة. إنّما من ناحية أخرى، إذا كان بإمكان المركز إحياء الموتى، فلا أعتقد أنّهم سيجدون صعوبةً في التنصّت على غرفة كيو بالخفاء.

وقعَت عيناي على كمبيوتر كيو المحمول. ماذا لو كانوا يراقبونني، ويتنصّتون عليَّ، من خلال كاميرا الكمبيوتر المحمول؟

ارتعشَت عين كيو اليسرى، أو لعلّني تخيّلتُ ذلك. قد تكون عيني هي التي ارتعشَت. صار من الصّعب معرفة ما الحقيقي. رفرفَت عينا كيو دون أن تنفتحا، مثل إشعال ولّاعة لا تحافظ على شعلتها. جلس، وأدار رأسه نحوي، وعيناه ما زالتا مغلقتين، وفمه ينفتح ويُغلق، دون أن يُصدِر صوتًا. كان أشبه بمشاهدة وحش فرانكشتاين يستيقظ مع صوت مكتوم. ثم سقط كيو فجأةً خلفًا، ضاربًا رأسه على وسادته، وهوَت ذراعاه على كِلا الجانبين، وارتعشَت

مكتبة ياسمين

أصابعه العشرة. حدث هذا عدّة مرّات؛ نهوض وسقوط، كأنّه يقوم بتثبيت تحديث جديد، حيث يُعاد التشغيل بعد كلّ دورة.

تذكّرتُ جملةً أخرى من الفيديو: «من المحتمل أن تكون هناك بدايات مزيّفة. العديد منها. لا تخافا». قالت: «لا تخَف عندما يحاول أقرب أصدقائك المتوفى العودة إلى الحياة متخبّطًا مثل جزازة عشب قديمة!».

عندما حصل ذلك للمرّة الثالثة، لم يظلّ كيو منتصبًا، بل اكتفى بالنّهوض والعودة مثل مصيدة فئران متقهقرة. مذعورًا، وقعتُ عن الكرسي، واصطدمت بمكتبه، فاستيقظ حاسوبه المحمول، مما حمل رمزًا إليَّ، صحيح؟ أو على الأقل نوعًا من سخرية الأقدار.

نهضتُ مستعدًّا لاستئناف تركيزي على روتين كيو السريريّ، لكن المؤشّر على شاشة قفل الكمبيوتر ومض في وجهي، كما لو أنه يحدّثني ويقول: «جرّبني. جرّبني. جرّبني». وتساءلتُ إن كان قد غيّر كلمة السر. ليس أنني كنتُ لأعرف، لأنني لن أُجرّبها. فالتطفُّل على الكمبيوتر المحمول الخاصّ بصديقي المقرّب السّابق، حتى لسبب شبه جيد، يُعد انتهاكًا لخصوصيّته بكلّ الأحوال، وخيانةً أخرى تُضاف إلى القائمة.

نظرتُ إلى كيو بانتظار أن تدبّ فيه الحياة في أيّة دقيقة. إذا استيقظ ورآني... لكن كان عليَّ أن أعرف، لأنّها إن كانت لا تزال JAUNCY19 فهذا يعني شيئًا، أليس كذلك؟

قرّبتُ الكمبيوتر المحمول مني، ويداي تحومان فوق المفاتيح. كان يجب أن أعرف. كتبتُ كلمة السر.. ضغطتُ زرّ الإدخال، أومضَت الشاشة؛ ظهر المتصفّح الذي كان يحوي مئات ألسنة التبويب المفتوحة، لأنّ كيو لا يكَلّ، ولا يملّ، لكن لسان التبويب الحاليّ كان ما جذب انتباهي؛ كان مدوّنة فيديوهات كيو، قرأت الوصف أسفل الفيديو، ولم أستطِع المقاومة... نقرتُ.

مكتبة ياسمين

61

توبروَن

جانسي في الشارع

1.812 مشاهدةً، 192 إعجابًا، 9 عدم إعجاب، ثنائيّ جانسي الكوميدي

الاشتراك: 272 مشتركًا

كوينسي: مرحبًا يا رفاق! لقد عُدنا مع فقرتكم المفضلة الجديدة هنا في جانسي.

جمال: هذا صحيح! حان وقت...

كيو وجاي: جانسي في الشارع!

جاي: الفقرة التي نأخذ فيه جانسي إلى الشارع...

كيو: جاي، لهذا السبب ندعوها جانسي في الشارع. هذا يبدو... تعريفًا للماء بالماء.

جاي: لو تدعُني أُنهي جملتي يا صديقي. الفقرة التي نخرج فيها إلى الشارع، ونطرح على الناس أسئلة حول أشياء لا يعرفون شيئًا على ما يبدو.

المشهد التالي: حديقة تزلّج على الألواح

كيو: مرحبًا يا رجل، هل تمانع إن طرحنا عليك سؤالًا؟

متزلج يبلغ من العمر ستة عشر عامًا: إطلاقًا.. لن تجعلني أبدو غبيًّا أمام الكاميرا، أليس كذلك؟

نظر كيو إلى الكاميرا مباشرةً، وابتسم.

كيو: أعِدك يا رجل، لن نجعلك تبدو غبيًّا أمام الكاميرا.

المتزلج: جيّد.

كيو: حسنًا، تتناول هذه الأسئلة مدى معرفتك بالدستور، حسنًا؟

المتزلج: هذا مثل «برنامج كندريك».

كيو: تمامًا. هل أنت مستعدّ؟

المتزلج: فلنبدأ يا أخي.

كيو: طيّب. سمِّ أية مادّة من موادّ الدّستور.

مكتبة ياسمين

بدا المتزلج في حيرة شديدة.

متزلج: مادّة؟ أنا متأكّد من أنّ الدّستور ليس مثل الجريدة؛ لا يحوي أيّة موادّ، بل قوانين.

صدر صوت صفارّة، وومضَت كلمة «خاطئ» على الشاشة.

نظر كيو إلى الكاميرا التي اقتربَت من وجهه.

المشهد التالي: عربة مثلّجات

جاي: مرحبًا سيّدتي، هل تمانعين أن نطرح عليك سؤالًا حول الدّستور؟

امرأة في الأربعينيات من عمرها تأكل المثلجات: حسنًا؟

جاي: هل بإمكانك تسمية أحد الأفراد المسئولين عن كتابة الدّستور؟

امرأة المثلجات: حسنًا، أعلم أنّ جميعهم رجال بيض.

نظر جاي إلى كيو، ثم التفت إلى المرأة مجدّدًا. نظر جاي خلفًا، وقد حصل على تأكيدٍ خارج الكادر.

جاي: سنعتبره جوابًا صحيحًا!

صدر رنين، وأومضت الشاشة مع كلمة «إجابة صحيحة».

رفع جمال يد امرأة المثلّجات، ورقصت المرأة رقصة انتصار.

امرأة المثلجات: هيّا، ارقص معي. لا تستطيع أن تتركني أرقص وحدي.

نظر جمال إلى الكاميرا، وهزّ كتفيه، ثم انضمّ إلى المرأة، ورقص كلاهما رقصة الرّجل الرّاكض جنبًا إلى جنب.

60

لم أملك وقتًا لأستوعب الأسئلة التي دارت في دماغي عندها، مثل: «لماذا كان كيو يشاهد هذا الفيديو القديم لنا؟»، لأنني شعرتُ بحركة في السرير، لأنّ هناك حركة على السّرير، وعندما استدرتُ، كانت عينا كيو لا تزالان ترمشان، إلا أنّهما كانتا أسرع بعشر مرّات، ثمّ فجأةً، فُتِحتا. انتظرتُ أن تنغلقا مرّة أخرى، لكنّهما لم تفعلا. حدّق كيو إلى السّقف.

يا للهول! رأس كيو... إنه يستدير...!

أدار وجهه مفتوح العينين نحوي.

ماذا ينبغي أن أفعل؟

مكتبة ياسمين

ارتعش جسده، وحملقَت عيناه، وغرق فمه في عبوس قبل أن ينفعل مرتبكًا: «هيه! ماذا تفعل هنا بحقّ الله؟»

لم أعرف كيف أجيب! ليس لأنّني غير قادر، بل لأنّ شيئًا لا يهيِّئُك لرؤية صديقك يعود إلى الحياة. ستكون موجة من العواطف. من الطبيعي تمامًا أن تغمرك المشاعر، لكن هذه ليست موجة! وهذا ليس غمرَ مشاعر! هذه تسونامي وإعصار لعينين تقعان في الحب، وتنجبان خمسة توائم! هذا كلُّ شيء وُجد يومًا، وكلّ ما سيوجد يومًا، مُبتلَعًا من قِبل أمطار غزيرة ورياح عاتية، وأمواج هائلة تجرف كلّ شيء، كلّها تتدافع وتتدافع.

«بجديّة، لماذا أنت في غرفتي، يا رجل، وتحدِّق إلى وجهي أثناء نومي؟ هل أنت أبله يا أخي؟ كم السّاعة؟ هيه! هل دسستَ شيئًا في مشروبي في الحفلة؟ ولماذا لا تجيبني بحقّ الله؟!»

ولم أعرف ماذا أفعل... بيدي.. بوجهي.. بصوتي! وشعرتُ بالامتنان لظلام الغرفة، لأن عينيّ بدأتا بفعل ذلك الشيء الذي تفعله الأعين أحيانًا عندما تعتريها غباشة فجأةً، لكنني لم أهتم بصراحة، لأنّ كيو...

كيو..

أنت... على قيد الحياة يا رجل.

أنت على قيد الحياة!

سألتُه:

- هل أنت على ما يرام؟ هل تشعر بأية مشاكل جسديّة؟
- بخلاف حقيقة أنّك تحدّق إلى وجهي، وكأنّك لا تستطيع أن تقرّر ما بين إنجاب أطفالي أو طعني في حلقي؛ نعم، أنا على أفضل ما يرام.

كان ذلك ليُضحكني عادةً، لكنّ ذلك كان كثيرًا جدًّا. كان كلّ شيء كثيرًا. كلّ شيء، وخاصّة هذا، خطأ. ولذا استجمعتُ قواي، وفعلت أكثر ما أفلح فيه؛ وقفتُ، ابتسمتُ. ثم ركضتُ بأسرع ما أستطيع. كدتُ أصطدم بالسيّدة «بي»، وأنا أفتح باب غرفة كيو، ونادَتني وأنا أهرع نازلًا على السلّم وخارجًا من الباب الأماميّ الزّجاجيّ، ونحو آخر الحيّ، وما كنتُ لأتباطأ، لأنّني لستُ عدّاءً ماهرًا وحسب، بل لديّ طاقة تكفي لأيّام. ركضتُ مُسرِعًا ومثابرًا، ولم أتوقّف قطُّ. لم يكن باستطاعتي أن أتوقّف...

مكتبة ياسمين

59

كنتُ جالسًا في موقف سيّارات فارغ عندما ركَنَت، وأنزلَت النّافذة.

- لم أظنّ أنّك ستأتين.

هزّت كتفيها:

- لم أكن أنوي القدوم. ما زلت غير متأكّدة من ذلك.

بعد أن أنهينا المكالمة، تساءلت كيف ستكون مُقابلتُها؛ ستكون هذه المرّة الأولى منذ حادثة الشاطئ.

اعتادت أن تخرج من السيّارة عندما تراني، وكنّا نتسابق للقاء في منتصف هذا الشارع، وكأنّه تلّة معشوشِبة. اعتادت عيناها الساحرتان أن تشدّاني نحو جسدها لتقضي عليَّ بعدها ذراعاها المفتوحتان، لكن ما عاد شيء كالمعتاد الآن، فمنذ ساعة وحسب، هربتُ من إنعاش كيو.

- إذًا، هل ستركب أم تريد المشي بجانب السيّارة؟!

ربطتُ حزام الأمان:

- أوتوم، أنا...

لكنّها هزّت رأسها، وصمَتنا طوال رحلة العشرين دقيقة في السيارة نحو البحيرة.

خرجَت قبلي، وشاهدتُها تمشي نحو الماء بحزم حتى كدتُ أظنّ أنها ستمشي في الماء، لكنّها توقّفت عند الحافّة. وقفَت هناك، وكأنّها تنتظر منّي أن أنضمّ إليها، أو أن أختفي. ثم انحنَت إلى أسفل، وجمعَت الحجارة عن الرمال المليئة ببقع من العشب، مستخدِمةً أسفل قميصها كسلّة.

خرجتُ وحفرتُ حتى وجدتُ قطعة زجاج لامعة، رفعتُها نحوها، لكنّها مشَت متجاوزة إيّاي، وعادت نحو سيارتها، وأنزلَت كومة حجارتها على غطاء السيّارة مثل المطر على القصدير. راقبتُها وهي تصعد إلى مقدّمة السيّارة، وقد سقطت فردةٌ من صندلها على الأرض. عندما انحنيتُ لألتقطه، ركلَت الفردة الأخرى، لم يكن ذلك مضحكًا، لكنني كدت أضحك. لم يسعني إلا أن أقدّر تفانيها في تذكيري بأنّها لا تحتاجني.

مكتبة ياسمين

جلستُ على السيّارة والحجارة تفصل بيننا. دائمًا ما يكون هذا الجزء من الشاطئ مهجورًا، باستثناء عدّة أطفال عابرين يبحثون عن زجاج البحر أو يطاردون كلبهم الهارب. مدّت أوتوم يدها إلى الكومة، وقذفَت حجرًا في الماء. تابعتُه، وشهدتُه يسقط ويختفي. فكّرتُ في مقدار الوقت الذي قضيناه هنا. في الماء وعلى الرمال، نستمع إلى الأمواج مثل أغنية مفضّلة. رمقتني بنظرة عندما سرقتُ إحدى حجارتها. رميتُها بأقصى ما أستطيع من قوّة، لكنّني أضعتُها في الشمس.

قلتُ أخيرًا:

- أوتوم، أنا آسف.

لأنّها الحقيقة.. لأنّ الشيء الوحيد الأسوأ من غضبها منّي هو أنّها كانت غاضبة، وهي معي. رمَت بضع حجرات أخرى.

- علامَ تعتذر؟

كدتُ أقول كلّ شيء، لكن تلك كانت لحظةً لتحديد المشاكل.

- على تصرّفاتي على الشاطئ، ولكوني أحمق، ولجعلك تشعرين أنني أفرّط بك.

اقتربتُ منها:

- لأنّ الحقيقة هي أنّني لن أفرّط بك. كلّ يوم، أتساءل متى تدركين كم أنتِ كثيرةٌ عليّ!

- تعرف أنّني أكره أن تقول أشياء من هذا القبيل، (هزّت رأسها) ما من داعٍ للمقارنات. ها أنتَ وها أنا، وكلانا هنا، وإما أن نكون معًا، وإما لا نكون. هذا كلّ ما في الأمر يا جمال.

أومأتُ برأسي موافقًا، وقلت:

- نعم، أنتِ على حق، لكن هل لي أن أطرح عليك سؤالًا؟

هزّت كتفيها:

- هل شعرتِ يومًا أنني لا أحبك؟

استدارت نحوي، ونظرَت إلى وجهي:

- هل شعرت يومًا برغبة في إخباري؟

مكتبة ياسمين

- ماذا؟ نعم بالطبع، لكن...

- لكن ماذا يا جمال؟ لا ينبغي أن يكون هناك لكن!

أشاحت بنظرها، وعادت للتّحديق في البحيرة.

- ليس الأمر أنني لا أشعر بهذه الطريقة تجاهك، لأنني أفعل كثيرًا. أنتِ... (وضعتُ يدي على ذراعها متوقّعًا أن تُبعدني، وقد تحرّكَت بالفعل، لكن ببطء، كما لو كانت تقرّر كيف يُشعِرها ذلك، وتقلّبُه في ذهنها)، أنتِ الشخص الموعود، وأكره أنني سبَّبتُ لك أية مشاعر سوى الرائع منها، لأنّ هذا ما أشعر به عندما أكون معك، وهذا ما أشعر به تجاهك. بصراحة، لست متأكّدًا حتى من أنّني كنت أعرف ما هو الحب قبل أن أعرفك.

- لا تكن غبيًّا. ماذا عن والديك؟ ويت؟

- أقصد، نعم، لكن...

- كما أحببتَ كيو، صحيح؟

- على ما أظنّ.. ربّما.

- لماذا يصعب عليك الاعتراف بما في قلبك؟

- بصدق؟ لأنّ... لأنّ الأمر يشبه أن أتركه إلى الريح، فلا يمكنني استعادتُه.

أظهرت تعبيرًا مستنكِرًا بوجهها:

- لماذا تريد استعادتَه؟

- لأنني... غبي

- جمال!

- لأنّ... -تشنَّج حلقي- لأنّ الألم قد يكون أقلّ بعد أن ينتهي الأمر.

عبسَت:

- لماذا يجب أن ينتهي الأمر؟

هززتُ كتفي:

- لأنّ كلّ شيء ينتهي.

- ليس فرضًا!

أومأتُ برأسي:

مكتبة ياسمين

- حسنًا، إنّها النسخة الوحيدة التي أعرفها.

- حسنًا، ربّما حان الوقت لتتحمّل مسئوليّةَ ذلك.

-ماذا تقصدين؟

التفتت لتواجهَني:

- أقصد أنه لعلّك كنت لتحافظ على بعض الأشياء الجيّدة لو لم تكن مصمّمًا على أن تكون وضيعًا مع الجميع!

أومأتُ برأسي موافقًا:

- أنا آسف، لأنّني كذبت. أعتقد أنّني أردت محو كيو من ذهني. لم أرغب بالاعتراف بأنه كان يعني لي أيّ شيء.

- لا يمكنك تغيير ذلك، وحتى لو أمكنَك، فما الفائدة؟! كلّ ما تفعله هو إيذاء من ساندوك، وإيذاء نفسك!

- أنتِ على حق.

- الألم ليس مبرّرًا لتتصرّف بنذالة! وأنا أقول لك الآن، إذا عاملتني بهذه الطّريقة مجدّدًا، فستكون آخر مرّة تراني فيها.

- أنا أعرف. لن يحدث ذلك مجدّدًا.

- من الأفضل ألا يحدث.

- هل هذا يعني أنك سامحتِني إذًا؟

- هذا يعني أنّ لديك بعض الجهد لتبذله.

اقتربتُ منها:

- أوتوم، أنا...

لكنها وضعت إصبعها على شفتي، وقالت:

- لا، لا تقُلها.. ليس الآن.

- لكنني...

حرّكتْ ذراعي على كتفيها:

- انتظر حتى تشعر أن الوقت مثاليّ، حتى تشعر أنّك تريد قولَها.

لامس خدُّها وجهي.

قلتُ:

مكتبة ياسمين

- حسنًا.

رغم أنني شعرتُ أنّ تلك اللحظة كانت مثاليّة.

- لكن لا تنتظر عامين آخرَين، أو حتى أسبوعين آخرين، لأنك ستقولُها لنفسك بحلول ذلك الوقت! أبعدَت رأسها لترى عينيّ: فهمتَني؟

حدّقتُ بدوري، وقلت:

- أفهمكِ.. دائمًا.

انزلقتُ مُقترِبًا أكثر بقليل، وفعلت المثل هذه المرة. اقتربَت إلى منتصف المسافة بيننا، وهو جلُّ ما يمكن لأيّ شخص أن يطلبه. أخفضَت رأسها ببطء ليسترخي على رأسي، وكأنها غير متأكّدة من أنّها تنتمي إلى هناك بعد ما جرى.

- لقد أخفتَني يا جمال. عندما سحبوك من تلك المياه، أنا... أنا...

قلتُ، وضممتُها بقوة:

- أعرف.

- لا تُخِفني هكذا مجدّدًا، على الإطلاق، حسنًا؟

وبالطبع، كلانا كان يعرف أنّ هناك أشياء خارجة عن سيطرتنا؛ أشياء لا يمكننا أن نعِد بها حقًّا، ولكن أحيانًا، ليس هذا الهدف.

قلتُ:

- لن أفعل.

بذراعها الحُرّة، قذفَت حجرًا آخر، إلا أنها كانت مُعَلّقة بي، فلم تستطِع الحصول على ذات التسارع بذات المُنحنى قبل القذف، لهذا بالكاد وصل الحجر إلى الماء.

وأعتذر، لكن هل يمكننا اعتبارُ ذلك استعارةً؟

بالتأكيد، قد تُبحر أسرعَ، وأبعد بمفردك، ولكن ما الهدف من إنجاز أيّ شيء إذا لم يكن لديك من تشاركه معه؟ سواءٌ كنت تغوص في منتصف البحيرة أم بالكاد قطعتَ الحافة، فقد وصلتَ إلى الماء.

قلت:

- حدّثيني عن ويتير مرّة أخرى.

كرمشت وجهها:

مكتبة ياسمين

- بالنّسبة لشخص يدّعي أنه يفضّل العفويّة، فأنت تحبّ الحديث عن المستقبل.

كانت متبسّمة بالطبع، تقصدُ مُشاكسَتي، لكنّها كانت على حقّ. أحبُّ الحديث عن المستقبل، لكنّني أحبّ سماع الآخرين يتحدّثون عنه أكثر. وكأنّ رؤية الناس لي، لوجودنا معًا في مخيّلتهم، تعني أنّه من المرجّح أكثر أن يحدث ما نبتغيه. أمسكت يدي، وشبكَت أصابِعنا:

- حسنًا، سنكون في ويتير أو ربّما في جامعة شيكاغو، وبطبيعة الحال، لن تتخرّج قبل ثلاث سنوات، بينما سأُنهي تخصّصي المزدوج في الأعمال والتخطيط المدنيّ، بحيث أتمكّن من...

قاطعتُها:

- إنقاذ العالم.

لكمَتني ضاحكةً:

- لا، بحيث يمكنني الحفاظ على كوكب الأرض. هل تدرك أنه بالمعدّل الحالي، حتى لو ركزنا على الأوزون فقط، فإن هذا المكان سيكون مختلفًا جذريًّا في أقلّ من عقد؟

- لقد سمعتُ بهذا -قلتُ، لأنها تذكّرني طوال الوقت-

- الأرض تموت ميتةً بطيئةً ومؤلمةً، يا جمال، وكلّنا مذنبون!

لكن ألا نموت جميعًا ببِطء متألّمين؟ لماذا تُستثنى الأرض؟ لكنني لم أفصح عن هذه الأفكار، ولم أطرح هذه الأسئلة، لأنها ليست حقيقيّة، فهي مجرد نواتج لألم القلب والندم والغضب وخيبة الأمل، ولأنّني أؤمن بأوتوم وبأحلامها، ربّما، ربّما أكثر من أحلامي، لأنّها على الأقل تجرؤ على الحلم، ومن أنا لأُخرِّبها عليها؟

- حسنًا، بينما أحاول المساعدة في إنقاذ الكوكب، ستجد نفسك، وسوف نستأجر شقة معًا خارج الحرم الجامعي، وسنطبخ معًا، ونُشاهد الأفلام تِباعًا، ونمشي لمسافات طويلة على طول الشاطئ.

ابتسمتُ:

- إذًا، باختصار، سنواصل ما نفعله به الآن.

- باستثناء أننا لا نعيش معًا، أيها السخيف! -مدّت لسانها- ولكن، إذا كنت تريد أن يحدث أيّ من ذلك حقًّا، فعليك رفعُ درجاتك، وربّما ملءُ بعض طلبات الالتحاق بالجامعة.

مكتبة ياسمين

بالكاد منعتُ نفسي عن قلب عينيّ متململًا. يُعدُّ افتقار جمال للطموح الأكاديميّ أحد موضوعات أوتوم المفضّلة. مع ذلك، للإنصاف، فهي ليست وحدها.

كانت أناشيد جوقة: «أنجِز في دراستك يا جمال» تعلو ما بينها، وبين ويت، وكلّ من ينتمي إلى ثانوية إليتاون، ولَو من بعيد!

قلتُ مُجادِلًا:

- الجامعة ليست الطريقة الوحيدة للنّجاح.

أومأت برأسها:

- لا، هذا صحيح. إذًا، هل لديك خطّة غير جامعيّة لتحقيق نجاحك؟

- نعم.

تجعّد جبينها، وتضيّقت عيناها، وهي تنقر على ذقنها:

- وذكّرني، حبيبي، لأنّك تعرف مدى ضعف ذاكرتي... ما الذي تنوي فعله بالضبط لتنجح؟!

انتظرتُ، لأنّ دفاعاتي تنهار عند هذه النّقطة من الحديث، إلا أنني لم أكن أعرف جوابًا، وكأنّ قضاء ذلك الوقت في غرفة كيو أيقَظ شيئًا بداخلي أنا الآخر.

هززتُ كتفي:

- كنت أفكّر بأنّني أريد أن أعود إلى الكتابة مجدّدًا. قد...، ولا تضحكي... لكن قد آخذ بعض دروس الارتجال.

حدّقَت إليَّ لوقت طويل حتى سألتُها ما خطبُها.

قالت:

- لا شيء، لكنّني لم أسمعك يومًا تتحدّث عن شيء تريد فعله، وهذا يجعلني سعيدة، لكنني أحاول عدم المبالغة في ردّ الفعل، لأنك حينها ستشعر بالغرابة، ولن ترغب في مشاركة المزيد معي.

- لا مشكلة. أعني، إنّها بالكاد خطة، إنها بالكاد أيُّ شيء!

- إنّها بدايةٌ يا حبيبي. البداية تُحتسب (مسحَت خدّي) هيه، قِف، أريد أن أريك شيئًا.

- ماذا؟ لكن عندها سأضطر للتوقّف عن لمسك، وهذا يبدو فظيعًا.

هزّت رأسها:

مكتبة ياسمين

- هيّا، أيّها السّخيف.

تذمّرتُ، لكنني نزلتُ عن السّيارة، ووقفتُ بجانبها. أحنيتُ كتفي:

- وإذًا، ما الذي من المفترض أن تُريني...

لكنني لم أستطع إنهاء كلامي.

لفّت أوتوم ذراعيها حول خصري، وضغطَت عليَّ كما لو كنتُ معجون أسنان.

عناقُ أوتوم نوعٌ من الملاذات الذي لا يقاوَم، والذي يجبرني على البوح بكُلّ ما لديّ؛ يجعلني أزفِر كلّ ما يتعلّق بأيّ شيء، لأنني أعرف أنّها أكثر من ملجأ، لأنّها تعرف الأذى الذي عِشتُه، ولأنّها تعرف بالمقابل كم أُحبّ. لقد رأتني سعيدًا لدرجة الإشعاع، لأنّها مقتنعة تمامًا بأنّني حِلٌّ من الذنب... لأنّها تعرف أنّ سرّ الغفران هو أن تسامح نفسك أوّلًا.

هذا ما فعلَه عناق واحدٌ من أوتوم، منتصف الصباح، على رقعة عشوائيّة من الشّاطئ. الجميع بحاجة إلى هذا العناق. وحتى عندما تباعدنا في النهاية، انزلقَت يدها اليمنى لأعلى، ثم أسفل ذراعي، حتى وجدَت يدُها يدي، وتشابكَت أصابعها بأصابعي. وقفنا هناك، وأيدينا متشابكة، والأمواج تتجه نحونا، وكأنها تريد أن تأخذنا بعيدًا.

ثمّ سألتني:

- ماذا ستفعل بخصوص كيو؟

- ماذا تقصدين؟

- تعرف قصدي.

- غطستُ في الماء لأجلِه، ألا يكفي هذا؟

- جاي.

- لا أعرف بعد. ما زلت أحاول أن أفهم.

رفعَت يدَينا، وقبّلَت سُلاميّاتي:

- لا بأس، ما دمت تحاول بالفعل.

- أحاول، وسأفعل.

مكتبة ياسمين

وأردتُ أن أقول لها الحقيقة كاملة، فهي تستحقُّها، بل أكثر، ولأن كلّ بادرةٍ لطيفة منها تستحقّ بادرات سلامٍ عالميّة، لكن، مؤقّتًا، وبدلاً من ذلك، قلتُ:

- إذًا، هل تريدين أن تعرفي لماذا أطلقوا عليك اسم أوتوم؟

هزّت رأسها، وتوسلَت إليَّ ألا أقولها:

- حبيبي، ما من داعٍ للدّعابات السّخيفة اليوم.

أومأتُ موافقًا:

- حسنًا، حسنًا. أنت محقّة.

قبّلتُ جبينها.

ابتسمَت:

- شكرًا، لأنك ضبطتَ نفسَك. ها أنت ذا تنضج و...

- لأنني **مُتيّم** في حُبِّك.

ثم تظاهرَت بأنّها تدفعُني، وتظاهرتُ بالتعثُّر خلفًا، فصفّقتُ بذراعي مثل طائر صغير يحاول الطيران لأوّل مرّة، وضحكنا مطوّلًا.

أثناء عودتنا إلى المنزل، طبّقَت السماء تأثير الغسق، وتلوّن كلّ شيء بلونٍ رماديٍّ مزاجيّ. ضجّت أعمدة الإنارة على الطريق السريعة بالحياة، وانسابَ ضوؤها، ودارَ على طول كِلا الجانبين من حولنا، مثل فراشات برتقاليّة كهربائيّة.

في ممرّ منزليّ، مالَت أوتوم على المقعد، وتبادلنا القبلات. تعانقنا ذلك العناق الغريب بسبب مُنصِّف السيارة ما بيننا.

- شكرًا على التوصيلة.

قالت:

- كلّ شيء سيكون على ما يرام.

هززتُ كتفي:

- كيف يمكن أن أصدّق هذا أقلّ كلّما قاله ناسٌ أكثر؟

مكتبة ياسمين

58

الجِنازة

كنتُ مختبئًا خلف صالة العزاء عندما التقينا. انسللتُ من بحر من مسح الأنوف والأعين، وخرجت من باب مكتوب عليه: «لا تفتح». كنتُ بحاجة إلى الهواء، وكنت بحاجة إلى جدار، لأنني كنتُ قد أدركتُ للتوّ كمّ الأشياء التي كنتُ أريد أن أقولها لهما، وما عدتُ أستطيع، وستتزايد هذه الأشياء مع الوقت.

أخذت شهيقًا، وطقطقتُ رقبتي.

قال صوت:

- كان حفّارو القبور الأوائل صانعي أثاث بالأصل.

وذَعِرتُ حتى كدتُ أخرج من ثيابي. التفتُّ لأرى فتاةً جالسةً على عتبة واسعة، والنافذةُ خلفها مغطّاةٌ بالخشب الرقائقيّ. ضحكت.

- أعتذر. ظننتُ أنّك رأيتني.

هززت رأسي:

- بالتأكيد لم أفعل. لمَ أنتِ في الأعلى؟

هزّت كتفيها:

- لمَ أنت في الأسفل يا رجل؟ لمَ نحن في أيّ مكان؟ الوقتُ مُبكّرٌ قليلًا لنتناقش بالوجوديّة!

ولم أعرف ما كان ذلك، وإن كان الكون يظنّ أنه كان يُسدي لي معروفًا بصَدمه لِعالم هذه الفتاة بعالمي، فلم أكن مهتمًّا، خاصّةً في ذلك اليوم. استدرتُ مُتّجهًا نحو الباب، لكنّها قفزت من عند النّافذة للأسفل.

تابَعَت:

- لكنه منطقيّ، صحيح؟

سألتُ:

- هاه؟ ما المنطقيّ؟

مصّت أسنانها:

مكتبة ياسمين

- أنّ حفّاري القبور الأوائل كانوا صانعي أثاث، فقد كان النّعش خطوة منطقيّة، كان لديهم الموادّ والصّنعَة. ولم ينقصهم سوى الجثث، والله أعلم بمدى وفرتها.

- ممم... تُدركين أنّ صالة العزاء مكان حزين، صحيح؟ أقصد أنني أنا أستمتع بالمعلومات العامّة مثل أيّ شخص، لكن...

- هل كنتَ في الحفلة؟ (أشارت نحو الباب الذي كنت قد عصيتُ علامته للتو) هل تعرف الشّخصَين اللذين ماتا؟

قلتُ:

- نعم. أنتِ؟

هزّت رأسها:

- لا، أعمل هنا أيّام السبت فقط.

- أوه...! رائع؟

ضحكَت:

- هل هذه جملة إقراريّة أم سؤال؟

- جملة تميل إلى السؤال أكثر بالتأكيد.

ضحكَت:

- طيّب، اليوم هو أوّل يوم لي. بطريقة ما، تعرف جدّتي مدير صالة الجِنازة، وها أنا ذا.. سحبَت قطعة جرانولا من جيبها، وقالت: تريدُ نصفها؟

لم أكن قد تناولتُ الطعام طوال اليوم. لم أكن قد أكلتُ سوى القليل منذ الحادث، لكنني وجدت نفسي أومئ برأسي موافقًا على أيّ حال، راقبتُها، وهي تفكّ الغلاف، وتقسّم القطعة إلى قسمين.

- سأكون لطيفةً، وأعطيك القطعة الأكبر، لكن لا تعتقد الحال ستكون هكذا دائمًا.

وعلى الرغم من أنّها كانت تمزح فقط، وكأننا سنتسكّع مرّة أخرى، لم أكره الفكرة كليًّا، مما كان غريبًا، لأنني كنت في وضع الكراهيّة الكامل لأيّام.

قلتُ:

- رائع. ثم أضفتُ: إقرار.

مكتبة ياسمين

ولم أعرف كيف، لكن ضحكتها جعلتني أرغب بالضحك.

قالت:

- الأمر مروّع بحق. سمعتُ أنّهما كانا شابّين!

سألتُ:

- مَن؟

إلا أنني فهمتُ بعدها، ثم ارتجفَت شفتاي، وتجمّع الدمع ليُمطِر.

- سمعت أنّ لديهما ثلاثة أولاد.

- اثنان (قلتُ بهدوء).

- ماذا قلتَ؟

- ولدَان فقط.

قالت:

- هممم... حسنًا، لا يزال هذا سيّئًا. هل يمكنك أن تتخيّل؟ ماذا قد تقول بحقّ السماء لفتى فقدَ للتو أهمّ شخصين في حياته؟

- لا أعرف. التفتُّ إليها، ومسحتُ عينيّ: ولكن هذه فرصتك.

أصدرت صوتًا يوحي بأنها قد فهمَت للتو، وغطَّت فمها بكلتا يديها:

- يا للــ...

لكن الفرصة لم تسنح لها لإنهاء هذه اللحظة المحرجة، لأنّ الباب الذي يحمل علامة تقول «لا تفتَح»، فُتِح مجدّدًا.

- مرحبًا يا رجل (قال كيو، وهو يخطو على الأرضيّة المتصدّعة)، الجميع يبحث عنك، لذا...ممم... خمّنتُ أنّك ستكون حيثُ لا أحد. و... لمَح الفتاة وتوقّف: أوه، أعتذر، هل أُقاطِعُ...؟

لم أقابل عينيه. كانت علاقتُنا قد صارَت غريبة، لكنّه لم يقُل شيئًا حول الأمر إن كان قد لاحظ.

مدّت الفتاة يدها:

- مرحبًا، أنا أوتوم. أنت لا تقاطع أي شيء باستثناء جَعلي أضحوكة لنفسي، لذا فالتوقيت مثاليّ.

ابتسم كيو:

مكتبة ياسمين

- تشرّفتُ بلقائك يا أوتوم. أنا كوينسي. (نظر كيو إليَّ)، في الواقع صديقُ جمال.

وتوقّف كأنّه ينتظر من أوتوم أن تشرح كيف تعرَّفَت إليَّ، أو أن أتدخّل، لكن بصراحة الشيء الوحيد الذي أردتُه هو أن يخرج هذا الفتى من المبنى، ليس فقط من أمامي، ليس فقط من هذا الزقاق القاتم، بل من صالة الجنازة كلّها.. من الحيّ.. من العالم اللعين. بالطبع، كان بإمكانه ألّا يتدخّل، وأن يرضى بعدم معرفة هذا الشيء عني وعن حياتي، لكنه لم يستطع المقاومة.

لوّح إصبعه أمامها:

- تبدين مألوفة. مهلًا، هل أنت من إنديانا؟ هل أنت ابنة...

نظر إليَّ طالبًا المساعدة، لكني هززتُ كتفي غيرَ مبالٍ. كنت أعرف من كان يقصد، لكنني لم أفهم لماذا لم يشعر بها، بحقيقة أنني لم أكن أريده هناك.

ضحكَت أوتوم:

- لا، أنا من ولاية أوهايو في الأصل. في الواقع، لقد التقينا للتوّ.

لمسَت كتفي فأجفلتُ، ليس بسبب الألم، أو لأنني لم أحب ذلك، بل على العكس تمامًا. لمستُ يدَها ببطء، لكنّها سحبَتها، والأسفُ بادٍ على وجهها، قالت:

- لم أقصد... لديّ عادةٌ سيّئة في لمس الناس. جميع أصدقائي اعتادوها، أو لا يمانعون إخباري أن أبتعِد. أنا آسفة.

قلتُ بسرعة:

- لا، لا تأسفي. لا... بأس.

وسادَ صمتٌ طويل عندها.

وللحظة ما عاد في الوجود سوى أنا وهي في هذا الزّقاق المظلم، وكان عالمًا حيث والداي كانا لا يزالان في واجهة تفكيري، حيث كان موتهما ليّنًا وحارقًا في الآن ذاته، لكن عيناها بدوَتا مسافرتين عبر الزمن، وقد أُرسِلَت إلى هنا لتعطيني لمحةً عن جمال المُستقبليّ.. عن جمالٍ كان لا يزال يتألم، ولكنه قد وجد طريقة حتى لا يظلّ مكسورًا.

- اللعنة، يا رجل! لم أرَك تبتسم منذ... (تأنّى كيو في كلامه، ورقّ صوتُه) أقصد أنّه من الجيّد أن أراك تبتسم.

مكتبة ياسمين

- هذا غريب، لأنني كنت أقاوم الضحك الهستيريّ قبل أن تخرج.

التفتت أوتوم إليَّ:

- أنت لا تعرفني، ولا قيمة لما سأقولُه حتى لو كنت تعرفني، لكنني آسفة للغاية لخسارتك، وأعتذر عن وجودي هنا بينما كنت تحاول العثور على مكان تكون فيه بمفردك.

هززت رأسي:

- يظلّ وحيدًا كثيرًا مؤخّرًا. أتصوّر أنه سعيد لوجود رِفقة.

قال كيو قبل أن أتمكّن من التلفّظ بأيّ شيء:

- كنتُ أُخطّط في الواقع لسؤال جاي إذا كان يريد، في وقت لاحق، الليلة بعد العشاء، أن نتسكّع، و... لا أعرف، أن نستحضر الذكريات أو... على أية حال، فنحن نرحّب بكِ للانضمام إلينا، أليس كذلك يا جاي؟ هل تنضمُّ إلينا؟

كانت أوتوم متبسّمة، وكان ذلك جيّدًا، بل عظيمًا، لكنني لم أرغب في التسكّع أو التحدّث، أو استرجاع الذكريات حول مدى روعة والديّ قبل وفاتهما، وبالأخصّ ليس معه.

- في الواقع، إذا كنت لا تمانع يا رجل، هل يمكنك إيجاد ويت، وإخبارها أنني هنا إذا احتاجتني.

- أوه! نعم يا رجل. أوه...! -أومأ برأسه- وهاكُم كوكتيل الصداقة المثالي؛ خليطٌ ممزوج جيّدًا من التردد، والغيرة والإلحاح. سرّني التعرُّف إليك يا أوتوم، آمل أن أراكِ في وقت لاحق.

تردّدٌ حول تركي في وقت حاجتي. غيرةٌ من أنني لستُ وحدي، من أنني برفقة فتاة لا يعرفها. رغبة مُلحّة في فعل ما يجعلني أقلّ تعاسة. حتى لو كانت الطريقة الوحيدة لفعل ذلك تعني ألا يكون بجانبي، لذا، لماذا لا أرغب بوجود أقرب صديق لي؟ لماذا أريد أن نتباعد؟ ما الذي تغيّر، تسألون؟

الجواب كان كلّ شيء. لم يظلّ شيءٌ على حاله.

وبرقَت شظية من السّعادة.

قالت أوتوم:

- لقد انتقلنا إلى هنا منذ مدّة قريبة.

مكتبة ياسمين

- أنت ووالداكِ؟

هزّت رأسها:

- لا، أنا وجدّتي.

- أوه!

أردتُ أن أطرح المزيد من الأسئلة، لكنني كنتُ أعرف أنّها ليست من شأني.

- هذا جيّد. حسنًا، أهلًا بكما. كان بإمكانكما أن تختارا العيش في أي مكان في العالم؛ شيكاغو، نيويورك، باريس، لكن ها أنتِ.... في إليتاون.

ضحكَت:

- هذا ما فكّرتُ به أيضًا، لكن...

-لكن... ماذا؟

- لا شيء.

قالت، وهي تهزّ رأسها، وتُشيح بنظرها عني دون أن تقلّ تلك النشوة التي جذبتني إليها.

- قولي ما أردتِ قولَه.

نظرَت إليَّ مجدّدًا، وانمحَت ابتسامتها، لكن الضوء في عينيها لم يُمحَ، بل تزايد بطريقة ما، وأنهَت جملتها مع علامات ترقيمٍ لم أشهَد مثلها من قبل:

- لكن أنت.. لكن... أنت.

مكتبة ياسمين

ما بعد الإنعاش

اليوم الأول

تبقّى 23-27 يومًا تقريبًا من حياة كيو

مكتبة ياسمين

57

ساعدني شيئان على تخطّي البؤس اليوميّ الذي يستمرّ سبع ساعات من دوام المدرسة الثانويّة:

1. أوتوم جريجوري.

2. التركيز على العطلة المدرسيّة المقبلة في الأفق الأكاديميّ.

لذا شعرتُ اليوم بأنّني محظوظ بشكل مضاعف، فقد كانت أوتوم متّكئة على خزانتي، وكانت عطلة الربيع على بعد يومين.

حضنَتني، وقالت:

- تبدو مثل كتلة قرف مُتقيّاً.

فركتُ ذقني فوق رأسها:

- أوه! حبيبتي، كلامُك يسحرني.

- ماذا سنفعل بعد المدرسة؟

تنهّدتُ، وفتحتُ خزانتي:

- لا أستطيع.

مثّلَت الذُّعر، وقالت:

- مع من تخونني؟

- مع السيّدة سويت.

- مقزز!

رنّ الجرس، ووقفت أوتوم على أطراف أصابعها، وعادت ذراعي إلى خصرها.

- حبيبتي، قولي لي تلك الجملة التي تعرفين كم أحبّها.

تبسّمَت:

- ستصبح والِدًا.

ضحك كلانا.

- ستضربكِ جدّتكِ على مؤخّرتك بعصاها.

- سينالُكَ نصيبٌ من الضرب أيضًا.

- نعم، صحيح.

مكتبة ياسمين

اقتربتُ منها، لكنها تصلّبَت هذه المرة:

- ما الذي يدور في رأسك؟

- أظنّ أنني أتساءل إذا كان كيو سيحضر إلى المدرسة اليوم.

رنّ جرسُ الإنذار باقتراب وقت الحصص.

تفحّصَت أوتوم وجهي:

- المهمّ هو أنه بخير، أليس كذلك؟

- لا، بلى. أنت على حق.

مدَّت يدها ورائي، وصفعَت مؤخرتي:

- حسنًا، غادر الآن حتى أتمكّن من مراقبتك وأنت تمشي.

تبادلنا قُبلةً، وذهب كلٌّ في طريقه، ولم يسعني إلا التحديق فيها، فقد كانت قصيدةً تمشي على قدمين -وحقّ الله-

رجّ جيبي...

ويت: لا تنسَ موعِدك مع السيّدة سويت.

أنا: أعتذر، لديّ مخططات أخرى.

ويت: 💥 👊

56

عادةً ما أكون آخر شخص يدخل إلى حصّة اللغة الإنجليزيّة السّابعة، لكنني كنتُ الأول تقريبًا يومها. وعلى الرغم من أنني حاولتُ ألّا أبالي، فقد ظلّت عيناي مثبّتتين على الكرسي الرّابع في الصّف الثّالث، وكنتُ متشوّقًا لقدوم كيو غالبًا، رغم أنّنا لم نتبادل النّظرات في الصّف حتى ذلك الوقت.

لذا شعرتُ بخيبة أمل هائلة عندما أغلقَت السيّدة تايلور الباب، كان كيو غائبًا. وكنتُ أعرف أن ذلك ليس من شأني، ليست مشكلتي، أو أيّ شيء، لكنني تساءلتُ إذا كان على ما يرام. وبصراحة، فقد توقّع جزءٌ مني أن يبعث لي رسالةً بعد هروبي من مواجهتنا الصّغيرة في غرفته. ظننتُه سيبعث رسالة تقول: «لا تأتِ إلى منزلي مجدّدًا» على الأقل. لكن بدلًا من ذلك، لا شيء. وكان اللاشيء، بطريقة ما، أسوأ من الغضب.

مكتبة ياسمين

عندما يصرخ شخص ما في وجهك، أو يرسل إليك رسالةً بأحرف كبيرة، فأنت على الأقل تعرف حقيقةَ مشاعرهم، لكن في المرّة الأخيرة التي رأيت كيو فيها.. طيّب، في المرّتين الأخيرتين التي رأيتُ كيو فيهما، كان غاضبًا، لذا لعلّ الأمور استتبَّت على هذا المنوال.

ولكن ماذا لو -فرضًا- أدّى الإنعاش إلى تغييرٍ في رأيه، ولم يظهر حالًا؟ ماذا لو بعد خروجي من باب منزله وعبوري المروج مثل بطل سباقات المضمار والميدان؛ عاشَ لحظةَ تأمُّل ذاتيّ مكثّفة، وأدرك فجأةً لماذا ساءَت الأمور بيننا، وشعر بالأسف البالغ، وأراد أن يعتذر بشدّة، إلا أنّه كان خائفًا من ردّ فعلي؟ لحظات التأمّل الذّاتي المكثّفة لا تعني أن نفقد كلّ كبريائنا. ربما كان ينتظر منّي أن أبتدئ الخطوة الأولى؟ ينتظر الوقت المناسب؟ شعرتُ بتحسُّن طفيف حتى فُتح باب الفصل الدراسي؛ حدّقتُ بطريقة توحي بأنني على استعداد لإجراء المحادثة، لكن إما أن كيو كان مُحرجًا من تصرّفه السّابق، أو أنّه كان راضيًا بإبقاء ما بيننا على حاله، لأنه تجنّب التواصل البصريّ معي.

حافظتُ على نظراتي التي توحي بأنني مُتسامح، لكن عينا كيو جالتَا المكان بأكمله دون أن ينظر إليّ. تفحّصتُه من بعيد، بدا طبيعيًّا؛ الوقفة نفسها، وتعبير وجهه المُسترخي كان ذاتَه. وكان من الغريب أنّ أعرف أن شخصًا ما كنت أعرفه؛ شخصًا كنت مُقرّبًا جدًّا منه، كان يعيش في وقتٍ مُستعار حرفيًّا. وأنّبني ضميري مجدّدًا، لأنّ الموقف كان مزعجًا، لأنه كان من المستحيل أن يقضي كيو وقته في حصّة اللغة الإنجليزيّة السّابعة لو كان يعرف الحقيقة، فكيف تشعر بالأسى لوفاة شخص لم يُتوفَّ بالفعل؟ وكُلّ الحزن الذي غمرني لم يكن قريبًا حتى من أسى وفاة شخص بالفعل، فقد كنتُ سعيدًا جدًّا، لأنه على قيد الحياة مجدّدًا.

لذا، ربّما لو أن كيو... كنتُ سأحزن بأثر رجعيّ؛ الضعفَ؟ لعلّني.. مهلًا، لماذا يحدّق إليَّ الجميع؟ أوه! ربّما لأنّ المعلّمة تُحدّق إليَّ، وتُنادي اسمي مرارًا وتكرارًا! اللعنة! كم من الوقت ظللتُ شارد الذّهن؟

- جمال، ما رأيك؟ هل كانت حياة بيوولف مأساة؟

لفترة طويلة بما يكفي حتى لا أعرف أننا بدأنا مناقشة وظيفة القراءة الخاصّة بنا.

مكتبة ياسمين

هززتُ كتفي:

- لا أعرف.

أومأَت لي بأن أستقيم في جلوسي، وهو ما فعلتُه على مضض. ما من شيء أكثر إزعاجًا من معلّم متطلّب!

- ما من جواب خاطئ أو صائب، أريد رأيك وحسب.

-بصراحة؟ (هززتُ رأسي) أشعر أنّ الأمر برمَّته مأساة.

شعّ وجهها:

- كيف ذلك؟

ضحكتُ:

- قولي إنك لم تُصابي بخيبة أمل عندما اكتشفتِ أن الرجل ليس ذئبًا[1] حقيقيًّا.

ضحك كلُّ من في الفصل. استدار الفتى أمامي حتى أومأت السيّدة تايلور برأسها مبتسمة:

- حسنًا.. حسنًا، لكن هل تعتقد أن بيوولف كان سيكون أكثر أو أقل بطوليّة لو كان ذئبًا حقيقيًّا؟

- لقد قاتل كلّ تلك الوحوش، لكنه مجرد رجل عاديّ. كيف يكون هذا عادلًا؟!

- صحيح، إلا أنه نجح، أليس كذلك؟ في النهاية؟ قتل التنين.

- لكنه مات، وهو يقتله.

- ما هي الحكمة التي تستنبطُها من حياته إذًا؟

كنتُ على دراية بما تفعله، كانت تشدُّني، وتُثبت لي أنني أستطيع فعل ذلك إن أردتُ، وإن حاولت، لكنني أعدتُ تمرير السؤال إليها:

- ما رأيكِ أنت؟

تفحّصَت وجهي:

- طيّب، سوف أُجاريك. ماذا أرى؟ ممم.. ماذا عن أنّه ما من شرف أكبر من المحاربة من أجل الآخرين، حتى لو كان المقابل تضحيات شخصية كبيرة؟

---

(1) مفردة «بيوولف» (وهي قصيدة ملحميّة) تُشبه مفردة «وولف» wolf باللغة الإنجليزية، التي تعني «ذئب»

مكتبة ياسمين

هززتُ رأسي:

- لا أقصد الإهانة، ولكن هذا يبدو غبيًّا!

أصدر بعض الفتيان صوت «أوه!» متأهّبين لتصاعد الموقف.

- لا، بجديّة. لقد كان بطلًا بالفعل، لكن عندما كان في أمسّ الحاجة إلى قومِه، تخلى عنه الجميع باستثناء «ويغلاف»؛ ظلّ مخلصًا، وأوفى بوعده، فأين كانوا عندما احتاجهم؟ كانوا مستلقين في أسرّتهم يتابعون برامج سخيفة على قناة نتفليكس!

عمّ الضحك مجدّدًا.

- هل ينبغي ألا تفعل أيّ شيء من أجل أيّ شخص إذًا، يا جمال؟ تحدّثتني السيّدة تايلور مُبتسمة: هل ينبغي أن تهتمّ بنفسك فقط؟ هل تفضل أن تعيش لفترة أطول وتموت بمفردك على أن تموت باكرًا إلى جانب صديقك دفاعًا عمّا تؤمن به؟

- القصيدة لا تدور حولي!

انزلقتُ على الكرسي.

طوَت ذراعيها:

- لا، أنت محقّ يا جمال، لكنني مهتمّة بما تعتقده، في ما نعتقده جميعًا.

اكتفيتُ بالصمت، ووقفَت هي هناك، عند صفّ المقاعد المقابل لي، ونظرُنا مثبّت على بعضنا بعضًا، ثم تابعتْ: حسنًا إن كان هذا ما تريده، فلا بأس.

- ما أقصده هو أنّ بيوولف صنع أضحوكة من نفسه، فهؤلاء الرّجال لم يتركوه عندما حارب التنين، هم لم يقفوا بجانبه قط؛ لطالما كان وحيدًا. وفي النهاية، قتل التنين، والتنينُ قتله!

ألقيتُ نظرةً على كيو لأعرف إن كان يُتابع النّقاش، لكنّه لم يفعل. كان يبتسم أمام شاشة هاتفه. طيّب، ربّما شعرتُ بقليلٍ من الغيرة من أيٍّ جعلَه يبتسم بشدة. وربّما قلتُ لنفسي إنه فيديو قديم لجانسي، وربّما يستحضر ذلك ذكرياتِ زمن مختلف.. زمن أفضل.

فماذا لو وضع بيوولف والتنين خلافاتهما جانبًا، وأصبحا ثنائيًّا كوميديًّا شهيرًا؟

مكتبة ياسمين

55

قبل الجِنازة بعامين

نقرتُ على لسان تبويب غير نشط على الكمبيوتر المحمول الخاصّ بكيو. كان من المفترض أن نُجري بحثًا عن أسد البحر لفصل العلوم، لكننا بالطبع كنّا نشاهد الأحداث البارزة من مباريات الدوري الأمريكي للمحترفين الليلة الماضية.

- هيه، ما هذا؟

سألتُ، وأنا آخذ قضمةً من بقايا طبق التوستادا الذي صنعَته السيّدة بارانتيس الليلة السابقة، ثم أضفتُ: ساعة كيو الكوميديّة؟

غمر الذّعر وجه كيو:

- لا تنقر عليه...

لكنّ الأوان كان قد فات؛ كان مقطع فيديو قد نشره على موقع توبروَن، ولم يكن يحوي سوى مشاهد لكيو أمام الكاميرا، خلف مكتبِه، ويُلقي الدعابات. ولطالما عرفتُ أن كيو مضحكٌ، لكن ذاك... ذاك كان مختلفًا. كان أكثر من مضحك... كان مضحكًا بشكل هستيريّ.

- تُشبه دونالد غروفر نوعًا ما؛ أعماله القديمة في الكوميديا.

أشرق وجهه:

- حقًّا؟ لم تجِده مبتذلًا؟

هززتُ رأسي:

- إطلاقًا.

- دونالد مضحك، لكنني كنت أحاول الاقتداء بشخص آخر.

- حسنًا، كنت سأقول كندريك فالون، لكنني لم...

عرُضَت ابتسامة كيو للغاية:

- لقد حزرتَه.

- هل تريد تقديم برنامج تلفزيونيّ؟

مكتبة ياسمين

هزّ كيو كتفيه:

- يمكن، أو، لا أعرف، قد أكتب نكاتًا لكندريك؛ سمعتُه يقول في مقابلةٍ إنه بدأ مسيرته في الكوميديا بهذه الطريقة، بكتابة النكات لأشخاص آخرين.

ابتسمت:

- يمكنني أن أتصوّرك تفعل هذا.

- حقًّا؟ لا تقول هذا لمجاملتي؟

- أخي، أنا لا أجامل. أنت تعرفني.

ثم صارت نظرات كيو غريبة:

- طيّب، أنا سعيد، لأنّ هذا رأيك، لأنني كنت أفكّر في اقتراح أن نصبح فريقًا ثنائيًّا كوميديًّا.

- أنا لست مضحكًا مثلك.

ضحك كيو:

- نحن مضحكان بطريقتين مختلفتين فقط؛ أنت تعتمد على فكاهة الملاحظة، لكن هذا مضحك أيضًا.

كنتُ ما زلت غير متأكّد. لم أكن مقتنعًا بإمكانيّة تحقّق ذلك.

- لا أعرف يا كيو. ماذا لو وجد الشباب في المدرسة مقاطع الفيديو الخاصّة بنا، ورأوا أننا غبيّان؟

- لن يجدها أحد إطلاقًا. لقد سجّلتُ ثلاثين مقطعًا سابقًا دون أن تملك أدنى فكرة.

كلامُه بدا منطقيًّا، وكأنه كان يعيش حياةً أخرى دوني، بشخصيّة أخرى.

- موافق، ولكن إذا كنّا سنفعل ذلك، فعلينا أن نفعله بأحسن الطرائق. أقصد، ماذا لو لاقَينا رواجًا؟ قد تكون هذه فرصتك الذهبيّة يا كيو. يمكن أن تصبح مثل كندريك ذات يوم.

- دَعنا لا ننجرف، ولكن... شكرًا يا رجل.

تناولتُ قضمةً عملاقةً من التوستادا، وسالَت صلصة الغواكامولي على ذقني.

مكتبة ياسمين

- إذًا، ماذا سندعو أنفسنا؟

قال دون أيّ تردُّد:

- جانسي.

- جانسي؟

- نعم، جمال وكوينسي: جانسي.

- أظنّ أنني لا أكره هذا الاسم. القسم الأول منه «جا»، رائع للغاية.

مثّل كيو أنه يقرص خدّي:

- ها أنت ذا تُلقي الدعابات منذ الآن!

لطالما تخيّلتُ أنه في يوم من الأيّام، عندما يصبح كيو مشهورًا، ويُقدِّم حفل توزيع جوائز الأوسكار، سيروي هذه القصّة في مقابلة. سيرويها في مقابلاته، وسيقول المُذيع: «هيه، انظروا ماذا لدينا هنا، لقد وجدنا برنامج جانسي الكوميدي الأصليّ»، ثم سيعرضون أكثر مقاطعنا شهرةً، والقليلَ من أطرف لحظاتنا. وأنا لست عادةً مدّاح ذاتٍ، لكننا شكّلنا فريقًا رائعًا. أدّينا عملًا رائعًا. وكما كنتُ أنا خبير لعِب كرة السّلة بيننا، وساعدتُ في جعلنا نُتقن التقاط ورمي الكرة، وانتشالها وتسديدَها، كان كيو خبير الكوميديا بيننا.

كنتُ قد افترضتُ أننا سنصور أنفسنا فقط، ونحن نتصرّف بهبَل، لكن كيو أخذ القضيّة على محمل الجَدّ. قال: «ما من قواعد في الكوميديا، لكن القاعدة الأولى هي التالي: كلّ شيء مضحكٌ أكثر عندما يكون حقيقيًّا. حتى الأشياء التي قد لا تكون مضحكة تصبح مضحكة عندما تُخاطب مشاعر الناس. مفهوم؟».

كان ذلك منطقيًّا.

«القاعدة الثانيّة: دع النّكتة تقودُك. التزم بالنّكتة، خاصّةً عندما تكون في موقف جماعي، مثل الارتجال، أو في حالتنا: ثنائيّ كوميديّ».

دندنتُ: «ثنائيٌّ ديناميكيّ»، مشيرًا نحو الأعلى، كما لو كنت أقترح أنه يمكننا الطيّران.

- إذًا، كم عدد القواعد؟

ابتسم كيو:

- تبقّت واحدة فقط. القاعدة الثالثة: استمتع...

مكتبة ياسمين

54

صنَعَت السيّدة سويت خيمةً بيديها:

- ويتني، تغيّب جمال ليس شاغلنا الوحيد. يُقلقنا أيضًا... (توقّفت، ودفعَت مجلّدًا من المانيلا عبر مكتبها) هاكِ.. انظري بنفسك.

فتحَته ويت.

تابعت السيدة:

- هذه درجات جمال لهذا الفصل. إنه يرسب، أو يكاد يرسب، في أربعٍ من مواده الستة.

قالت ويت:

- جمال!

وصوتها لاهِث كما لو ليقول: «كيف لك ألا تخبرَني؟ كيف لم أعرف؟»، حاولَت مقابلةَ عيني، لكني أشحتُ نظري. عادت إلى السيدة سويت:

- أليست وظيفتك أن... ألَا تتسببين بفشله أنت أيضًا؟ في الفصل الدراسي الماضي، خصّصنا له مُدرّسًا، وخطة تعليميّة فرديّة و...

أشارَت السيّدة سويت للأوراق في يد ويت:

- في المتوسط، يغيبُ يومًا كلّ أسبوع. وهذا لا يشمل الموادّ التي لا يحضر حصصها!

قلتُ:

- لقد كنت مريضًا. لديّ ملاحظات الطبيب.

مسحَت ويت أنفها بأكمامها، وانهمرَت بضع دموع على سروالها الجينز. قالت ويت اسمي مرّةً أخرى، بصوت أليَن وأخفَت:

- لقد مرّ بوقت عصيب. لقد مررنا بـــ...

عبسَت السيّدة:

- انظري، كلّنا نعرف جمال... لم يكن الأمر سهلًا، لكنني أخشى أنه على الرغم من نوايانا الطيبة، فإنّ هذه المدرسة كانت متواطئة في فشل جمال. لقد تركناه يفلت من بين أيدينا مدّة عامين، لكن الآن، من

مكتبة ياسمين

الواضح لنا أنه إذا تركناه يفلت من أيدينا أكثر، فسيكون ذلك من خلال أصابعنا.. من خلال الشقوق. تأنّت، وقالت بصوت حازم بالمقدار المناسب: نعتقد أنّ جمال يحتاج إلى مساعدة أكثر مما هو متاح في مؤسستنا.

سألَت ويت:

- مهلًا! هل تطردونه؟

استقمتُ في جلوسي على مقعدي:

- مهلًا، ماذا؟ لا يمكنكم طردي. بدّلتُ نظراتي ما بين السيدة سويت وويت، وعائدًا إلى السيدة سويت: هل بإمكانكم؟

فتحَت درجها، وسحبَت كتيّبًا لامعًا بثلاث طيّات، وسلّمَته إلى ويت:

- أقترح بقوّة أن ينتقل جمال إلى مدرسة إليتاون التأهيليّة.

- ماذا؟ مدرسة الشبّان المتسيّبين؟ لستُ مثلهم!

ولن أكذب، فقد بدَت السيّدة سويت حزينة بحقّ. النظرات التي رمقتني بها حينها، لقد تلقّيتُها من الكثير من البالغين في العامين الماضيين، ومن ويت، وأوتوم.

- إذًا، يملك خيارًا، رغم ذلك؟ -سألَت ويت- ليس عليه مغادرة ثانوية إليتاون؟

هزّت السيدة سويت رأسها:

- بصراحة، لا أريد أن يغادرنا جمال، أريد أن يبقى هنا، وأن ينجح بالطريقة التي نعرف جميعًا أنه قادر عليها، لكني لا أريد أن أفقدك كُليًا يا جمال.

- تخسرينني؟ أنا أتغيّب عن المدرسة، لا أشارك في الجريمة المنظمّة!

- لا، يا جمال. لا أريد أن يأخذَك الأسى مِنّا -عبسَت- لا أستطيع أن أشاهدك تُستَنزَف بالكامل.. ليس بعد الآن. عليّ أن أتصرَّف، علينا أن نتصرّف.

رجعتُ إلى الوراء في كرسيّي. لم أكن قد فكرتُ في الأمر بهذه الطريقة؛ أن الحزن يبتلعني، قد يكون هذا صحيحًا، إلا أنه ليس كما تعتقد السيّدة سويت تمامًا، فأنا أتمنّى لو يبتلعُني بالكامل، تلك رحمة، لأن ما كنتُ أشعر به كان أشبَه بأن أُستهلَك ببطء، كما لو كنتُ أُقضَم.

مكتبة ياسمين

قضينا عشرين دقيقة أخرى في مناقشة مستقبلي الأكاديميّ.

باختصار: سُمِح لي بالبقاء في ثانويّة إليتاون، شرطَ أن أبقى تحت المراقبة. لا مزيد من الغياب عن المدرسة أو حتى الفصل. ويجب أن تُظهر درجاتي تحسُّنًا.

مما كان مُزعجًا، إنما عادلًا.

ثم خرجنا من مكتب السيّدة سويت، ومن الإدارة، ومن بهو المدرسة، ومن المرج الأماميّ، ومن منطقة الزوّار تقريبًا، لكن بعدها ركضتُ عائدًا إلى الطرف الشماليّ، ونادَتني ويت.

وهل كان ذلك أفضل خيار يمكنني اتخاذه بعد الاجتماع الذي وُضِعتُ فيه تحت المراقبة، للمُراقب الخارجيّ؟ إطلاقًا، لكنه كان شيئًا قالته السيّدة سويت: «على الرغم من النوايا الطيّبة، في النهاية، لا يهمّ ما نحاول فعله، بل ما نفعله وحسب».

ركضتُ على جانب مبنى العلوم الإنسانيّة، ومرّرتُ أصابعي على طول الواجهة المبنيّة من الطوب، وحدّقتُ إلى كلّ النّوافذ المستطيلة المفتوحة، ثم رأيت معلّمة الحساب جالسة على مكتبها، وتلاقَت نظراتُنا، لكني نظرتُ إلى ما ورائها. نظرتُ إلى الفتى الذي عندما لويت كاحلي، وأنا ألعب كرة القدم في الحيّ، حملني عبر الربوة العشبية، وربع ميلٍ كامل إلى المنزل؛ الفتى الذي رآني في أسوأ حالاتي، لكنه ظلّ يساندني.

مشَت المعلمة إلى النافذة:

- جمال، لا يمكنك تعطيل اجتماع النادي. في الواقع، لماذا لم تذهَب إلى المنزل؟

قلتُ:

- سؤال ممتاز يا آنسة هاديش، ويستحقّ إجابة بذات الجودة.

أدخلت رأسي من خلال إطار النافذة حتى لا تتمكّن من إغلاقها.

- جمال، اذهب رجاءً. لا تستطيع أن تُشتّت الفصل. إذا كنت لا تريد أن تكون هنا، فلا يمكننا إجبارك على البقاء، ولكن...

هززتُ رأسي:

مكتبة ياسمين

- لماذا كان الجميع يظنّون ذلك؟ أنني لم أرغب بالوجود في الأماكن التي كنتُ فيها؟ لماذا لم يسألني أحد يومًا لماذا لم أرغب بالحضور، بدلًا من مجرد اتخاذ قرار أنني الخاسر؟!

لعل السيّدة سويت أذكى مما تظنّ. لعلّني أُستنزَف.. لعلّني نسيت كيف أكون أنا؛ جمال القديم هنيُّ البال.. جمال مُحبُّ المرح.

- أنتِ محقّة، آنسة هاديش. وأنا آسف حقًّا لمقاطعة ناديكِ، وأعدك بأنني سأغادر في غضون خمس عشرة ثانية، لكن من فضلك، دعيني أقول شيئًا واحدًا قبلَ أن أذهب.

عقدَت ذراعيها:

- جمال!

- رجاءً. (توسّلتُ، وأنا أشبك يديّ كما في الصلاة) خمس عشرة ثانية وحسب. أريد أن أخبر صديقي القديم كيو بأمرٍ فقط

- جمال، إذا كان هذا نوعًا من الثأر أو...

- ليس ثأرًا...

- مرحبًا يا رجل، هل أنت... هيه، هيّا، هل يمكنك أن تنظر إليَّ وحسب لثانية؟ كيو؟

لوّحت بيدي لكيو، لكنه ظلّ يحدّق إلى الأمام مباشرة، كما لو أنه لا يستطيع سماع أو رؤية الفتى الذي يشير إليه من النافذة.

تنهّدَت الآنسة هاديش:

- كيو، من فضلك...

نظر كيو نحوي.

- كيو، أنا... لا أعرف كيف أبدأ، لكنني سأفعل ذلك، سأحاول فقط، حسنًا، لا يهمّ...

نقرَت الآنسة هاديش على ساعتها:

- تبقّى خمس ثوانٍ تقريبًا.

هززتُ رأسي:

مكتبة ياسمين

- حسنًا، اسمع. أنا آسف -يا كيو- لمعاملتك بسوءٍ عندما... عندما مات والداي. أنت لا تستحقّ ذلك، وأنا أعرف ذلك. وأنا آسف لأنني استغرقت كلّ هذا الوقت لأخبرك بهذا. أنا آسف أنه كان عليك أن...

مهلًا يا جمال، على رسلِك يا فتى. كنت على وشك الإفصاح بأمر الإنعاش!

- اسمع، الحقيقة... الحقيقةُ أنني... ألقيتُ اللوم عليك يا كيو. ألقيتُ اللوم عليك في ما حدث.

تلوّى وجه كيو مرتبكًا، لكنه لم يقُل شيئًا.

- نعم، لقد فعلتُ. لقد اتصلتَ في ذلك الصباح لتمنّي ذكرى سنويّة سعيدة لوالديّ، لا أعرف إن كنتَ تتذكّر.

انخفض رأس كيو في إيماءة بالغة الصغر.

- وقد لا تتذكر، لكنني أعلم أنك تتذكّر كم كان أبي سيّئًا في التعامل مع التكنولوجيا!

قلتُ، وعندها شعرتُ بعينيّ تدمعان، وأردتُ أن أوقف كلّ هذا حالًا، لأنه لم يكن من المفترض أن أنهار هنا، أمام المدرسة التي تتخلّى عني.. أمام الأطفال الذين ما زالوا يتهامسون حول سبب تشتُّتي، وضياعي. كان ينبغي أن أغادر فقط.. أن أفعل أفضل ما أبرَع به.. أن أستدير، وأقفز نحو شاطئ الأمان، لكن... أنا هنا، وأردتُ أن أكون هنا.

مسحتُ عينيّ:

- على أيّ حال، تمامًا عندما، تمامًا عندما انطلقنا... اتصلتَ به، وكان هاتف أبي متّصلًا بالبلوتوث و... و...

أشحتُ بنظري نحو الأسفل. أخذتُ نفسًا عميقًا، وتراجعتُ خطوةً إلى الوراء، خارجًا من النافذة.

قُلها وحسب يا جمال. قل الكلمات وانسَها.

نظرتُ إلى الخلف، وكان كيو أمام النافذة. أجبرتُ نفسي على التبسُّم، لأنني قدّرتُ ما يفعله، وأنه تفهّمني؛ تفهّم ما أحاول فعله، ويُقابلني في منتصف الطريق.. يقابلني حيث أقف.

أومأتُ برأسي:

- شكراً لـــــــــ...

مكتبة ياسمين

لكن كيو أخرج ذراعه من النافذة المفتوحة قبل أن أقول «لك»، ولم يكن ذلك متوقّعًا، كان يُطالب بعراكِ أيدٍ، أو من المحتمل أنه أراد ضمّي في عناق أخويّ، مما كان أفضل، ويعني أكثر.

ابتسمتُ، وهذه المرة، جرى الأمر بسرعة.

- هيه، كيو، أنا سعيد حقًّا لأنك...

إلا أن كيو لم يمدَّ يده من أجل عناق، أو لسماع اعتذاري بشكل أوضح، أو للاستعداد لتقديم اعتذاره في المقابل.

لا، راقبتُ. وراقبَت الآنسة هاديش، وراقَب نادي ما بعد المدرسة بأكمله، بينما التفَتت أصابع كيو حول المقبض، وأغلَق النافذة، كلّ ذلك وهو ينظر في عينيّ! ولوَهلة عابرة، ظننتُ أنه يمزح، وهو يتحسّس النافذة، فيهتزّ الزجاج، أو أنه عالقٌ، لكنه على وشك إعادة فتحه. إنها طريقتُه في ردّ اعتبارِه قليلًا.. إنه لا يستطيع أن يغفر لي بسهولة، لكن ما كنتُ لأُخطئ الظنّ أكثر مما فعلتُ، فقد كان المزلاج عالقًا، لكنه لم يكن يحاول إعادة فتح النافذة، كان كيو يقفل النافذة. وعندما انغلق القفل أخيرًا، كان لا يزال ينظر في عينيّ مباشرةً طوال الوقت، بالكاد رمشَت أجفانُه.

طيّب، أيها القرّاء، أتمنّى لو كان باستطاعتي إخباركم كيف انتهت الأمور؛ أنني اخترت أن أتسامى عاطفيًّا.

- ماذا، ألا تريد أن تسمعني أقول كيف قتلت والديّ يا كيو؟ ما الأمر؟ ما زلت وضيعًا وغير قادرٍ على الاعتراف بما فعلته؟ لقد قتلت والديّ يا كيو! أنت يا رجل! أنت فعلت ذلك! ليس الرجل الذي كان يقود السيّارة الأخرى! كان السبب أنت، ولا أحد سواك! وتريد أن تعرف ما هو أغبى جزء؟ (توقفتُ مؤقّتًا لأضحك، وأفرك بطني كما نفعل حين نتهيّأ لتفصيل هستيريّ) الطامّة الكبرى يا أخي، ستحبّ هذا الجزء. هاها.. أنصِت. آنسة هاديش، جميعكم، يمكنكم سماعي من هناك، أليس كذلك؟ أنصتوا جميعًا. لم تكن تلك الذكرى السنويّة لهما... أتفهمون؟ اتصل ليتمنّى لوالديّ ذكرى زواج سنويّة سعيدة، ولم يكن مخطئًا فحسب، بل غمره الخطأ حتى أذنيه. لو كان خطؤه قنبلة يدويّة، كانت لتظلّ بعيدة كلّ البعد عن الحقيقة، دون أن تُلحق أيّ ضرر بالهدف، لأنه... ركّزوا

مكتبة ياسمين

معي، هذا الفتى، أعزُّ أصدقائي السابق، ترقّبوا... اتّصل في الشهر الخاطئ! اتصل بهما في السّابع من يونيو، لكن ذكرى زواجهما كانت في السابع من يوليو.

عصرتُ وجهي كأنني أشعر بالحرج الشديد من أجله: إذًا، واو، يا له من خطأ! أليس كذلك؟ كم هو محرج بالنسبة لكيو يا رفاق! لقد قتل والديّ بلا سبب على الإطلاق. لذا، بلى، أوقاتٌ مسليّة.

ثم ظهرَت ويت بجانبي، وشدَّت ذراعي، وقاومتُ في البداية، ليس لأنني أردتُ أن أُكمل مشهدي الوضيع، بل لأنّ كلّ ما في العالم انهار للحظة، كأنني آخر كائن حي على وجه الأرض، ولم أشعر بالرضا، وغمرني الذعر، لكنها ردّدَت:

- تجاوزتَ الحدّ يا جمال. جمال، كفاكَ!

وكانت مُحقّة، كانت مُحقّة جدًّا. كان الأمر قد تجاوز الحدّ، وكنتُ قد تجاوزتُه بدوري، واكتفيتُ.. اكتفيتُ. كان الكيل قد طفح من كلّ ذلك، كل شيء.

ثم أنهَينا ما بدأناه، اتّجهنا إلى الخارج؛ خارج عشب المدرسة.. خارج موقف السيارات.. خارج المبنى.. خرجنا من المكان بأكمله.

53

أطبقَ صمتٌ أشدُّ وقْعًا من الموت خلال رحلتنا في السيّارة عائدين إلى المنزل.

52

أقفلتُ بابي، وارتميتُ على سريري. فتحتُ هاتفي، وضغطتُ على مقاطع الفيديو. انتقلتُ إلى المجلّد المخفيّ. وعَدتُ ويت أنني لن أشاهده مجدّدًا.. أقسمتُ أنني سأحذفه.

طلب مني د. أوشن أن أتوخّى الحذر. قال: «هوسُك بهذا الفيديو ليس صحيًّا يا جمال. تملك طرائق أفضل للتعامل مع مشاعرك»، لكنني لم أكن أبحث عن الأفضل.

وضعتُ سماعاتي في أذنيّ. ضغطتُ زرّ تشغيل الفيديو.

مكتبة ياسمين

51

كبّرت وجه أمي، وهي تحجب عينيها بيديها. خلفها، على بُعْد عشرين مترًا تقريبًا عن الطريق، ظهرَت اللافتة الإلكترونيّة لبازار المزروعات الدفيئة في إليتاون، مكتوبًا عليها «أهلًا بكم»، بخطّ شبيه بالرسوم المتحرّكة المكوّنة من بكسلات.

- لن يقتلك هذا يا جمال!

قالت أمي بجديّة، كأنها قد أتت من المستقبل عبر ثقب دوديّ. أبي، الذي كان يرتدي قميص الفانيلا ربّما للمرّة الأولى على الإطلاق، أومأ برأسه موافقًا. سخِر ثلاثتُنا منه مُشاكسَةً طوال الطريق إلى هناك.

«مهلًا.. هل سنشتري الأشجار أم سنقطعها؟»، قُلنا مازحين، وأطلقنا عليه اسم «بول بونيون» حتى رفع صوتَ الراديو فجأةً ليحجِب أصواتنا.

- أعتقد أنّ أحدًا سواي لن يستطيع أن يقرّر ما الذي سيقتلني!

قلتُ:

- نحن بحاجة إلى سيّارة أكبر، أو ربّما يمكننا زراعة خمس أشجار بدلًا من خمس وعشرين شجرة.

قال أبي:

- سنتدبّر أمرنا. الرحلة إلى المحميّة قصيرة.

وضَعَ الشجيرة الأخيرة في المقعد الخلفي، ووخزَت فروعُها الرقيقة ساعدي.

«إنّ هذا نداء يقظة لك يا جمال، والآن عليك أن تتعايش مع العواقب».

ضربَ أبي وأمي كفّيهما عاليًا للغاية، ثم تطوّر الأمر بسرعة إلى روتين شديد التعقيد، أو مُبالغٍ بتعقيده، يكتمل بالدوران بزاوية 360 درجةً وتربيتًا على الحذاء، وانتهى بقفزة، وارتطام صدرين مع صوتٍ مزمجر. كانا يعملان على تلك الحركة لأسابيع في غرفة المعيشة، منذ رأيَا لاعبي الرابطة الوطنيّة لكرة السلّة يتافخرون بمصافحتهم الخاصّة أثناء المباراة.

نعم، هذان والداي. لا، لا أعرف لماذا يتصرّفان هكذا!

قالت أمي:

مكتبة ياسمين

- أنت جامحٌ اليوم يا حبيبي. أنت نارٌ في الغابة.

عبس أبي قليلًا:

- لا أعرف إن كان بإمكاني الضحك على ذلك.

- نعم (قالت أمي وهي تهزّ رأسها)، كان تعبيرًا خاليًا من أدنى مقدارٍ للحساسيّة.

فرك أبي ذقنه:

- ربّما لو قلتِ حريقًا تتمّ السيطرة عليه في الغابة.

- نعم، أردتُ أن أتذاكى، لكنني تخشّبتُ.

هتفَ أبي:

- يا للروعة! يا لها من ضربة مُرتدّة رائعة يا حبيبتي!

ثم جولة ثانية من روتين المصافحة.

سألني أبي:

- هل سجّلتَ ما جرى؟ سجّلتَه، صحيح؟

- للأسف (قلتُ مؤكّدًا).

توقّف رجل ركن سيارته بجانبنا عن تحميل الزهور الأرجوانيّة في شاحنته الصغيرة، حتى يضحك بشكل هيستيريّ على ما يبدو. ضرب قبضته بطريقة خمّنتُ أن غايتَها تشجيعُ والديّ على الاستمرار في روتينهما شبه المحرج، ولكن المثير للإعجاب مع ذلك؛ يسمّي أبي هذه اللحظات «ر.ف.ا.ع.»: عرضُ الرّوعة في الأماكن العامة. هل هذا صوت القراء يمتعضون أم صوتي؟

- أوه! أنتما رائعان (صرّح رجل الأزهار الأرجوانيّة).

قلتُ للرّجل:

- إنهما معروضان للبيع.

- ما أفضل عرضٍ لديك لتقدّمَه؟

ظهر وجه ويت في وجهي من بين شجرتَي قرانيا صغيرة، وأبعدَت ذراعاها أوراق الشّجر في كِلا الاتجاهين. كدت أنسى أنّها كانت في المقعد الخلفيّ ثم هتفت:

- جمال، لا أصدّق أنك لست من عشّاق هذا! أنت من أذكى الناس الذين أعرفهم!

مكتبة ياسمين

أضاء وجها أمي وأبي مثل نافذة وجهة سياحيّة.

قال أبي:

- أوه! يا للروعة! مرحبًا بك على متن قطار الدعابات السيّئة أيتها الابنة المفضّلة!

قالت ويت:

- شكرًا لاستضافتي يا أبي..

أرخَت قبضتها عن الشجرتين، فضربتاها على وجهها، فتألمت: آآخ! ولم أستطع أن أقاوم:

- يبدو أن للأشجار طرائق في إيجاد نهايات فرعيّة!

أمي، التي أصبحَت في مقعد الرّاكب الأماميّ، مدّت يدها عبر أوراق الشجر لتضرب كفي عاليًا:

- ها هو ذا! ابني ذو الدعابات السخيفة! أهلًا بعودتك يا صديقي.

ضحكتُ:

- كنت أحاول أن أتفرّع في الحديث وحسب!

- هذا هائل! هل تشعرون بما أشعر به يا آل آندرسون؟ (قال أبي، وهو يشغّل السيارة) حبّنا في أعالي الصنوبر.

كان أبي يتبسّم، عرفتُ هذا، لأنه حتى مع وجود كلّ هذه الأشجار في الطريق، استطعتُ رؤية أجزاء من عينيه ووجهه في مرآة الرؤية الخلفيّة.

رآني أنظر، وغمز. ليتني غمزتُه بدوري!

قاد أبي السيّارة إلى الطريق. رنّت سماعات السيارة بسبب مكالمة واردة. ارتبك أبي أمام أزرار الهاتف، وضغط على أزرار عشوائيّة، فقد كان هو والتكنولوجيا كالماء والزيت. ورأيتُ رأسه يلتفتُ فجأةً إلى يساره، ورأيتُ عينيه تتسعان، مذعورتين، وكتفيه يرتعشان، وهو يمدّ يده إلى بوق السيارة، بينما تصطدم قدمه بدوّاسة **الوقود**. لكن كِلا ردّي الفعل كانا متأخّرين للغاية. صرخَت ويت. أصدرَت الإطارات الأربعة صوتًا حادًّا. تجعّد المعدن وانطوى، عبرنا مسارَين حتى تحوّلَت سيارتنا إلى شيء جديد يشبه ورق الأوريغامي، لكن التأثير الثاني هو ما سبّب الضرر.

مكتبة ياسمين

لم أنظر من نافذتي. لم أُفارِق عينَيْ أبي.. برعبِهما القاسي والوحشيّ، كأنه قد فتح بابًا، ووجد حريقًا.

درنا ثلاث دورات ونصف قبل أن تتوقّف السيّارة أخيرًا. في لحظة ما أثناء ذلك، أسقطتُ الكاميرا، لكنّها واصلَت التّسجيل. جعل الحادثُ البوق يظلّ يُصدر صوتًا متواصلًا، لذا كان من الصّعب سماع أيّ شيء آخر. «جمال، هل أنت بخير؟ جمال! جمال!». واصل البوق في إصدار تلك النغمة الفظيعة؛ الطويلة والصاخبة.

توقّفنا بشكل عرضيّ على الطريق، ومالَت واجهتنا الأماميّة في حفرة تصريف. تسعُ أشجار صغيرة كانت لا تزال في مقعدنا الخلفيّ. اخترقَت عشر شجرات الزّجاج الأماميّ المكسور من خلال نافذتَي السائق والراكب الأماميّ المحطمتَين. عندما سحبَنا عُمّال الإطفاء ببطء، رأيتُ أشجار القرانيا متناثرة عبر الطريق. لا أعرف لماذا عددتُهم، لكنني فعلتُ. معرفةُ أشياء من قبيل عدد الأشجار أو أنّ السّاعة كانت 11:34 صباحًا، أو أن الخيارات تقلّصت إلى يومَي السبت أو الأحد، وأجرينا تصويتًا، وفاز ثلاثةٌ مقابل واحد، بالتصويت ليوم السبت، لأنه كان من المفترض أن يكون الطقس مثاليًّا، بدا أن هذا سيكون مهمًّا لاحقًا. لم يكُن من المستغرب أنّ ويت صوّتَت ليوم الأحد؛ كانت دائمًا تختار أبعد موعد لكلّ شيء. قالت إنها تحبُّ أن يكون لديها شيء تتطلّع إليه لأطول فترة ممكنة، ولكن ها أنا جالسٌ في مؤخّرة سيّارة إسعاف صفراء بينما يفحصنا المسعفون، والرّائحة النفّاذة للمطهّرات تلسع عيني وأنفي، كلّ ما أراه هو الخوف على وجه ويت، وألمُها يُشعّ مثل الجرح الأحمر على خدها. وجدوا خمس شتلات على بُعْد سبعين ياردة من مكان الحادث. الشتلة الأخيرة.. كانت الشيء الوحيد المتبقّي في المقعد الأماميّ.

«مرحبًا (قال صوت منفصل عن المشهد) أنتما هنا، سيّد آندرسون؟ سيّدة آندرسون؟»

لم يخطر ببالي أن أعرف من اتّصل إلا بعد عدة ساعات، منتصفَ الليل.

قال الصّوت: «ذكرى زواج سعيدة! أعرف أنه عمليًّا موعده الغد، لكنني أردت أن أستبِق فقط....».

مكتبة ياسمين

50

تركتُ هاتفي، ثم أمسكتُه مجدّدًا.

إلى أوتوم: هل يمكننا أن نتحدّث؟ هل بإمكاني الاتصال بك؟

49

أوتوم: لقد نسيتُ أنّ هذه الأجهزة مُصمّمة للاتصالات، هاها.

48

كدت أتبوّل من المفاجأة عندما نقرَت أوتوم على النّافذة، وهي تضحك، وتضغط شفتيها على الزّجاج مثل ابتسامة بيكاسو. فتحتُ النافذة، وقلبي يخفق، ويضرب على ضلوعي مثل حيوان يتخبّط في قفصه.

- شكرًا على النوبة القلبيّة! (قلتُ لها، وهي تدخل غرفتي).

نظّفَتْ نفسها، وضحكتُ:

- ما عاد الدخول من الباب الأمامي إحدى هواياتك، أم ماذا؟!

هزّت رأسها مبتسمة:

- كنتُ أحاول أن أكون رومانسيّة، محاولةً استرجاع الأيّام الخوالي.

- تقصدين كلّ تلك الأوقات التي تسللنا فيها إلى غرف بعضنا بعضًا، وقُبِض علينا؟

أصابَتني بمسدسٍ صنعَته بأصابعها، وغمزَت:

- تمامًا.

عبستُ:

- طيّب، بدأت أظنّ أنّ هذه هي مشكلتي بأكملها؛ التشبُّث بالأيام الخوالي. لعلّ أحسن ما نفعلُه هو ترك الماضي خلفنا.

- أخمِّنُ أنّ هذا يتعلّق بعرضك المسرحيّ الذي أقيم ليوم واحد فقط خارج نادي الأفلام بعد المدرسة؟

- عرفتِ بالأمر؟

مكتبة ياسمين

هزّت كتفيها:

- الجميع يعرفون دون شكّ. يبعث لي الناس برسائل ليتأكّدوا من أنك بخير.

تأوّهتُ:

- بجديّة؟

قالت بهدوء:

- عليك أن تضع الأمور في نصابها.

- ماذا لو فات الأوان؟

- هل تشعر أنك بذلتَ ما في وسعك اليوم؟

هززتُ كتفي:

- على الأغلب لا. أقصد، حدث ذلك بسرعة. كان كلّ شيء مُستعجَلًا و...

أومأت برأسها، وقالت:

- لديك المزيد لتفعلَه إذًا. فعلُ الشيء الصحيح لا يقتصر على مسامحة كيو لك يا جاي فقط. لا يمكنك التحكم في ذلك، ولكن عندما تنظر إلى الوراء في الأسبوع المقبل، أو بعد عشر سنوات، أو في أي وقت، ستريد أن تعرف أنك بذلتَ كلّ ما في وسعك.

كنتُ أعرف أنها على حق.

نقرَت بأصابعها وسط صدري:

- التخلّي الذي تواصل الحديث عنه؟ لا يتعلّق الأمر بالتّخلي عن مشاعرك السيّئة بشأن كيو، بل ألّا تلوم الآخرين على اختياراتك وأفعالك بعد الآن؛ أن تكون آسفًا بحقّ عندما تقولُ إنك آسف، أو الأفضل من ذلك، أن تتوقّف عن إيذاء الناس، يا رجل.. أن تتوقّف عن الهرب. أنت تستحق أن تكون سعيدًا.. كلّنا نستحقّ.

وانهالَت الدموع؛ دموعها ودموعي.

وعندما غادرَت أوتوم، أخذتُ نفسًا عميقًا، وضغطتُ على رقم كيو.

مكتبة ياسمين

47

رسالة صوتيّة إلى كيو: «لا أتوقّع منك الردّ على رسائلي. قد لا تتحدّث معي مرّة أخرى. قد لا أحظى بفرصة التحدّث إليك مجدّدًا، لكن فكرة أنّ ما قلتُه اليوم قد يكون آخر كلمات تسمعني أقولها... لا أستطيع ترك ذلك يحصل. اسمع، يقبعُ جمالٌ قبيح وغاضب بداخلي. ولمُدّةٍ طويلة، تركتُه يفعل ما يشاء. لقد تألّم جدًّا. وانكسرَ جدًّا، ولكن ذات يوم ما عادَ بداخلي وحسب.. صار أنا.. صرتُه.

لو كنت مكانك، كنت لأتسلّق من تلك النافذة، وأبرحني ضربًا. ظننتُ أن مسامحتي لك أخيرًا، وإخباري لك بالحقيقة كما أراها، كانت تعني أنّ عليك تقبُّلَها، وتفهُّمَها.

تخيلتُنا نتعانق وننسى الأمر، أو حتى نبكي. حسنًا، أن أبكي أكثر منك غالبًا، أعترف بذلك.

تعرف ماذا تخيّلتُ أيضًا؟ سوف تضحك كثيرًا عندما تسمع هذا. تخيّلتُ أننا سنقول لبعض «أحبّك» دون أيّة سخرية، لأننا كنا أصدقاء بهذا القُرب، لأنني ذاتَ مرّةٍ، ظننتُ أننا سنظلّ أصدقاء بهذا القُرب دائمًا.

لكن هاك ما لم أستوعِبه!

عندما تترك شخصًا ما، حتى لو رأيت الخطأ في تصرّفاتك، حتى لو اعتذرت بمرارة، فهذا لا يهمّ، ولا يدين لك بالمغفرة؛ ليس عليه أن يسترجع صداقتكما.

وبصراحة يا كيو... بسبب الطريقة التي عاملتك بها، يجب ألا تسترجع صداقتنا. يجب ألا تبذل وقتًا حتى للاستماع إلى هذه الرّسالة الصوتيّة الطويلة، وقد لا تفعل. لعلّك توقّفت عن الاستماع منذ وقت طويل. إذا كان الأمر كذلك، فهنيئًا لك. أتفهّم هذا، وآمل أن تجد كلّ السعادة التي تستحقّها، وألا يؤذيك صديقك المقرّب التالي كما فعلتُ، لكن يا كيو... ومع الاحتمال الضئيل بأنك ما زلت تستمع، فأنا آسف، وهذه المرّة، ما من أعذار، ولا تفسيرات مُرفقة، أنا آسف تمامًا وكثيرًا فقط. ولديّ المزيد لأقوله، لكنني لن أواصل الكلام، لأن ذاكرةَ هاتفك دائمًا ما تكون ممتلئة، وإن تابعتُ فقد لا تصلُك حتى هذه.

مكتبة ياسمين

حسناً، تصرُّفي يوحي بأنّ هذا لا يزال صحيحًا بشأنك، بينما في الواقع، كان هذا صحيحًا قبل عامين فقط. ربّما تمتلك الكثير من الذاكرة، ربّما تسبح في الكثير من الغيغا بايت، ولعلّني قلتُ تلك الأشياء المتعلّقة بعدم وجود ما يكفي من الذاكرة، لأنني كنت أبحث عن سبب لأُنهي هذه الرسالة، وأطلب منك مقابلتي شخصيًّا.

لعلّك تسمعُني.

وإذًا.. هذا كلُّ ما في الأمر.

البئر وغطاؤها. الخميرُ والفطير.

هل كنت تعرف أنّ المقصود في المثل ليس فطيرة فعلًا؟

كان أروع لو قُصِد فطيرة.

سلامٌ يا كيو».

مكتبة ياسمين

اليوم الثاني

تبقّى 22-26 يومًا تقريبًا من حياة كيو

مكتبة ياسمين

46

لم أنَم كفايَتي، فآثار دفن الأحقاد العاطفيّة تتضمّن الإثارة. شعرتُ بحماسٍ أصيل، ولم يَسعني إلا أن أتمنى لو كنت قد بُحْتُ بما في قلبي من قبل. أدخلتُ هاتفي داخل غطاء الوسادة وخارجها، وتحقّقتُ من رسائلي، على الرغم من أنّ كلًّا من نغمة الرنين والاهتزاز كانا مُفعَّلَين، بحيثُ أسمع الرنين، وأشعر بالاهتزاز إذا ردّ، لكنني واصلتُ التحقُّق على أيّ حال. ربّما هذا جزء من كفارتي أيضًا؛ ألا أعرف ما يحدث، مما يُكمِل الحلقة، لأنّ هذا ما فعلتُه بكيو؛ تركه دون إجابات.. دون نهاية.. دون أن يجد سببًا.

بعدها، قبل أن يرنّ منبّهي بعشر دقائق، سمعتُ رنّةً.

45

كيو: انسَ رقمي إلى الأبد.

44

حسنًا، لن أكذب عليكم. كان ذلك مؤلمًا أكثر من «قليلًا».

43

فكّرتُ في ترك المدرسة كليًّا، فمن يحتاجها؟ لم أشأ المخاطرة حتى برؤية هذا الفتى، لكن السيّدة سويت ظهرَت في مُخيّلتي، وهي تُردّد: «لا تنجرف يا جمال!»، وقالت ويت: «نعم، فكّر في مستقبلك». بينما ارتدَت أوتوم قميصًا مطبوعٌ عليه «جامعة ويتير»، وقالت: «مستقبلنا يا حبيبي». ولم يسبِق أن فزتُ بأيّ جدال مع أيٍّ منهنّ بشكل فرديّ. ما كان من طريقة لردعِ ثالوث كاملٍ من «نحن نهتم بك». لذلك تأوّهتُ، وأنَنْتُ ثم تدحرجتُ خارجًا عن السرير. لم أكن أخطط للادّعاء بأنني أتلوّى من الداخل.

مكتبة ياسمين

معظم اليوم، ظلّت معدتي معلّقة في حلقي حصريًّا، ولكن بعد أن استمعَت أوتوم إلى رسالتي الصوتيّة، أخبرتني أنها فخورة، لأنني فعلت الصّواب أخيرًا، وذكّرتني أنه حتى الآن، لا يدين لي كيو بالعفو.

وطوال اليوم، حتى عندما يكون فصلها على بعد مليون ميل، كانت أوتوم تظهر من لا شيء مثل النينجا، إنما لتنشر العناق والقبلات، ورغم ذلك، تزايدَ توتّري مع اقتراب الحصّة السابعة، لكن بعدها أدركت أمرًا رائعًا؛ لم أكُن أتجنّب كيو بسبب غضبي، أو لأنني أحمل ضغينة. نعم، لقد توقّفت رسميًّا عن حمل عبء ضغينة كيو البالغ من العمر سنتين، بل كنتُ أتجنّب رؤيتَه، لأنني حزين.. لأنني كنت أتمنّى أن تكون نهايتنا أكثر سعادة مما كان، بطريقة غريبة، تقدُّمًا.

- أعتقد أنني سأمرض

قلتُ وأنا أفرك معدتي بين الحصّة الخامسة والسادسة: نعم، لعلها الأنفلونزا أو...

- ليس موسم الأنفلونزا يا جمال.

- نعم، طيّب، لم أدَّعِ أنني طبيب. كلّ ما أقولُ هو أنني...

- لن تتغيّب عن الحصّة السابعة. لا مزيد من الغيابات، أتذكُر؟

تنهّدتُ:

- نعم، ليتني لا أذكر!

لكن بالطبع، في النهاية، كان كلّ القلق بلا طائل. فهذه المرّة، طوال الفترة السّابعة من حصّة اللغة الإنجليزيّة، ظلّ كرسي كيو فارغًا.

عندما رنّ جرس الانصراف، رميتُ درّاجتي في الجزء الخلفيّ من سيّارة أوتوم، وسمحَت لي بتشغيل جميع أغانيّ المفضلة، وعلى الأقل بيننا، كان كلّ شيء كما الأيّام الخوالي.

لكن بعدها:

- هيه، لقد نسيتِ أن تنعطفي (قلتُ وأنا ألتفِتُ خلفًا).

سألَت، وهي تغمز:

- أوه! هل فعلتُ؟

- إلى أين نتّجه؟

مكتبة ياسمين

هزّت كتفيها:

- أعتقد أنّ عليك أن تنتظر لتعرف.

بمجرد وصولنا إلى منحدر الخروج من الطريق الرئيسيّة، بدا الأمر كما لو شعرتُ أنّ وجهي صار له دماغٌ خاصٌ به، وتحمّستُ للغاية:

- مهلًا! هل نحن ذاهبان إلى..

رفعَت أوتوم حاجبيها مرتين:

- أوه! نعم يا حبيبي.

ثم ضربنا كفّينا ببعضهما بعضًا بشكل غير موفّق، لكن من يهتم بعدم التوافق، فقد كنّا في ذلك المكان. ذلك المكان! حتى على بُعد كيلومترٍ، كان بإمكانك أن تشمّ الإثارة؛ مزيجًا من كعكة قمعيّة بالسكر المسحوق، والأدرينالين المتصاعد من المعادن. مع كلّ لافتة تقول: «من هنا»، يرنُّ صدرك كما لو كنت سلكًا حيًّا، وتصبح معدتك دوّامة مندفعة من «أنا سعيد جدًّا»، و«سوف أتقيّأ». هذا هائل! توقّفنا أمام عاملة ركن السيارات، وكانت تحيّتُنا لها أقرب إلى الغناء.

- اخترتما فترة ما بعد الظهر المثاليّة للقدوم إلى أفضل حديقة ترفيهيّة على الكوكب (قالت العاملة، وهي تعطيني الفكّة)، سيكون يومًا رائعًا!

قالت أوتوم:

- نعتقد ذلك.

- كلّ يوم رائع مع هذه الآنسة (قلتُ مبتسمًا).

قال عاملٌ، وهو يمسك قلبه:

- يا للطف! أنتما ظريفان للغاية.

- خريطة؟

سأل شابٌ أشقر يرتدي الزيّ الرسميّ للحديقة، وقميص بولو أحمر بأكمام زرقاء، وسروالًا قصيرًا ضيّقًا.

- خريطة؟! (لوّحتُ بيدي مُستنكرًا، وتأففتُ) لسنا بحاجة إلى خريطة كريهة. هذه حديقتنا. هذه الأفعوانيّات تسري في عروقي!

قال الشاب الأشقر مبتسمًا:

مكتبة ياسمين

- لقد أضفنا ثلاث أفعوانيّات معدنيّة، واثنتين خشبيّتين، وعشرة ألعاب إضافيّة منذ الصيف الماضي.

أخذتُ الخريطة، لكنني لم أنظر إليها على الفور، لأنّ المبادئ مهمّة.

توقّفنا لالتقاط صورة دخول سريعة مع مصوّر الحديقة:

- بعد العَدّ إلى ثلاثة، قولا «الأفعوانيّات الهائلة»!

هتفنا ونحن نقفز في الهواء:

- الأفعوانيّات الهائلة!

سألَت أوتوم:

- إذن، ما الذي يجب أن نركبه أوّلًا؟

قلتُ:

- تعرفين سابقًا.

قالت أوتوم:

- مهلًا، هل أنت متأكّد أنّك تريد الذّهاب مباشرة إلى ذلك؟

أومأتُ برأسي بحماسٍ شديد، وأنا أفرك يديّ معًا، وكأنني أشعل النار.

- ألا تريد رحلة إحماء أوّلًا؟

- ماذا؟ هل أنتِ خائفة؟

قالت أوتوم ساخرة:

- لا أخاف قط. كلّ ما أقولُه هو أنك -على حدّ علمي- لم تجلب ملابس داخليّة احتياطيّة.

ابتسمتُ، ووضعتُ كفي أعلى رأسها:

- ربّما يجب أن نتأكّد من أنك طويلة بما يكفي أوّلًا، أليس كذلك؟

أفلتَت من قبضتي، ودفعَت ذراعي بعيدًا:

- لذلك، سأجعلك تركب في المقدّمة.

هززتُ كتفي:

- كيف تكون هذه عقوبة؟

مكتبة ياسمين

وقفنا في طابور أفعوانية «مدمِّر أطلس» ما يقارب الساعتين، لكننا اندفعنا أخيرًا عبر البوّابة الدوّارة. حان وقتنا، وشعرتُ بتسعة وسبعين مستوىً من المجد. أمسكتُ كتف أوتوم قائلًا:

- لا يزال لديكِ وقت للتراجع. لن أبوح بالأمر سوى لعدّة أشخاص.

ضحكَت:

- هل تعطي نفسك خطابًا حماسيًّا يا جاي؟

- كم يبلغ ارتفاع هذه؟ (سألتُ عامل الأفعوانيّة).

ضحكَت:

- خمسة عشر مترًا، مع أربع حلقات، وستة تلال، وخمسة أنفاق شديدة السّواد.

- ولم يمت أحد؟! أومأتُ نحو أوتوم: أسأل من أجل صديق.

- يا للهول يا جاي! يا للهول! كان ذلك مذهلًا! أفضل ثلاث وتسعين ثانيةً في حياتي!

غمزتُها:

- لديّ إحساسٌ بأنّكِ عشتِ أفضل منها، كما تعرفين (قلتُ وأنا أخِزّ خاصرتَها بكوعي برفق).

- لاااا، هذا كان الأفضل (دندنَت وهي تجري في المخرج، وطاردتُها).

حديقة الألعاب المفضّلة لديّ، والإنسانة المفضّلة لديّ، ما الذي قد يكون أجمل؟

وبعد ذلك، وقفنا في طابور للحصول على البطاطس المفضلة لدينا، وفكّرتُ: «طيّب أيها الكون، أراك وأنت تحاول أن تعوِّض لي»، لكن فجأةً، هتف صوت باسمي من الخلف، ولوّحتُ بقبضتيّ في السماء لأنه لا.. لا تزال تُمارس ذات الحيَل.

42

لم أصدق عينيّ. ما هذه الصدفة؟

- لستَ هنا لحذف رقمك بنفسك من هاتفي، أليس كذلك؟

وحاولتُ أن أبتسم، لكن الأمر صعب عندما يكون كلّ ما تشعر به هو الرعب.

مكتبة ياسمين

ماذا لو كان هنا لحذف رقمه، أو لركلي إلى كوكب المشتري؟ أو...

أغلق كيو الفجوة بيننا، وضرب يده الكبيرة على كتفي.

- هل تريد أن نتحدّث أم لا؟

قلتُ:

- هاه؟ مهلًا! ترغب بأن نتحدّث؟

هزّ كتفيه:

- ماذا؟ كنت تعتقد أنّ هذا مثل الأفلام حيث تدخل شخصيّتان رئيسيّتان في صراع يبدو مستحيل الحلّ، فتنقطع علاقتهما تمامًا ليس فقط عاطفيًّا بل جسديًّا أيضًا، ثمّ ويا للمفاجأة! يلتقيان في المكان الأقلّ ترجيحًا، إنّما المناسب للغاية والرائع، حديقة الألعاب على سبيل المثال؟

- هذا بالضبط ما اعتقدتُه، نعم.

فهمتُ ما يجري في النهاية، وحدّقتُ إلى عينَيْ أوتوم، ثم في عينَيْ كيو، ثم عدتُ إلى أوتوم، ثم إلى كيو.

- أشمّ رائحة مؤامرة. أنتما من خطّط لهذا، أليس كذلك؟

وبالكاد كنتُ قد وضعتُ علامة الاستفهام في نهاية جملتي عندما صرخ الاثنان معًا:

- يا إلهي! نعم يا جمال!

41

لم يتواصل كيو بصريًّا معي ولا للحظة. وضع يديه على مؤخّرة رأسه، كما لو كان يسترخي في أرجوحة شبكيّة، لا كأنّه يجلس خارج حديقة الحيوانات مع صديقه الأقرب السّابق.

في البداية، كنت على استعداد تامّ لبدء المحادثة، لكن عندما بدأتُ، لوّح ليُسكتني. لذا، ها نحن جالسان بصمت دون أن ننظر إلى بعضنا بعضًا.

ثم أخيرًا قال كيو:

- ظللتُ أنتظر مجيئك. كنت أعرف أنّك ستفعل، لكن والدي ظلّ يمرض أكثر فأكثر، ولم أجد طريقة للتواصل معك.

مكتبة ياسمين

قلتُ:

- أعرف، لأنها الحقيقة، ولأنه ما كان من شيء لأقوله سوى: أنا آسف جدًّا.

- لماذا؟

- لأنني كنت غاضبًا.. لأنني لمتُك على... أشحتُ بنظري، لكنني أجبرتُ نفسي على الالتفات مجدّدًا. (سمعتُ صوت أوتوم. تحمّل المسئولية يا جمال)، لمتُك على الحادث. أقنعت نفسي أنك لو لم تتصل، فكانا ليظلّا على قيد الحياة!

- لا أستطيع أن أصدّق أنك فعلت ذلك... واو، هذا مؤلم حقًّا. أحببتهما مثل والديّ!

أومأتُ برأسي:

- أعرف. لقد كنتُ مخطئًا.

- نعم، كنتَ كذلك.

- ألقيتُ باللوم على والدي أيضًا.

- لماذا؟

هززتُ كتفي:

- لأنّه كان يحاول الردّ على مكالمتك، لكنه لم يستطع معرفة الطريقة.

بدأ صوتي ينهار:

- ولكن هذا كان خاطئًا أيضًا! كانت تلك أكاذيب قلتُها لنفسي، لأنني كنت غاضبًا، ولأنني كنت خائفًا.

- ما الذي أخافَك؟!

- الكثير من الأشياء. أدركتُ فجأةً حدود سيطرتي على أشياء كثيرة؛ أن الكمّ الهائل من الحبّ الذي تُكِنُّه لشخص ما، لم يحمِه من التعرّض للأذى. كنت أخشى أن أتأذّى مرّة أخرى. قرّرتُ... قرّرت أنّه إذا كان بإمكاني التوقّف عن الشّعور، فلا شيء يمكن أن يجعلني أشعر بهذا السّوء مرّة أخرى.

هزّ كيو رأسه:

- وأفهم كلّ هذا، لكن مع ذلك، ما كنتُ لأتصرّف هكذا معك. لم أتصرّف هكذا معك يومًا.

- كيو... أنا...

مكتبة ياسمين

وخز إصبعُ كيو صدري:

- هل تعتقد أنك الوحيد الذي تأذّى يا جمال؟

- هذا... هذا... ليس...

- لا أحد يعرف الألم مثل جمال. لا أحد يتألّم بقدر ما يتألّم جمال. والداك، كانا والديك فقط، وليس والدَي ويت، أليس كذلك؟ ألم يشعر أحدٌ سواك بهذه الخسارة؟ وتشعر بالسوء، لأنّ أختك تريد أن تساندك؟ هل تعتقد أنّها أخذت تأجيلًا ملعونًا من جامعة أحلامها حتى تتمكّن من تخريب حياتك؟ هذه هي الطريقة التي تشكرها بها؟ هذه هي الطريقة التي تحترم بها إرث والديك؟!

حاولتُ إبطاء ما يجري، لأنه كان يحصل بسرعة هائلة، لكن لم يُظهِر كيو أيّة علامات تدلُّ على أنّه على وشك التأنّي أو التوقّف.

- كيو، اسمعني... أنت لا تفهم...

عاد إصبعه إلى صدري:

- ليس لديك أدنى فكرة عمّا أفهمه، أو ما تفهمُه ويت، أو أمي، أو أيّ شخص. وكيف يمكنك أن تعرف يا جمال؟ مدّة عامين كنت تهتم بنفسك فقط.

- كيو...

- على عكس ما تعتقد، لا نولد لنجلس، وننتظر حدوث الأشياء السيّئة. لا نولد لنموت. لكن... لكنه سيصيبُنا جميعًا، وما يعنيه ذلك هو أننا سنفقد أشخاصًا على طول الطريق؛ أشخاصًا مهمّين للغاية، أشخاصًا لا يمكننا تخيّل العيش دونهم. نموتُ يا جمال، ولا بأس بهذا. يمكنك التّحدّث عن الأمر. يمكننا أن نتحدّث عنه، وإلا فإنّه سيستنزفُك كليًّا يا رجل. بدلًا من ذلك، نحن بحاجة إلى أن نعيش أفضل حياة ممكنة دون خوفٍ، إن استطعنا.. دون قلقٍ، إن أمكن، حاملين أقلّ قدرٍ ممكنٍ بشريًّا من الحزن، حسنًا؟ أمسك كتفي، وتابع: لكن يجب أن تتوقّف عن المشي، وكأنك ميت، لأنّك تقتل الجميع، يا رجل. لأننا سئمنا جميعًا من مشاهدتك تخرّب نفسك وتدمّرُها، لأنه أمر مروّع أن تتساءل متى ستنجح وتنفجر في النهاية إلى مليون قطعة، لأنّ قطعك رائعة يا جاي، لأنه عندما تتوافقُ قطعك... عندما تعمل معًا بتناغم، تكون قطعًا عظيمة

مكتبة ياسمين

يا رجل. فعلًا.. أنت على قيد الحياة، ولا بأس بذلك، بل أكثر من لا بأس، إنه أمرٌ عظيم. دعهُ يكون عظيمًا.

وما عاد باستطاعتي سماع المزيد، لكنني أردتُ أيضًا أن أسمع كلّ ذلك مرّة أخرى. تشبّثتُ بكيو، وفي البداية دفعني مطوّلًا، لكن للمرّة الأولى منذ وقتٍ طويل حسب ذاكرتي، لم أستسلم وحسب، بل تمسّكتُ بقوّة أكبر وأكبر، ورغم أنه أقوى منّي كثيرًا؛ مُراوغٌ، ومرنٌ عند الضرورة، تمسّكتُ به.. تمسّكتُ بقوة. كان بإمكانه أن يدفعني بعيدًا بسهولة لو أراد، لكنه لم يفعل، مما كان إيجابيًّا. وبعد ذلك، بعد أن رمقَنا عشرات من الأشخاص بنظراتٍ غريبة أثناء مرورهم، حضنني في النهاية. حسنًا، كانت أشبه بتربيتة على ظهري.. بأطراف أصابعه.

وقفنا هناك، ورُمقنا بكميّة لا حصر لها من النّظرات الغريبة. كانت ذراعاي مثبّتتين حوله، وهو يربّت على ظهري بأطراف أصابعه. ولا، لا يمكنني إخباركم إلى متى، لأنّ المدّة.. المدّة التي يستمرّ بها الشيء الجيّد، غير مهمّة على الإطلاق.

- هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالًا آخر قبل أن ننهي جلسة العلاج هذه؟

نظر إليّ موافقًا.

- ما الذي جعلك تغيّر رأيك؟ ما الذي جعلك تأتي اليوم؟

- أخبرتني أوتوم أنك لن تحظى بسلام حقيقيّ حتى أسامحك.

مزيدٌ من الأدلّة على حقيقة أنني لا أستحقّها!

- ولكن في الواقع، كان ذلك تدعيمًا لأشياء أخرى جرَت. هذا الصباح، بعد أن أرسلت لك تلك الرسالة، ذهبتُ لتناول الإفطار. وفي الظاهر، لم يكن هناك شيء مختلف عن أيّ صباح آخر إطلاقًا، صحيح؟ نعيشُ أنا وأمي في روتين بالغِ التنظيم؛ كانت تُعدُّ طبق ويفوز رانتسيروز[1]، بينما صنعتُ القهوة، ولست متأكّدًا إذا كنت تتذكّر، لكنها ليست شخصًا صباحيًّا.

أومأتُ مؤيّدًا:

- أتمزح؟ كان هذا أحد أفضل ما في النّوم في منزلك، لم تكن تستيقظ قبل العاشرة.

---

(1) طبق مكسيكيّ مكوّن من البيض بشكل أساسيّ

مكتبة ياسمين

- صحيح (ضحك كيو) ما عدا هذا الصباح، كادت تثقب أذنيّ لكثرة ما تحدّثَت. قالت إنها ظلّت مستيقظة طوال الليل، تتقلّب وتتقلّب. قالت إنّ شعورًا غريبًا دعاها لتجد شيئًا.

- مثل ماذا؟

- لم تكن تعرف. راودَها شعورٌ وحسب. لذلك، كانت تمشي في جميع أنحاء المنزل، وتقف في جميع الغرف، وهي تبحث فقط عن...

- علامة.

- كنت سأقول رسالة، لكن العلامة تفي بالغرض. وبعد ذلك وقفت في مكتب أبي القديم، الذي كانت تُخليه ببطء. هل تتذكّر لوحة الحائط الخاصّة بأبي؟

- ممم... لا يمكنني أن أنسى حتى لو حاولتُ. إنها أكثر شيء مُلهِم رأيته في حياتي.

وقد كانت كذلك بالفعل. عندما شُخِّص والد كيو لأوّل مرّة، وكنا في العاشرة من العمر، كان يعتريه الاكتئاب بطبيعة الحال، لذلك خطرَ على باله أن يُعلّق لوحة حائط يُثبّتُ عليها الأشياء السعيدة؛ الأشياء التي كان ممتنًّا لها، الأشياء التي جعلته يبتسم، أو يضحك. ثبّت قصصًا مصوّرة، وقصائد، وجُملًا من كعكات الحظ، ومقالات من المجلّات، وعندما يسمع شيئًا يُعجبُه، كان يُدوّنُه ويُثبّتُه أيضًا. ثم طلب من السيّدة «بي» وكيو إضافة ما يريدانه أيضًا. ثم نقلها من مكتبه إلى غرفة المعيشة، وكلّما زارهم شخص ما، أو صديق، أو أحد أفراد الأسرة، أو زميل في العمل، أو حتى عامل شاحنة التوصيل، كان يُظهر لهم السبورة، ويخبرهم أنّه يريدهم أن يضيفوا شيئًا ما إلى اللوحة في المرّة القادمة التي يراهم فيها. وقد فعل ذلك الجميع تقريبًا. كان هناك شيء من والديّ على تلك اللوحة. كانت تفيض بقصاصات الورق.

- نعم، حسنًا، بعد وفاة أبي، أعادتها إلى مكتبه. بصراحة، افترضتُ أنّ ذلك حرّك فيها مشاعر حُزنٍ أكثر مما كانت فرحًا، لأنه بعد أن بدأ مرض السرطان في الشفاء، اعتاد أبي أن يخبر الجميع أنّ اللوحة هي مما تصدّى له، لكن بعد ذلك بالطبع... عاد على أيّ حال. وقفَت أمي في

مكتبة ياسمين

مكتبه، وهي تنظر إلى هذه اللوحة التي رأتها مليون مرّة، وتراجعَت عندما لفتت انتباهها إحدى أوراق كعكات الحظّ.

- هل كانت عبارة مثيرة للتفكير؟

-لا، كان هناك كتابةٌ على ظهرها.

- مهلًا، حقًّا؟!

- نعم، عنوان موقع ويب بخطّ يد أبي، لم تلاحظه أمي من قبل. لذا، كتبتْه في هاتفها، وقالت إنها فُتِنَت على الفور، وإنّ الشعور الذي راودَها تغيّر بداخلها، فعرفَت أن تلك هي العلامة.

- ماذا كان موقع الويب؟

- كان فيديو من «توبروَن»، وحاولتُ أن أقول إنني سأشاهده بعد المدرسة، لأن مدَّته كانت عشرين دقيقة، وكنتُ لا أزال مترنحًا من النوم، لكنها وضعَت كمبيوترها المحمول أمامي. وها أنا أشاهد مقطع فيديو حول العيش دون ندم.. حول توليد طاقة إيجابيّة في الحياة.. حول عدم اعتبار الوقت أو الحب أمرين مسلّمًا بهما.

ولثانية، تساءلتُ إذا كان هذا يُفضي إلى ما أتمنّى، أن تكونَ قد أخبرَته عن الإنعاش. لكن هذا غير ممكن، صحيح؟ يستحيل أن يكون في مزاج هانئ كهذا لو كان يعرف.

- ثم انتهى الفيديو، فشكرتُها لأنني لم أعرف ماذا أرادتني أن أقول، ولكن عندما كانت تضع البيض في طبقي، وضعت يدها التي تحمل الملعقة على كتفي، وقالت: كوينسي مايكل، أريدك أن تعدني بشيء واحد، فقلتُ: «حسنًا، ماذا؟»، وقالت: «أن تبذل جهدًا مضاعفًا لتعيش حياتك كما فعل والدك؛ بالفضيلة والشرف والمحبّة والرّحمة، أن تترفّع عن أيّ غضب أو أذيّة، وأنك ستفعل كلّ يوم شيئًا واحدًا يجعلك سعيدًا».

- أوه! رائع. هذا... هذا عميق.

أومأ كيو برأسه:

- نعم، لقد جعلني أفكّر، ماذا كان أبي ليفعل؟ ما الخيارات التي كان ليتّخذها؟ اعتاد دعوة الغرباء إلى منزلنا، لأنه كان يعتقد أنّ هناك شيئًا جيّدًا داخل كلّ شخص. أحبّه الناس، لأنه كان يُشِعُ إيجابيّةً.

مكتبة ياسمين

وكان ذلك دقيقًا للغاية، فالسيد «بي» أكثر شخص مسلٍّ قابلتُه على الإطلاق.

- ها أنا ذا.

- إذن، أنت تقول إن أوتوم لم تكُن السبب الرئيسيّ الذي جعلك تأتي؟

- أحبَّ أبي الجميع، لكنه أحبّك بحقّ. ما كان ليُريدني أن أحمل في قلبي أيّة ضغينة تجاهك، لكن أوتوم هي من استمرَّت في جعل هاتفي يضجّ حتى وعدتُها بالقدوم إلى هنا، لذا لها فضلٌ أيضًا.

- حسنًا، يجب أن ترسل لي رابط هذا الفيديو. أريد أن أراه أيضًا.

أومأ كيو موافقًا:

- أظنّه من السهل العثور عليه؛ كان منشورًا من قِبل المركز...

وكادت عيناي تخرجان من وجهي:

- هل قلتَ المركز؟

- نعم، مركز جراحة العظام. أعتقد أنّ مجموعة من أطبّاء العظام في كندا صنعوه قبل بضع سنوات، وانتشر بسرعة.

حسنًا، حسنًا، قد لا يكون المركز، لكنّه قريبٌ للغاية مع ذلك. وإذا لم يكن هذا على الأقلّ ذا معنى، فأنا لا أعرف ما الذي قد يحمل معنىً.

ابتسم كيو:

- كما أنّ أوتوم مقنِعة جدًّا، وفاتنة، وذكيّة، ورائعة للغاية. لا أعرف ما الذي يُعجبُها فيك!

دفعتُه بعيدًا، وهو يضحك، لكنني وافقتُ:

- مهما يكن، آمل ألا يختفي يومًا.

40

انتظرَتنا أوتوم عند مدخل إحدى الألعاب، وعندما اقتربنا بما فيه الكفاية، مددتُ يدي وأمسكتُ يد كيو، وبعد وهلة فهِم، ثم أخبرَني أنه سعيد برؤية أنني لم أضِع العامين الماضيين في النضوج. سألَته أوتوم إن كان يحب العناق، ثم تعانقا، وألقيتُ دعابة مفادها أنني وحيد، وأحبّ العناق أيضًا.

مكتبة ياسمين

وماذا يمكن أن يكون أفضل من هذا؟ الإنسانة المفضّلة لديّ حاليًا مع الإنسان المفضّل السّابق على جانبيّ، أفضل شطيرةِ جمال على الإطلاق. وكيف لا أكون سعيدًا عندما يكون كلاهما سعيدين جدًّا؟ جرّبنا العديد من الألعاب، وكان بانتظارنا المزيد من الأفعوانيّات، لكننا انتظرنا مؤقّتًا الجبن المقليّ على عصا..

كان كيو لا يزال مُتحمّسًا بسبب إحدى الألعاب التي تُدعى «الثأر»، وضرب لكمات في الهواء كما لو كان يصدّ المهاجمين الزُّرق. وإن كان قد توقّف عن الابتسام منذ أن خرجنا من اللعبة الأولى، فأنا لم أرَه، مما كان عظيمًا، لكنّه بالمقابل جعلني أشعر بالكثير من السّوء، لأنني لم أستطِع إلا أن أرى أن كلّ هذا المرح مبنيٌّ على كذبة. كان ينبغي أن يعرف كيو الحقيقة. لم يدِن أحد بأيّ شيء في تاريخ العالم أكثر مما كان يدين لي كيو بهذا. كان عليَّ أن أخبره، لأن الصّداقة هي أن يكون صديقك مُستعدًّا لإخبارك بالحقيقة المُرّة.

تنحنحتُ:

- هيه كيو؟

- ما الأمر؟

وبدا أن الغزاة في اللعبة خصوم أشدّاء، فقد زاد من قوّة لكماتِه الهوائيّة بشكل واضح.

- كنتُ... أنت... كنتَ لترغب بأن أخبرك لو كان هناك شيء مهمّ نوعًا ما، وكان متعلّقًا بـــ...

أخرج كيو هاتفه من جيبه، ونقر على الشاشة، وخرج من الطابور رافعًا إصبعه في وجهي كما لو يطلب مني أن أنتظر، وأنه سيعود بعد قليل.

سألَت أوتوم:

- ماذا كنت ستخبرُه؟

هززتُ كتفي:

- لا شيء. مجرّد فرضيّة.

عاد كيو بعد لحظات قليلة:

- عذرًا، كانت تلك أمي.

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

مكتبة ياسمين

- أظنّ هذا. كلّ ما في الأمر أنها لم تكن تعرف أنني قادم إلى هنا، ومُستاءة من أنني لن أتعشى معها (أعاد هاتفه إلى جيبه مجدّدًا)، على أيّ حال، هل كنت تقول شيئًا؟

هززتُ رأسي:

- أتعرف؟ لا شيء مُستعجل.

ماذا؟ ترفّقوا بي، حسنًا؟ إخبار صديقي بأنه قد مات هو شيء عليّ أن أُحضّرَه من أجله.

ضحكَت أوتوم:

- نلتهم أعواد الجبن، ثم نلعب جولة في «العرش الحديديّ»؟

أنَنْتُ:

- مجدّدًا؟

شبك كيو يديه الضخمتين معًا في صلاة:

- إنها المفضّلة لدي.

بحثتُ عن اللعبة على تطبيق الحديقة.

- سنقف على ذلك الطابور لأكثر من تسعين دقيقة يا رجل.

كانت يداه لا تزالان متشابكتين، وركع، ركعَت أوتوم بجانبه.

قلتُ:

- حسنًا يا شباب، انهضا.

- هل أنت متأكّد؟ لأننا لن نترفّع عن التذلّل (قالت أوتوم).

قال كيو:

- في الواقع، نحن نستمتع به نوعًا ما.

لكنني كنتُ أتظاهر بالاحتجاج وحسب، لأنني بصراحة كنت لأنتظرَ ضِعفَ ذلك الوقت، فلعبة العرش الحديديّ كانت بهذه الروعة.

قلتُ لنفسي إنني سأخبره بينما ننتظر؛ ساعةٌ ونصف تُعتبر وقتًا كافيًا لمحاولة شرح اليومين والنصف السابقين، صحيح؟ لكن لم أعرف كيف أبدأ.

- هيه كيو، هل تعتقد أنك على قيد الحياة الآن؟ هاها هذا مضحك، اسمع ما سأقولُه.

مكتبة ياسمين

لكنني لم أستطع أن أقول أيّ شيء، فقد كان هناك دي جي يعزف الموسيقى للجمهور، وبدأَت الفتيات أمامنا بمغازلة كيو: «يا إلهي! أنت طويل جدًا. كم يبلغ طول حبيبتك؟».

مما دفع كيو للبدء بإلقاء الدعابات. بجديّة، أدّى عرضًا كوميديًا كاملًا، وكنتَ لتظنّ أن بشرته الداكنة مكوّنة من الشوكولا بالفعل، لأنهنّ كُنّ يلتهمنَه. قبل أن أنتبِه، كنّا نربط أحزمة المقاعد، ونضرب قبضاتِنا.

- هل أنت مستعدّ للفعل هذا بهذا يا فتى؟

- هيّا بناا! (قلتُ مع بدء الجولة).

ولم يسعني إلا أن أتساءل إن كان كلّ هذا علامة: أوّلًا، المكالمة الهاتفيّة من والدته، ثمّ موسيقى الانتظار الصّاخبة للغاية، بالإضافة إلى الفتيات اللواتي ردّدَن «أنت مُضحك جدًّا، هل ستصبح كوميديًا؟»، وتناغمه بشدّة مع أوتوم.

هل كان الكون يتآمر ليخبرني أن هذا هو الأفضل لكيو؟ السماحُ له بالاستمتاع بأيامه الأخيرة دون القلق بشأن المستقبل؟ وفي الواقع، السبب الرئيسيّ الذي يدفعني لإخباره هو أنني أريده أن يستغلّ أيّامه الأخيرة على الأرض قدر الإمكان، أن يفعل كلّ ما يريده وفق شروطه.

لكن ألا يمكنني التأكّد من أن يحصل ذلك دون إخباره بأنّه يعيش في وقت مُستعار؟ ماذا لو كان بإمكاني المساعدة في تفصيل أفضل الأيّام على الإطلاق؟ ألن يكون ذلك أفضل بالفعل؟

عندما تركتنا أوتوم عند أطول طابور حمام في العالم، قرّرت أن أجسّ نبض كيو قليلًا:

- كيو، لو كان بإمكانك فعل أيّ شيء تريده في الأسابيع القليلة المقبلة، فماذا تفعل؟

لعق كيو قطع غزل البنات عن أصابعه الطويلة:

- أنت تعرف سابقًا.

- طيّب، ممم (قلتُ دون أن يخطر على بالي أيّ شيء) أعطني تلميحًا.

أصدر صوتًا، وقلّد شخصيّةً، وكان أداؤه مذهلًا ودقيقًا للغاية، لذا تظاهرتُ بأنني لا أعرف من يقصد حتى شعر بالإحباط الكافي.

- كندريك فالون؟ هل ما زلت تريد استضافة برنامج حواريّ ليليٍّ؟

مكتبة ياسمين

هزّ رأسه:

- أرسينيو هول.

جمع قبضته:

- من؟

رمقني كيو بنظرة، وكأنني طلبت منه أن يُدلّك ظهري.

- أرسينيو هول (قال مع التشديد على الحروف).

- أوه! لم أفهمها في المرّة الأولى، لكنني فهمتُها بعد أن قلتَها بصوتٍ أعلى.

انفجرنا ضاحكين.

- الرجل في مشهد النّادي من فيلم القدوم إلى أمريكا، الذي لم يكن إيدي ميرفي.

- لماذا لم تقل ذلك وحسب؟

- اعتاد أن يُقدِّم عرضًا في وقت متأخّر من الليل. استضاف كلّ النجوم في برنامجه. الجميع أَحبّ هذا الرجل. ابحث عنه. إنه مزيجٌ مثاليّ بين الفكاهة والسّحر. كان يدعو الناس، ويجعلهم يشعرون أنه كان يترقّب قدومهم. إنه مذهل.

- سوف أتفقده.

- نعم.. قدّر تاريخك الأسود.

ارتشفَ من شرابه:

- ماذا عنك؟ لو كنت تستطيع أن تفعل أيّ شيء تريده خلال الأسابيع القليلة المقبلة، ماذا تفعل؟

أشحتُ بنظري:

- أفعل ذلك سلفًا.

- بوو، أداؤك ضعيف يا رجل -قال ضاحكًا- ماذا؟ هل هذا هو الجزء الذي تخبرني فيه أنه ليس لديّ سوى بضعة أسابيع لأحيا وعليّ قضاؤها معك؟

- هل هذا سيّئ للغاية؟

مكتبة ياسمين

حاولتُ أن أسأل بشكل عرضيّ، إلا أنه كان عليَّ أن أظهر تعبير بوجهي، لأنّ كيو هزّ رأسه:

- واو! لماذا تبدو وكأنني سرقت جروَك؟ أُمازحك وحسب يا رجل. بالطبع تريد قضاء أيّامك الأخيرة على هذا الكوكب معي. هذا بديهيّ.

وللحظة تساءلتُ إذا كان كيو يعرف كلّ شيء بطريقة ما، مثل أن تكون الحقيقة محجوزة في اللاوعيِه، إلا أنه بين الحين والآخر ينجح في تسريب رسالة.

حدّق كيو إليَّ:

- الأرض إلى جمال. أنت بخير يا رجل؟

هززتُ كتفي:

- لست متأكّدًا مما أرغب في فعله بصراحة. لست مثلك. لم أُخطّط لكلّ شيء.

- لم أُخطّط لكلّ شيء!

- أنت متقدم عليَّ. كلّ ما أعرفه هو أنني لا أريد أن ينتهي بي الأمر بالسكن في قبو أختي.

ضحك كيو:

- حسنًا، لديك كثير من الوقت لتُخطّط.

ها هي الكلمة المكوّنة من ثلاثة أحرف مرّة أخرى: «وقت».

أضاف كيو، وهو يغمز:

- ولا تقلق، حتى لو كنت تقيم في قبو ويت، فستكون بالتأكيد ضيفًا في العرض.

- رائع، سآتي، وأروي قصصًا محرجة عنك.

ضحكنا، وضربنا قبضتَينا، إنما نقرتان سريعتان هذه المرّة، كما اعتدنا أن نفعلها.

ثم عادت أوتوم من استراحة الحمامات، وبعد ذلك أدّينا جولات في العديد من الألعاب، وأكلنا الكعك القمعيّ المفضّل لدي في حديقة الألعاب، مُحلّىً بالسّكر المطحون، ورفضتُ خلطات الفواكه رفضًا قاطعًا.

مكتبة ياسمين

- كان عليك أن تُضيفها، كنت لآكلها. أحبّ الفراولة.

- لا، هذا مستحيل.

خالفتني أوتوم الرأي بدورها:

- ولا حتى على الجانب؟

هززتُ رأسي بشدّة:

- أنا من المُحافظين في الكعك القمعيّ، آسف يا رفاق. تلك المنكّهات الاصطناعيّة لا يمكنها حتى مشاركة طبق مع كعكة السّكر الخاصّة بي.

ثم لعبنا بالسّيارات المتصادمة (يستحيل إيقافي! تسبّبتُ لكيو بدرجات من الصّداع الناجم عن التّصادم)، والسيّارات العتيقة (دائمًا ما تكون كلاسيكيّة! غمرَتنا أوتوم في غبارٍ عتيق!)، وتقليد عائلة آندرسون القديم (حتى أبي اعتاد أن يلعبها، وأقسمَ أنّ جميع الألعاب مغشوشة)، ومسابقة الرمايّة إلى ثلاث نقاط، التي -مهما تكن- فاز كيو فيها بسهولة، وربح لعبة باندا أرجوانيّة عملاقة ليتفاخر بذلك، وقدَّمها إلى أوتوم.

تظاهرتُ بالغيرة:

- يا رجل، لا تُقدّم الهدايا إلى فتاتي!

ضغطت أوتوم على الدبّ، وقالت:

- أخيرًا، رجل حقيقيّ.

ثم المزيد من الجولات، والمزيد من الجولات، والمزيد من الجولات، حتى شعرتُ أنني في جولة ما بين الجولات. لا أستطيع أن أحدّد عدد الجولات التي قضيناها.

حتى صعدنا على متن الأفعوانيّة الأخيرة لذلك النهار؛ النهار الذي أصبح ليلًا. وشعرت بألم شديد في رأسي، ولكن مقياس إبرة قلبي ما كان باستطاعته قياس مدى امتلائه. حسنًا، كان هذا تشبيهًا شنيعًا. هل ذكرت أنّ رأسي يؤلمني؟

هذه المرّة ركبنا على متن جولتي المفضّلة، السيّارة الأخيرة. كانت تتضمّن ثلاثة مقاعد في كلّ سيّارة، كإشارة من القدر، وارتفعنا عشرات الأمتار، لنسقط بعدها بسرعة تكفي لنترك أحشاءنا وراءنا، مما كان ترميزًا مثاليًّا للحياة، أليس كذلك؟ صنعَت الرياح القويّة رسومًا كرتونيّة من وجوهنا، وتناثر

مكتبة ياسمين

البعوض مثل القنابل، وغاص في أعيننا وأفواهنا، لكننا أبقيناها مفتوحة على أيّ حال، لأنه كان علينا أن نصرخ ونولول، ونسخر من بعضنا بعضًا. هل تغلق عينيك؟ أنت خائف! لأننا لم نشأ أن يفوتنا أيّ شيء. كنّا على قمّة التلّ الأخير عندما بدأت الألعاب الناريّة. نثرَات من اللون الأرجوانيّ والأصفر والأزرق هوَت معنا. ما كان بالإمكان أن يخطر على البال نهاية أفضل.

قبل أن نصل إلى المخرج، أصدر هاتف كيو رنينًا، وعرفتُ أنها والدته، إلا أنّ وجهه أشرق بطريقة لست متأكّدًا من أنني رأيتُها سابقًا؛ أمَالَ الشاشة نحو أوتوم التي صرخَت ببهجة، وبدأَت تدندن:

- كيو لديه فتاة، كيو لديها فتاة.

قلتُ مُحتجًّا:

- مهلًا، ماذا عنّي؟ أريد أن أرى!

ثم أراني إياها أيضًا؛ رسالة بريانا: «هل غادرتُم يا رفاق؟».

قلتُ، وأنا أدفعه ممازحًا:

- يا للروعة، يا أخي! هؤلاء الفتيات من الطابور؟ هل أعطيتهنّ رقمك؟

هزّ كيو كتفيه، وكأنه متفاجئ، لكنه لم يستطِع منع وجهه عن الابتسام:

- حسنًا، لا تضحك، لكنني كنت أبذل جهدًا على هذا حقًّا. كنتُ أحاول أن أجِد فتاة، لكنني بصراحة لم أتوقع أن ينجح الأمر!

- لماذا قد أضحك؟ ولماذا قد لا ينجح؟

- لأنني طوال هذه السنوات كنت فاشلًا نوعًا ما.

- كيو...

رفع يديه:

- لا بأس يا رجل، أنا متصالح مع الأمر. أعرف من أنا، وما كنتُ عليه، ولا بأس.

أدار رأسه، واتّجهَت عيناه نحو موقف السيارات الذي كان يخلو بسرعة.

أومأت أوتوم برأسها:

- كيو، لا أحد منا يعرف هُويّته، كلنا أعمالٌ قيد التنفيذ.

لم يُجِب.

مكتبة ياسمين

بدأتُ الحديث مجددًا:

- وإذًا يا رجل، هل ستُجيب عن رسالتها، أم أنّك ستمثّل أنك متمنّعٌ؟

نظر إلى عينيّ:

- ماذا يجب أن أقول؟

ابتسمَت أوتوم:

- قد تبدأ بالإجابة عن سؤالها.

هزّ إصبعه ناحيتَها:

- أوه! أنت ذكيّة يا أوتوم.

نقر على الشاشة قليلًا، ثم بعد لحظة، ردّت بريانا: «فلنذهب إلى الشاطئ!! لكن كيارا تريدُني أن أوصلها إلى منزلها أوّلًا».

وتريدني أن أخبرك أنني إن لم أُطمئنها كل خمس عشرة دقيقة، فسوف ترسل شقيقها من البحريّة لينتقم منك!

حسنًا إلى اللقاء! أراك قريبًا!

سأل كيو:

- ستذهبان معنا، أليس كذلك؟

إلا أنّ كلّ ما فكّرتُ به أنني قد سئمت نوعًا ما من الشاطئ، ولا أريد أن أكون بالقرب من الماء على وجه الخصوص. أردتُ أن أقول: «كيو، لو كنت تعرف ما حدث تلك الليلة، ما كنتَ لترغب في ذلك». لكن النظرة على وجه كيو. كيف يمكنني تخييب ظنّه، وقد اعترف للتوّ بأنه يحاول أن يجد فتاةً؟

- أتمازحني؟ أساندُك يا أخي.

ثم ركبنا السيّارة، ومشينا على طريق الشاطئ. أضاءَت مصابيحنا الأماميّة حافّة البحيرة. كان الوقتُ بعد الغسق، لذا أُغلِق هذا الجزء من الشاطئ، لكن وجه كيو كان مُصمِّمًا بوضوح. لوّحَت بريانا نحونا مُتكئة على سيّارتهم عندما توقّفنا.

- هل أنت متأكّد من أنك بخير؟

أطفأ كيو محرّك السيارة.. أخذ نفسًا عميقًا:

- جسديًّا، أشعر أنني طبيعيّ.

مكتبة ياسمين

- هذا ما أريد سماعَه. اسمع، لا بأس أن تكون متوتّرًا، لكنك تسيطر على هذا يا رجل. تذكر، هي من بادرَت تجاهك.

أومأ كيو برأسه:

- أنت على حقّ، أنت على حقّ.

أنزَل المرآة، تفقّد نفسَه بسرعة، ثم تفحّص رائحة أنفاسه. راضيًا، دفعَني ثم سرنا تجاههم. ظهرَت غمازات بريانا بوضوح عندما اقترب كيو، ثم اتّجها نحو الماء، وتركاني أنا وأوتوم وحيدَين.

أشارَت أوتوم إلى الشاطئ:

- هل تريد مساعدتي في العثور على زجاج البحر؟

- أنتِ تنظرين إلى بطل جمع زجاج البحر.

قلبَت عينيها، وبدأت في المشي على الرمل.

بعد أن جمعنا ثروة صغيرة من زجاج البحر، وعاد كيو وبري، شمّر أربعتُنا الجينزات، ونزعنا الجوارب والأحذية، وتسابقنا نحو الماء. تتالَت أقدامنا على الشاطئ، وتفجّرت الرمال فوق أرجلنا، كاشفةً عن الأصداف وزجاج البحر. تلألأ زجاج البحر، واليشم، والفرمليون، والكوبالت، مثل نجوم ساقطة.

تتابعَت أجسادنا للأمام، مندفعة، وركضنا أسرع وأسرع، وللحظة، بالكاد لامسنا الأرض بالخطِّ المكوّن من أربعة خطوط لآثار أقدامنا والشبيه بالمنشار. سرنا في الليل مثل صواريخ تنفجر، وتطير مباشرة إلى الفضاء، حيث لا يمكن للوقت أن يؤذينا. سقطَت بري أوّلًا، مصطدمة بساقيْ كيو، وهوى كِلاهما ضاحكَين. حاولَت أوتوم أن تضربني بوركها، لكنني حافظتُ على توازني، وغرقَت أصابع قدمي في أعشاب بحريّة أكثر من الرمال.

- غشاشة! (هتفتُ إليها).

أبطأَتْ بما يكفي لتنظر إليَّ، ووجهها مُنارٌ بضوء القمر، وهي تضحك بشدّة، ولم أعرف كيف ظلّت تركض مع ذلك. زِدتُ من سُرعتي، وصارَت بالكاد متقدّمة عليَّ.

هتفَت لي:

- كيف تحبُّ الغبار؟ نصف مطهيّ؟

مكتبة ياسمين

ولكن قبل أن أجيب، بدأت في الابتعاد، مبتسمةً، وساقاها وذراعاها صارَت بسُرعة لم أستطع أن أُجاريها. حاولتُ تجاهل الأصداف التي قرصَت أسفل قدميّ، والحرقة في ربلتيّ.

لكنني لم أكُن بذات مهارتها؛ غطسَت أوتوم في الماء قبل أن أصل إلى الماء الضحل، ورفعَت يداها منتصرة.

- أنتِ... سريعة (قلتُ لاهثًا ويداي على ركبتيّ).

- نعم، زِد على هذا أنك بطيء (قالت وهي تجرف الماء، وتلقي به نحوي).

إلا أنني عدتُ إلى تلك الليلة حالما ضربَ الماءُ وجهي. كنتُ لأضحّي بأيّ شيء مقابل خروجنا معًا من تلك الأمواج؟ ولكن بدلًا من ذلك، فإنّ الصّراع تزايد مع كلّ تجديفة صغيرة، وغرق وجه كيو أكثر مع كلّ دفعة، أكثر وأكثر.

ثم استدركتُ، لا، لم يكن ذلك المكان نفسه. أو حتى الشاطئ نفسه، لكنه كان الماء نفسه. كانت الموجات نفسها التي أودت بحياة كيو، وغيرت كلّ شيء إلى الأبد، وذلك فوق طاقتي بكثير، كلّ هذا فوق طاقتي. **علينا الذهاب... علينا الذهاب.**

ضربَت موجة صغيرة أخرى وجهي، وانتشلَتني من أفكاري.

قالت أوتوم:

- تتعاملُ مع الهزيمة بشكل فظيع! (وكانت يداها تفتعل هجومًا مائيًّا آخر)، لكني لم أتحرّك.

تابعتْ:

- هيه، هل أنت على ما يرام؟

كنتُ على عكس ما يرام تمامًا. لكن هذا لا يتمحور حولك يا جمال، بل حول ما يصبُّ في مصلحة كيو. ما مدى صعوبة أنه عليك أن تُخفي سرًّا تُفضل عدم الاحتفاظ به؟ هذا سخيف مقارنةً بما يمرّ به كلٌّ من كيو والسيّدة بي. لا يمكنك إخباره.. لا يمكنك.

- هل ما زلت هنا يا جاي؟

- نعم، لا.. أنا آسف. كلّ ما في الأمر أنّ شيئًا...

قالت:

- من الغريب أن تكون في الماء، أليس كذلك؟ بعد ما حدث.

مكتبة ياسمين

- نعم، أكثر مما كنت أتوقّع.

- حسنًا، هذا شيء جميل تفعله لصديقك.

- أريد أن أفعل المزيد.

- افعل المزيد إذًا (قالت ببساطة، ثم رشّت الماء في عينيّ).

- أوه! آن أوان النّزال (قلتُ وأنا أردُّ الجميل).

تغرَّق كلانا في غضون ثوانٍ، لكن في منتصف معركة الماء، أشارَت أوتوم برأسها. تتبّعتُ نظراتها، ورفرف قلبي باعتباري صديقًا يساعد صديقه على إيجاد فتاة. بري وكيو، اللذان كانا يمسكان بأيدي بعضهما بعضًا، ويسيران على طول الشاطئ، كانا قد توقّفا تحت ضوء القمر الخافت ليتبادلا قُبلًا ساخنة. كدت أصرخ: «أحسنتَ يا كيو!»، لكنني استجمعتُ كلّ قوّة الإرادة التي لم أكن أعرف أنني أمتلكها.

قالت أوتوم: «إنهما ظريفان»، لكنني كنتُ أُشكّك في قرارات الكون، فكيف يمكن للشاطئ أن يكون نهاية وبداية في الآن ذاتِه؟

جمعنا فروعًا وخشبًا جافًا، وحفنات من العشب البريّ الطويل الذي ينمو بجانب السدّ، وتركنا مجموعتنا في كومة حوَّلَتها بري بطريقة ما إلى نار.

«قائدة فرقة فتيات الكشّافة، ماذا يمكنني أن أقول؟» (قالت أوتوم، وهي تغمز).

جررنا مُبرِّدًا من سيّارة بري، وصار بيننا وعاء بلاستيكي ضخم من الفاكهة المقطّعة الذي مرّرناه فيما بيننا، وسكّبنا منه في أكواب ورقيّة. رميتُ حبّة عنب على كيو، لكنه انخفض، وضربتُ بري بدلًا منه. ثم دقّت طبول الحرب.. عناقيد الغضب.. عناقيد الحروب! حسنًا، حسنًا، اللعنة، دعابة سخيفة.

رفعَت بري زجاجة نبيذ، ونظرَت إلى كيو وإليَّ، كما لو لتسأل إن كنّا موافقين.

أومأ كيو موافقًا، ثم ارتشفنا النبيذ، ومرّرنا الزجاجة فيما بيننا. كان النبيذ دافئًا في بطني. ودفّأت نسائم البحر خدَّي. تلوَّت النار يمينًا ويسارًا راقصةً. تشابكت أصابع أوتوم في أصابعي، وسال ضوء القمر على كتفيها وعنقها وشفتيها. ولم أستطع تصوُّر مكانٍ أفضل أو زمان أفضل.

قررَت أوتوم الاطمئنان على جدّتها، ثم ابتعدت بري للردّ على مكالمة من سيارا، ونظرتُ إلى كيو كما لو لأقول إنه ربّما ينبغي لنا الذهاب، لكنه لم يكن جاهزًا للمغادرة على الإطلاق.

مكتبة ياسمين

اقترحتُ:

- ما قولُك لو نسير قليلًا؟

قال وهو يقفز، وينفض الرمل عن سرواله:

- المشي الرومانسيّ مطوّلًا على الشاطئ هو غاية حياتي.

تجوّلنا على الشاطئ، نحو مدينة الملاهي التي باتَت مغلقة، واستحالَت ملايين المصابيح الملوّنة إلى اللون الأبيض الخافت والبرتقاليّ الفاتح، مُنارةً بما يكفي لمنع الطائرات أو الطيور من الاصطدام بالأفعوانيّات.

- كيو...

- هل هذا الجزء من الحديث الذي تخبرني فيه أنك آسف مرّةً أخرى، وأنك تحاول تعويض الوقت الضائع؟

هززتُ رأسي، وقلتُ:

- هذا هو الجزء الذي أخبرك فيه أنني أحبّك يا رجل.

فهذا ما ينبغي قولُه في ليلة كهذه. حسنًا، لعلّ النبيذ أثّر فيَّ أكثر مما ظننتُ.

قال دون تردّد:

- أحبّك أيضًا يا رجل.

- لا، أحبّك حقًّا.

ضحك:

- حسنًا يا أخي. أنا أيضًا.

«لا أريد أن أعيش في عالم لست فيه»، سمعتُ نفسي أقول. ثم قلتُ لنفسي: «مهلًا يا جاي، توخَّ الحذر!».

- من الجيّد أنني سأعيش إلى الأبد إذًا.

- لا أحد يعيش إلى الأبد، يا رجل. أقصد... من الممكن، من الممكن... أن نموت الآن، وليس هناك ما يمكننا فعله حيال ذلك.

حدّق إليَّ:

- هيه، هل أنت بخير؟

- هاه؟ نعم، لا.. أقصد...

- لأنه يبدو أنك تريد أن تقول شيئًا ما، وإن كنتَ تريد أن نتحدّث...

مكتبة ياسمين

قاطعتُه:

- أنا بخير، يا كيو. ليس، لست أنا من...

لكن ظلًا هاجمنا، وقفز على ظهر كيو، ثم أدار كيو بري، وهي تدندن: «لا أريد أن أنزل أبدًا! لا أريد أن أنزل أبدًا!».

قلتُ بصوتٍ خافت:

- كلّ شيء ينتهي في مرحلة ما.

سألَت بري:

- ماذا؟

- قلتُ... قلتُ إننا قضينا يومًا ممتعًا في الحديقة.

صاحَت بري:

- أفضل يوم على الإطلاق.

وافقها كيو:

- أفضل يوم على الإطلاق (وكان يدور بها أسرع وأسرع كأنّه لن يُنزلها يومًا).

39

حين استطعتُ التفريق بين بري وكيو، كانت السّاعة قد أضحَت الثالثة صباحًا.

- متأكّد من أنك بصحّة جيّدة لتقود يا كيو؟ (سألَت أوتوم).

نظر كيو إليها من خلال مرآة الرؤية الخلفيّة:

- أنا بخير، أقسم لكما.

حدّقت إلى كيو:

- تبدو شاحبًا بعض الشيء.

ضحك:

- شكرًا.. أعتقد أنني أشعر بالغثيان بعض الشيء، لكنني بخير حقًا.

ثم انتقلنا إلى سيّارة أوتوم التي ركبَت في مقعد السائق، وتبعتُها.

قالت أوتوم:

- سيلحق بنا كيو، أليس كذلك؟ أعطيته عنواني؟

- نعم، سنرافقك إلى المنزل، ثم سأركب معه بقيّة الطريق.

مكتبة ياسمين

بعد خمس عشرة دقيقة، تبادل أوتوم وكيو تحيّة المساء، ثم تبادلتُ وإيّاها قُبلة أمام باب منزلها، وبعد ثلاثين ثانية لوّحَت لنا من خلال النافذة الأماميّة، ثم جلستُ أنا في سيّارة كيو.

- هيه، اتّصلتَ بوالدتك، أليس كذلك؟

- لا، يا صديقي. فرغ شحن هاتفي منذ ساعات.

- حسنًا، كان يجب أن تستعير هاتفي.

- كنا نقضي وقتًا ساحرًا. لم أشأ أن أُفسد مزاجنا، وقد راسلتها سابقًا.

- متى بالضبط؟ وماذا قلت؟

- لا أعرف.. تقريبًا الخامسة؟ أعلمتُها بأنني ذاهب إلى الحديقة بعد المدرسة.

- كيو، ربّما لم تكن تتوقّع قدومك في السّادسة أو السّابعة أو حتى الثامنة، لكنها الثالثة والربع صباحًا!

ضحك كيو:

- أنت تُجهِد نفسك بحقّ. كفاك قلقًا. ستكون أمّي بخير. أقصد، ستغضب ليومٍ أو مهما يكن، لكنّها ستتجاوز الأمر.

- لدي شعور بأن نهاية هذه الليلة ستكون أسوأ بكثير.

ضحك كيو:

- أوه! أنت تعرف أمي أكثر مني، أليس كذلك؟ لا بأس يا رجل. كلّ شيء على ما يرام.

هززتُ رأسي:

- اسمع، أعرف أن دماغك لا يزال يردّد لحنَ «لقد قبّلتُ فتاةً رائعةً منذ قليل»، لكن عليك الاتصال بأمّك حالًا.

لكن هزّ كتفيه متجاهلًا كلامي:

- جمال، سأوصلك إلى منزلك على أيّ حال، لذا إن كنت قلقًا من أنها ستؤنّبُك، فأنت في أمان، اتفقنا؟ سأخبرها أنني المُلام، وسنكون في المنزل خلال ثلاثين دقيقة. استرخِ وحسب.

لم أعترض حتى على طلبه بأن أسترخي، بل اكتفيتُ بتوصيل هاتفي بشاحن سيّارته، ومشينا بضعة كيلومترات صامتَين.

مكتبة ياسمين

نظر كيو إليَّ:

- جاي؟

- ماذا؟

- بري رائعة جدًا، صحيح؟ هل تظنّ ذلك أنت أيضًا؟

نظرتُ إليه:

- هي كذلك، لكن ما أظنّه غير مهمّ، طالما كنت ترى أنها رائعة، وهي ترى أنك كذلك، فهذا هو كلّ ما تحتاجه.

أومأ كيو برأسه:

- أرى أنّها رائعة للغاية.

أخيرًا، ما يكفي من الطاقة ليعمل هاتفي، رجّ هاتفي، ولمعَت شاشتُه لدقيقتين متتاليتين، وظهرت سلسلة من الرسائل النصيّة، ورسائل البريد الصوتي في إشعاراتي.

- اللعنة، شخص ما يحاول التواصل معك جاهدًا.

رفعتُ الهاتف حتى يتمكن من رؤية الشاشة، والتي كانت عمليًّا سلسلة من إشعارات من رقم ويت، ورقم نهايتُه (216)، وخمّنتُ أنه للسيّدة «بي».

- نعم، هذا رقم أمي. هل تركَت رسالة؟

- العديد منها.

نقرتُ زرّ تشغيل على واحدة من المنتصف، وقرّبتُ الهاتف من أذني.

السيدة بي: «جمال، أنا واثقة من أنك ستعتني بابني. لم أشأ أن يبتعد كلّ هذا، لكن... تأكّد من بقائه بأمان وحسب. وتذكّر، حافظ على سرّنا».

- ضَعْه على مكبر الصوت. أريد أن أسمع أيضًا.

- انتظر.

مدّ يده إلى هاتفي، لكنني أبعدته.

غمزني:

- ماذا، هل تُخفيان عنّي أمرًا ما؟

- هاه؟ مثل ماذا؟

- لم أنسَ كلّ الأشياء التي اعتدت أن تقولها عنها.

مكتبة ياسمين

- كيو، كنت في العاشرة من عمري.

- المشاعر الحقيقيّة لا تموت.

- حسنًا، لقد كشفتني. أنا وأمّك على علاقة غراميّة، وفي هذه الرسالة الصوتيّة أخبرتني للتوّ أنه من المحتمل أن أكون والدك!

- أكرهك.

- يا لها من وقاحة تقولُها لوالدك، يا بني! لقد كنت ألطف كثيرًا عندما كنت لا تزال بداخلي. كنتَ غنيًّا بالطاقة.

- هذا مثير للاشمئزاز!

أنار كيو أضواء الخطر، وهزّ السيارة وكتفَيه.

- ماذا تفعل؟ ماذا يحدث؟

شحُب وجه كيو.

- ستتقيّأ؟

هزّ رأسه:

- لا.. لا أعرف. ربّما.. نعم.

38

كان كيو بالكاد قد ركَن السيّارة عندما قفز خارجها. ركض عشرة أمتار، وحذاؤه الرياضيّ يطحن الحصى والزجاج وأشياء أخرى، تجاه الشجيرات الخشنة، وعشب الطريق السريع المقطوع حديثًا، وأخرَج كلّ شيء: الجبن المقلي بالفلفل.. تشيز برجر باللحم المقدّد.. بقع مثلّجات.. أنواع صودا تكفي لملء حامل مشروبات غازيّة.. بطاطا مقليّة بالجبن الحارّ.. حلوى غزل البنات الزّرقاء. ونعم، حتى كعكة القمح الحبيبة.

وظننتُ أنّه من الغريب أنّ القيء أمرٌ مقرف، ولكن هناك أيضًا تلك الراحة الفوريّة النابعة عن تفريغ دواخلِك خارجًا. تمنّيتُ أن أتخلّص من ذلك السرّ. الخداع أثقل حِملٍ على القلب.

- هل أنت بخير؟

مكتبة ياسمين

ناديتُه، وهو يمسح خيطًا من اللعاب النازل عن شفتيه. أعطيتُه كومةً من المناديل وعلبةً صغيرةً من المناديل المبلّلة من السّيارة.

- لن أكذب، أشعر بتحسّن.

ولم يكن يقصد ذلك، إلا أنّ صدى كلمة «كذب» تُردَّد على طول الطريق السريعة:

كذب.. كذب.. كذب.

- أشعر بتحسّن كبير.

وكدت أقول: «تمسَّك بهذه الفكرة».

- كيو، يجب أن نتحدّث.

- حسنًا، هل يمكننا فعل ذلك في السيارة؟ هذه الغابة تخيفني!

- أريد... أريد أن أقولها الآن؛ ما دام لدي الجرأة.

- إذا انبثق قاتلُ غابات الطرقات السّريعة من تلك الأشجار، فعليك أن تُضحّي بنفسك.

أومأتُ قليلًا:

- كيو... أنا... لو كان الأمر بيدي، لكنت أخبرتك في أقرب وقت... بأية طريقة توصِل خبرًا كهذا؟

- أنت تخيفني يا رجل.

- استعدّ لمزيدٍ من الخوف.

- جاي، مهما يكن الأمر، يمكنك إخباري. ما كنتُ لـــ... لن أحكم عليك أبدًا. ليس بعد الآن على الأقل. يمكنك أن تخبرني أنّك قاتل غابات الطرق السريعة، وسأتفاجأ بالتأكيد، ولكن بعد ذلك سأحضر لك المساعدة التي تحتاجها لتتوقّف عن القتل في غابات الطرقات السريعة. أعدك.

- كيو، هذا ليس مضحكًا يا رجل.

رفع كيو يديه:

- عندما تبدو الأمور سيّئة، أضحك، أنت تعرف ذلك.

- نعم، حسنًا، ليس هناك ما يكفي من النكات لتخفيف هذا.

رفع كيو يديه أكثر:

مكتبة ياسمين

- لمَ كلّ هذه الكآبة؟

- كان عليك أن تبقى على الشاطئ. أنت سباح سيّئ. لماذا قد تحاول؟

- أشعر أن شيئًا مهمًّا قد فاتَني.

- لأنه هذا ما يحصل يا كيو... فاتَك شيءٌ... مهمّ جدًّا.

- أو ربّما تناول شخص ما الكثير من النبيذ.

- الكلّ يكذب عليك يا كيو!

- ماذا تقول؟

- الكلّ يكذب، بمن فيهم أنا.

- تكذبون بشأن ماذا؟!

- كلّ شيء. كلّ حياتك. أنت لست أنتَ. أقصد، أنتَ أنت، ولكنك لست كذلك.

- أنا آسف يا جاي، لكن كلامك غير منطقيّ.

- ما يجري غير منطقيّ!

- اسمع. دعنا نعود إلى السيارة. دعنا نعود إلى المنزل، وسنتحدّث في الصباح عندما يصفو بال كلينا أكثر...

يمسك بذراعي مرارًا وتكرارًا، وأفلتُّ نفسي من قبضته.

- هناك شيء ينبغي أن تعرفه، وينبغي أن أخبرك الآن.

- حسنًا يا رجل، أنا مُنصِت.

ودوى صدى كلمة «الآن» في عقلي، ارتدّ وانتشر في بقايا المادّة الرماديّة في دماغي.

لوّحتُ بإصبعي:

- أنا جادّ يا رجل. يجب أن تسمعني.

حكّ كيو ذقنه:

- قلت إنني سأفعل.

الآن يا جمال. الآن، لكنني أرغمتُ نفسي على الصمت. دفعتُ السرّ أسفل حنجرتي، وبلعتُ ريقي.

- ذراعاي بحجمين مختلفين (مددتُ كليهما)، انظر، انظر.. هذا غريب، صحيح؟

مكتبة ياسمين

تفحّصني كيو:

- لا أعرف لماذا آخذك على محمل الجدّ.

فقد تكون السيّدة «بي» على حق. لعلّني أردتُ أن أخبر كيو بالحقيقة، لأنني شعرتُ بالذّنب لكوني وضيعًا للغاية، وأردتُ أن أعوّض عن الوقت الضائع.. لكوني إنسانًا فظيعًا مع أفضل صديق لي، ولأثبت أنني شخص جيّد، أفضل مما قد أبدو عليه، فأفعل شيئًا شجاعًا، وأغتنم الفرصة، وأفعل الصّواب. لكن ربّما لن تسنح لي الفرصة بأن أتقيّأ على جانب هذا الطريق، وأشعر بأنني أفضل وأخفّ وزنًا. لعلّ الاحتفاظ بهذا العفَن داخلي هو ثمن أخطائي.

37

مثيرٌ للسخرية مقدارُ ما يخفى عنّا من أنفسنا.

المرآة الأكثر صدقًا معنا؛ صديق.. أخت.

نقرَت ويت على بابي شبه المفتوح، مع وسادة طويلة تحت ذراعها، وبطانيّتها المفضّلة، والمفضّلة لدى أمّي، ملفوفة على كتفيها مثل العباءة.

- حفلة مبيت؟

سحبتُ الكرسي الهزّاز الذي ركّبناه معًا من أجل غرفة الطفل.

جلستْ عليه، تأرجحَت قليلًا.

- هل أنت مرتاحة؟

- لا أمانع وسادة أخرى.

مالَت إلى الأمام، وعدّلتُ وضعيّة الوسادة حتى تشعر بالراحة القصوى، ثم أخبرت ويت عن مصالحتنا المفاجئة، وأنني أريد أن أصبح صديقًا أفضل لكيو مما كنت عليه من قبل.

- لكن كيف يمكنني أن أكون أفضل إذا احتفظت بهذا السّرّ الهائل؟ يحقّ له معرفة الحقيقة، أليس كذلك؟

هزّت ويت كتفيها:

مكتبة ياسمين

- دوافعنا هي المحور الأساسيّ يا رجل. يجب أن تسأل نفسك، لماذا أريد أن أخبره؟ لأنك حريص على إظهار أنك صرت شخصًا جديدًا ومُحسّنًا، أو لأنه الصّواب حقًّا؟

36

في منتصفَ الليل، قلت:

- هل كنتِ لترغبي بأن تعرفي؟

قالت ويت:

- أن أعرف ماذا؟

لكنها كانت تعرف ما أعنيه، لذلك لم أُعِد الصياغة.

تركتُ السؤال معلّقًا، ليلوّحه الهواء.

سألَت:

- هل كنتَ لترغب أنت؟

أجبتُها دون تردّد:

- نعم.

أجابت:

- لا، لكنني أعتقد أنك تطرح السؤال الخطأ.

- ما السؤال الصحيح؟

- هل ينبغي أن تعرف؟

مكتبة ياسمين

اليوم الثالث

تبقّى 21-25 يومًا من حياة كيو

مكتبة ياسمين

35

أنارَت ويت الأضواء في غرفتي، وصاحت بأعلى استطاعتها:

- كاربت دينيم!

وغمرَتني المشاعر حالًا.

هل أخطأتُ فهمَ ما قالَته؟

هززتُ رأسي، محاولًا إفساح المجال لكلماتها لتستقرّ:

- لم نفعل هذا منذ... حتى إنه بإمكاننا... (فكّرتُ في ما قالَته الليلة الماضية) هل ينبغي لنا؟

- أعتقد أنهما كانا ليريدا هذا لنا، بل بصراحة، أعتقد أنهما كانا ينتظراننا أن نفعله، فطوال الوقت الذي كنا نتجنّب فيه «كاربت دينيم»، كنا نخيّب آمالهما.

- إذًا، أنا وأنت فقط؟

- آه! هل تقول إنني لا أكفيك؟

- لا، أنت أكثر من كافية.

أشحتُ بنظري، وتضيّق حلقي، وأحرقني كأنّ شخصًا أشعل قطعة من حلوى الخطمي، وحشاها أسفل قصبتي الهوائيّة، ولم أكن على وشك أن أبكي، لم تكن تلك القضيّة، ولكن بدا أن الدموع تصطف على الجانب الآخر من مقلتي عيني، وعلى استعداد للغوص في وجهي إذا لزم الأمر، لأن ذلك كان الوقت المناسب لكثير من الأشياء، لكن الدموع لا تفي بالغرض.. ليس عندها.

- حسنًا، فلنبدأ هذه الحفلة، ولننتهز هذا اليوم!

تدحرجتُ عن السرير:

- هيّا بنا!

- أنا متحمّسة (صفقت ويت بيديها) لماذا انتظرنا طويلًا لنفعل هذا؟

- لم نكن مستعدّين لفعله.

- ما الذي تغيّر إذًا؟

هززتُ كتفي:

مكتبة ياسمين

- نحن، على ما أعتقد!

أومأت ويت برأسها موافقةً، وخطَت بضع خطوات في الرّدهة:

- حسنًا، يمكننا مناقشة تطوّرنا أكثر في السيّارة. ادخل إلى الحمام، لأنّ رائحتك وكأنك كنت تائهًا في الغابة لأسابيع، وسأقابلك في المطبخ يا فتى.

شممتُ نفسي:

- تقييمك قاسٍ بالتأكيد، أشعر بالإهانة الآن، لكنني موافق، أمهليني خمس دقائق.

تشمّمت ويت الهواء:

- فلتجعلها عشرًا.

قلتُ وأنا أدخل الحمّام:

- هاهاها، أنت مضحكة للغاية.

أخرجتُ رأسي:

- ويت؟

- نعم؟

- هل هناك سبب لارتدائك عصابة رأس التمارين الرياضيّة الآن؟

ابتسمت ويت:

- أعتقد أننا سنكون نشيطين للغاية.

قلبتُ عيني:

- ما تقصدينه هو أنك كنت تبحثين منذ مدّة عن عذرٍ حتى ترتدي هذه العصابة، والآن تستخدمين «كاربت دينيم» لتبرير ذلك!

هزّت ويت كتفيها:

- مهما يكن. أنا ظريفة (ظهر تعبير متفاجئ على وجه ويت)، انظر، ركل الطفل.. ركلتان تعني نعم.. إنه يتفق معي.

- يا للمفاجأة! الطفل الذي تحملينه، غير القادر على الاستجابة المسموعة، يتفق مع والدته!

- آسفة، لستُ من وضع القواعد، لكن اثنان ضد واحد أساسيّات الرياضيّات.

مكتبة ياسمين

ضحكتُ:

- هذا ما ينتظرني إذًا؟ عمرٌ من تفوّقكما عليَّ عددًا، وأصواتًا، وكلّ شيء.

قالت ويت وهي ترفع يدها:

- مهلًا! نعم، ركلتان.

قلتُ بلكنة ساخرة:

- يا إلهي! سيكون ذلك ممتعًا جدًّا.

- هل يجب على العمّ جمال الاستحمام على الفور؟ رفعَت يدها مرّة أخرى: يا للهول! لن تصدّق هذا.. ركلتان أخريان! لقد قرّر بيبي آندرسون.

- حسنًا. أنتما الرابحان (قلتُ رافعًا يديَّ في استسلام)، لكن بيبي آندرسون، إذا كنت ستعيش هنا، في هذا المنزل، فهاك نصيحة: إذا كان لديك أقلّ مقدار من الكرامة، من فضلك، من فضلك، لا تدع والدتك تغادر المنزل، وهي ترتدي عصابة رأس!

انتشلتُ عصابة الرأس عن رأسها، وقفزتُ إلى الحمام. انهرتُ ضاحكًا، وبالكاد استطعتُ أن أغلق الباب.

- حقًّا؟ هل تعتدي على امرأة حامل؟ أعرف أين تسكن يا جمال! صاحت من البهو: نم بعين واحدة مفتوحة، يا فتى.

فتحتُ الدُّوش:

- أنا آسف يا ويت؛ أواجه صعوبة في سماعك الآن، لأنني منهمك للغاية في نظافتي الشخصيّة!

- أكرهك كثيرًا! بجديّة، أنت الأسوأ!

- قلت إنك تريدينني أن أرمي عصابة رأسك في المرحاض؟ واو! هذا طلب غريب حقًّا، لكن من فضلك لا تُسيئي فهمي، فقد سمعت أنّ الهرمونات تصبح غريبة للغاية أثناء الحمل، لذا، إذا كنت تريدين أن ترمي عصابة رأسك بحقّ، فمن أنا لأمنعك؟

- جمال آندرسون!

- أنا آسف يا ويت، لكن ما زلت لا أستطيع سماعك. اسمعي، ركلتان تعنيان نعم، واحدة تعني لا، اتفقنا؟

مكتبة ياسمين

انتظرتُ.

- جمال، لن ألعب معك!

أخفيتُ عصابة الرأس أسفل خزانة المغسلة، ثم أجريتُ ماء المرحاض، لأنّ هذا ما يفعله الأشقّاء، أليس كذلك؟

34

لعلّكم تتساءلون عن معنى «كاربت دينيم». تقولون لأنفسكم أنّ هذا يبدو كلامًا مُختلَقًا.

ولستم مُخطئين.

«كاربت دينيم» هو نتيجةٌ لعدم قدرة جمال البالغ من العمر أربع سنوات على نطق «كاربي دييم»[1]، على الرغم من أنني ما زلت أجادل بأنه عندما تُلفظ بسرعة، تبدو مثل «كاربت دينيم»، وأنا مُصِرٌّ.

استحممت، وغيّرتُ ثيابي، وشعرتُ بنظافة منعشة، ووجدتُ ويت في المطبخ.

- هل أنت مستعدة؟ (فتحتُ قبضتي، ومددتُ كفي) وانظري ماذا لديّ.

صرخت ويت:

- النرد!

حسنًا، أعرف أننا انخرطنا في اللعبة، وأنكم ترَون جانبًا آخر منّا. ويت وجمال بصفتهما ثنائيًّا كثير التفاجؤ والصراخ غير المُحتمل، لكنه يوم «كاربت دينيم»، وإذا لم يؤدِ ذلك إلى تسارع دمكم، فلستم بشريّين.

أعطيتُها حجرَي النرد:

- ارميهما أوّلًا؟

لكنها هزّت رأسها:

- لسنا بحاجة إلى النرد.

(1) Carpe diem اغتنام اليوم مقطع من قصيدة لاتينية كتبها هوراس، تدعو لانتهاز الفرص التي تقدمها اللحظة الآنية، والاستمتاع بها دون الانشغال بالتفكير بالمستقبل البعيد، لأن الحياة قصيرة.

مكتبة ياسمين

عبستُ:

- ماذا عن التقليد؟ من يحصل على الرقم الأعلى يختار نشاطنا. ثم نتناوب.

- شكرًا لتذكيري بالقواعد، لكننا فعلنا كلّ ذلك سابقًا.

- لا أفهمك.

لذلك، بطبيعة الحال، تحدّثَت ببطء، وكأنها تصنع كلّ كلمة يدويًّا باستخدام أجود الموادّ.

- لم ننهِ لعب آخر جولة من «كاربت دينيم»، مما يعني أن دورك قد حان يا جمال.

هززتُ رأسي:

- لا لا.. هذا ليس... هذا مختلف. يجب أن نرمي النّرد.

مددتُ يدي إلى النرد، لكنها وضعته في جيبها:

- آسفة، لا أحجار نرد (قالت وهي تضحك على دعابتها، وتربّت على جيبها لتُغلقَه).

- القواعد قواعد، يا رجل، ولستُ من يضعُها.

- إلا أن هذا ما فعلته تمامًا. لقد اختلقتِ هذا للتو.

- لا.. إنه موجود في الكتاب. ابحث عنه.

- لا يوجد كتاب.

- أنت على حق. هذا يعني أن إيجاد القاعدة سيستغرق الكثير من الوقت. حسنًا، أعتقد أنه في هذه الأثناء، يجب أن نأخذ هذه الجولة من «كاربت دينيم» إلى الطريق! (لوّحَت بمفاتيح سيارتها، وخرجَت من الباب الأمامي) هل أنت قادم؟ أنا متحمسة. هل أنت متحمس؟ هل سنفعل هذا؟ يا الله، نحن نفعل هذا. كان أمي وأبي... مهلًا.. مهلًا! يا للهول! يا للهول!

هرعت إليها مذعورًا:

- ماذا؟ ماذا يحدث؟ هل هو الطفل؟ هل ماء الرأس... سأحضر الحقيبة الليليّة، هل أنت بخير؟ هل تريدينني أن أحملك إلى السيارة؟ لكن أيضًا، لا أقصد أية إهانة، لكنني لست متأكّدًا من أنني أريد أيًا من هذا السائل عليَّ، لذلك ربّما يمكننا أن...

مكتبة ياسمين

- توقف.. كفى.. على رسلِك يا فتى. خذ نفسًا عميقًا، اتفقنا؟ لأنك ستحتاجه.

ابتسمَت، وبحثَت في حقيبتها، وأظهرَت قطعة دائريّة من قطن بلون نيون قبيح ومُشعٍّ لدرجة شنيعة، قالت:

- مهلًا، ماذا لدينا هنا؟ هل هذا... هل هذا ما أخمّن أنه في يدي؟

لبستْها فرِحةً فوق رأسها، وارتسمَت على وجهها أكبر ابتسامة منذ تأسيس إخوتنا: عصابة رأس رائعة أخرى.

- يا للروعة يا ويت! رائع.. أرجوكِ قولي إنك لا تملكين مجموعةً كاملةً من تلك الأشياء المبتذلة؟

- لا يمكنني الإفصاح عن ذلك، لكن يمكنني فعل هذا...

وضعَت يدها في حقيبتها مجدّدًا، وسحبَت عصابةً شنيعة أخرى، ثم قالت:

- أوه! يا للمفاجأة! هل هذا اسمك عليها؟ كيف حدث ذلك؟

رمَت عصابة الرأس نحوي. ويا لحظّي التعِس، لم تكن تكذب! كانت تلك الفضيحة بحقّ عالم الأزياء، ذات اللون الأخضر الليموني والحدود الورديّة المنقّطة باللون البرتقاليّ، تحمل اسمي حرفيًا: **جمال**، بخيط ذهبي مبهرج، في المنتصف تمامًا.

- ماذا بحقّ الله يا ويت؟ يستحيل العثور على عصابة رأس مكتوبٌ عليها جمال في المتجر!

يُعد الافتقار إلى البضائع المخصّصة سابقًا أحد الفصول المستمرّة في حياتي. يمكنك الحصول على اسم جاك، وجوردان، وجيمس، حتى أنني رأيتُ اسم «تري» يتدلّى مرةً على سلسلة مفاتيح في استراحة توقّف، لكنني لم أرَ اسم جمال يومًا!

- لقد طلبتِ هذه طلبًا خاصًا، أليس كذلك؟ أنتِ خارجة عن السيطرة رسميًا!

ضحكَت:

- هيّا يا جاي. يجب أن نكون توءمين لهذا اليوم.

تنهّدتُ، ووضعتُ العصابة حول جبهتي:

- سعيدة؟

مكتبة ياسمين

صفّقتْ بحماس:

- سعيدة جدًّا.

رنّ جرس الباب.

نظرتُ إليها:

- هل ننتظر زيارةَ شخصٍ ما؟

مشَت مشية الحامل نحو الباب الأماميّ، وفتحَته بحماسة، وخلفَه وقف كيو وأوتوم، وظهراهما متلاصقان، وأذرعهما مطويّة، بوضعيّة توحي بأنهما في جلسة تصويرٍ لغلاف ألبوم «هيب هوب» في التسعينيّات!

- مرحبًا (قالا في انسجام عجيب).

قالت أوتوم:

- هل طلب شخص ما مقطع فيديو موسيقيّ؟

قال كيو، وهو يشير برأسه إلى أوتوم:

- بدأت أجِد أن أفضل ما في استعادتنا لصداقاتنا هو هذه الفتاة.

- مضحك، كنت أفكّر للتوّ في أن هذا أفضل ما في كوني حبيبة جمال.

- يا للإطراء! شكرًا يا رفاق.

رقصت أوتوم رقصة الرجل الراكض، وانضمّ إليها كيو. ثم غنّت أوتوم على الإيقاع الذي أصدره كيو من فمه، وكان أداءً رهيبًا.

«اسمي أوتوم، وكيو هو اسمه.

«كاربت دينيم» هو ما نحن على وشك فعلِه.

نحن حياةُ كلّ الحفلات.

ولمن يحاول ردعنا نقول: هيهات!

إن تجاوزتَ مع أيٍّ منّا الحدّ،

فسوف نضع لسخافتك حدًّا».

قلتُ:

- واو! لا أريد أن أسأل حتى كم من الوقت تدرّبتما على ذلك، أو حتى فكرة مَن كانت. لا يمكنني إلغاء حقيقة أنني رأيتُ أو سمعتُ أيًّا من ذلك.

- دعنا نسمعك تغني (تحدّاني كيو).

مكتبة ياسمين

لكنني لوّحتُ متجاهلًا:

- لستم مستعدّين.

قالت أوتوم مستهزئة:

- قلت لك إنه سيخاف يا كيو.

- أوه! أنا لا أخاف على الإطلاق.. على الإطلاق. ألقيتُ نظرة على ويت: هل أنت جاهزة يا ويت؟

أمالَت ويت عصابتها، وشبكَت ذراعيها قليلًا:

- أنا جاهزة دائمًا يا جاي.

- حسنًا إذًا، أسمعيني الإيقاع.

ثم شرعَت ويت في تقديم أسوأ أداء في تاريخ الموسيقى. الشيء الوحيد الذي فاق أداءها سوءًا كان مهاراتي في إيجاد قافية: «يو، يو، آه، آه، آه»، تأوّهتُ كما يفعل مغنّو الراب عندما يتأهّبون للبدء مع الإيقاع والغناء، لكنني اكتفيتُ بتكرار ذلك حتى ضحكت أوتوم وكيو بشكل هستيريّ، ثم قررتُ أن أستمر في الأمر، باعتبار أننا قد خسرنا المعركة بالفعل، أنا وويت.

- لذا، ها نحن، ويتني وجمال. أتينا لنشعل تلك الحرارة الساخنة، ونجعلكم تصفّقون.

- بوووو (قاطعتني أوتوم).

- حرارة ساخنة! (قال كيو وهو يهزّ رأسه) على عكس الحرارة الباردة ذات الصيت الشائع، فهمتك.

أوقفَت ويت إيقاعها غير المنتظم إطلاقًا، وتوقّفتُ عن الغناء، ثم قلتُ:

- من دعا هؤلاء الحمقى على أيّ حال يا ويت؟ ظننتُ أنك قلت إن اليوم لنا أنا وأنت فقط!

- لا، أنت قلت ذلك. سألتُك إن كنتُ غير كافية -غمزَت ويت- لكن هيّا، «كاربت دينيم» يتمحور حول الأسرة، وسيظلّ هكذا دائمًا. والأسرة ليست فقط من نولد معهم. نحصل على بعض أفراد العائلة، ونختار البعض الآخر.

وأومأنا جميعًا برؤوسنا موافقين كأننا في قدّاس الكنيسة. ثم ألقَت ويت بعصابة رأسٍ إلى كيو، وبأخرى إلى أوتوم، ونعم، لعلّنا بدَونا مثل آخر أربعة

مكتبة ياسمين

أطفال أُختِيروا في فريق المدرسة، ولكن ماذا في ذلك؟ وضعتُ يدي بيننا، ووضع الجميع أيديهم فوقها.

قلتُ:

- اغتنم اليوم، عند العدّ لثلاثة.. واحد اثنان ثلاثة!

«اغتنم اليوم»، صحنا جميعًا.

قالت ويت: «هذه هي الروح المطلوبة. الآن دعونا نفعل هذا!».

كانت لا تزال تراودني مشاعر مختلطة تجاه مواصلتنا لجولة «كاربت دينيم» تلك، لكن ما لم أكن محتارًا تجاهه، هو مقدارُ حُبّي لهؤلاء الأشخاص الثلاثة. لم أستطِع أن أتخيّل رباعيًّا أفضل.

33

وبالطبع، رأينا جميعًا ما كانت تفعله ويت، كانت تدفعنا للشفاء، لكن هذا لم يعنِ أنّه عليَّ أن أحبّ الدّواء.

بدأت بهَزّ رأسي، سرعان ما أدركتُ إلى أين نتجه:

- ويت، لستُ واثقًا بشأن هذا! (كرّرتُ هذا مرارًا وتكرارًا، لا أعرف كم مرة).

ثم مدَّت يدها عبر المقعد، وضغطت على يدي، قالت:

- حان الوقت. مضى وقتٌ كافٍ.

مالَت أوتوم إلى الأمام في المقعد الخلفي، ووضعَت كفّها على كتفي لتدعمني.

رأيتُ اللافتة أوّلًا: «بازار إليتاون للمزروعات الدفيئة». أكملنا طريقنا، ولم أستطع أن أنظر. أغمضتُ عينيّ بقوّة، مثل حزام شُدَّ أكثر مما ينبغي.

قالت بلطف:

- جمال.

لكن كلا. لا أستطيع فعل ذلك. أنا آسف.. لا أستطيع.

قلتُ:

- لقد عدت إلى هنا... كثيرًا في الواقع. أجلس في موقف السيارات هذا في الطرف المقابل من الشارع، وأنتظر حتى يغلقوا؛ أنتظر آخر سيّارة تخرج، ثم أمشي إلى هناك.

مكتبة ياسمين

لا بدّ أنني أتيت إلى هنا ست مرات قبل أن أدرك وجود بوّابة صغيرة في الخلف مفتوحةً دائمًا. توصّل إلى الأشجار مباشرة، وأمشي بينها وحولها؛ جميع أنواع الأشجار.. كلُّ الأنواع. وأتذكّر مشينا نحن الأربعة صعودًا وهبوطًا في هذه الممرّات. كنتَ من يقود الطريق، لأنه كان يومك. أمي وأبي كانا مبتذلَيْن أكثر من العادة في ذلك اليوم. ظلّ أبي يدغدغ أمي بلحيَته النابتة.

ضحكتُ، لكنّي لم أفتح عينيّ:

- أمي كرهت تلك اللحية.

- كان الأمر فظيعًا جدًا، إنما بطريقة مذهلة للغاية.

- نعم.. من الصعب تخمين ذلك بالنظر إلينا، لكن والدَينا كانا رائعَين نوعًا ما.

دعَتني للصمت قائلة:

- لا يمكنك قول ذلك بصوت عالٍ، قد تُعتقَل!

ابتسمتُ:

- يا إلهي! هل يمكنك أن تتخيّلي مقدار الغرور الذي كان ليُصيبهما لو قلنا لهما ذلك بالفعل؛ أننا نرى أنهما رائعان؟

- لا أعرف إن كنت أرى ذلك حينها. أعني، لقد أحببتهما، لكن لديهما مشاكلهما أيضًا. إنهما مثاليّان في رؤوسنا فقط.

أومأتُ موافقًا:

- صحيح.

فتحتُ عينيّ، وشعرتُ بدوارٍ رأسي، ولبضع ثوانٍ، ظلّ كلّ شيء ضبابيًّا وبألوان رقميّة. إنه لأمر غريب أنني في كلّ مرة أتذكّر فيها ذلك اليوم، عندما كنتُ أرى هذه الدفيئة بوضوح في رأسي، كانت تبدو ضخمة جدًّا، وتملأ الأفق، لكن في الواقع، لعل المساحة كبيرة بما يكفي لتتّسِع لعشرة سيّارات، والصوبة الزجاجية بحجم مرأب يتّسِع لثلاث سيارات.

قلتُ:

- أمَا زلتِ تتردّدين إلى هنا؟

عضّت ويت شفتها، ربّما لتمنعها من الارتعاش:

مكتبة ياسمين

- نعم.

- كثيرًا؟

أومأت برأسها مُشيرةً بالإيجاب.

- هل يجعلك ذلك تشعرين بالقرب منهما؟ بطريقتك الخاصة؟ تشعرين أنهما على قيد الحياة؟

أومأت برأسها مرّة أخرى.

- حسنٌ لقلبك.

لم تحوِ الدفيئة سوى سبع شتلات.

اقترحت أوتوم:

- يمكننا الذهاب إلى مشاتل أخرى.

وافقَتها ويت:

- أراهن أننا سنحصل على خمسٍ وعشرين إن جمعناها.

لكني هززتُ رأسي:

- في هذه الحالة، أعتقد أنّ عدد الأشجار أقلّ أهميةً من أن يكون مصدر الأشجار من هذا المكان فقط.

قالت ويت:

- منطقيّ.

ووضعنا الأشجار السبعة في السيّارة، واتّسعَت بشكل مثاليّ. بينما مشَت السيارة على حافّة الممرّ، انشغل كيو وأوتوم بمشاهدة مقاطع فيديو على هاتفها، وشعرتُ بحاجتي الماسّة لأيّ إلهاء تتزايد. ألقَت ويت نظرة متفحّصة إلى اليسار، ثم اليمين، في انتظار أن تخفّ حركة السير، وبدا الشارع بلا حدودٍ في كِلا الاتجاهين.

تنحنحتُ:

- إذًا.. كيف حال امتحانات أنجيليس؟ أيّة أخبار حتى الآن؟

نعم، تهمُّني امتحاناته، لكنني استحضرتُ أنجيليس في الغالب لإعادة توجيه ذهني، لإخفاء صوت أبي يغني: «**حبُّنا أعلى من الصنوبر! حبُّنا أعلى من الصنوبر!**».

مكتبة ياسمين

قالت مبتسمةً:

- يقول إنّ كلّ شيء أصعب بكثير مما كان يعتقد، وأنه من المحتمل أن يرسب في الفصل النصفيّ، ويحصل على وظيفة لبيع السيارات المستعملة، ويسألني إن كنت سأظلّ أحبّه. وهو ما يعني في لغة أنجيليس أن الامتحانات تسير على ما يرام.

ثم فُتح الطريق أمام ويت، وسرعان ما استدارَت بنا، ومشَت بالسيارة عبر ركن السيارات. وعلى الرغم من أنه قادنا إلى شارع آخر، مما أجبرنا على القيادة في دائرةٍ، وأضاف عشر دقائق على الأقل إلى رحلتنا، فقد استخدمنا مخرجًا آخر؛ لم نستطِع استخدام ذلك المخرج، فليس على كلّ شيء أن يظلّ كما اعتدناه، وعلى كلّ رحلة أن ترسم طرقاتها أثناء مسيرِها.

مررنا على منزل كيو لنصطحب والدته، ولنجلب مجارف ومناكش، وغيرها من معدّات البستنة. ثم أنهى خمستُنا الرحلة التي لم تسمح الأقدار لعائلتي بإكمالها.

من الغريب كيف تبدو الطرقات التي لا نقطعها ملعونةً، وأنّ الأشياء التي لا تتحقّق تُطاردنا بطرائق أسوأ من سواها!

جلنا المحميّة بحثًا عن المكان المثاليّ. استقررنا على فسحة محاطة بأشجار التنوب وأشجارِ دائمة الخضرة. تراجع الجميع بينما تجادلنا أنا وويت حول من يجب أن يبدأ الحفر. فازت ويت في النهاية، وبعد أن خطفتُ نظرتين سريعتين للتأكّد من أنها لا تمانع حقًّا، غرزتُ المجرفة في التربة المعشبة. وتركتُ المجرفة هناك قليلًا، نصف وجهها تحت الأرض. ترقّبتُ إشارةً، أيّة إشارة إلى أنّ هذا خطأ، ترقّبتُ أن يتجسّد أمي وأبي، ويعبّرا عن استيائهما، لكن شيئًا لم يحدث، ولم تغمرني سوى سعادة حزينة.

قبل عامين، كنتُ لا أُطيق صبرًا حتى أقف هنا. كان لدينا برنامج في المدرسة حول حماية البيئة، وأُعطي كلّ طالب شتلةً ليأخذها إلى المنزل. في ذلك المساء نفسه، غرزتُ مجرفتي في الجزء الخلفيّ من حديقتنا، وراقبني أبي.

قال: «ينبغي أن تكون الحفرة أكبر».

وجعلتها أكبر.

قال: «ما زالت غير كبيرة بما يكفي».

مكتبة ياسمين

واصلتُ الحفر.

ظللنا على هذا المنوال بضع جولات أخرى حتى ضحك أبي قائلًا: «من الأفضل أن أوقفك قبل أن تصل إلى الصين».

خرجت أمي لترى ما الذي كان يستغرقنا وقتًا طويلًا، ثم أخبرَت أبي أنه كان مخطئًا في ما يفعله.

قال أبي:

- هذا الصبي ساذج للغاية!

قالت أمي:

- يشبهك في ذلك.

- الرحمة! هذا من طرفِ عائلتك.

أشارت أمي إلى جانب حذاء أبي:

- دري، لقد أسقطت محفظتك!

نظر أبي إلى الأسفل، وضحكنا أنا وأمي.

أمضى بقيّة ذلك اليوم في محاولة خداعنا، وفرِح عندما خدع ويت الشاردة أخيرًا.

في تلك الليلة، أثناء العشاء، أعلنتُ عن «كاربت دينيم» الخاصّ بي.

- هل تعرفون أنه يُقطَع ما يقرب من مائتي ألف فدّان من الغابات كلّ يوم؟ أريد إعادة بضع أشجار إلى الأرض.

لو لم يحصل ذلك التجمّع الغبيّ، لو لم أعد إلى المنزل مع تلك الشجرة، لو...

لو.. لو.

التحسُّر لعبة لا تنتهي.

حفرَت ويت الحفرة التالية، وسقطَت دموعها في الحفرة قبل الشتلة. أعدنا نحتَ الأرض، وربّتنا عليها حول كلّ شجيرة.

حلّق نسرٌ ذهابًا وإيابًا عبر الأفق، وقالت السيّدة «بي» إنّ هذا يعني أن هذا العمل سيكون مباركًا. لم أجادِلها بخصوص ما تعنيه المباركة، لأنها ليست ما يهم. فبعد عامين، ها هو التراب أخيرًا تحت أظافري، وها هي الأشجار جديدة في الأرض. زرعنا أنا وويت شُجيرتين، وزرع كلٌّ من كيو، وأوتوم،

مكتبة ياسمين

والسيدة بي شُجيرة. عندما زرعنا الشُجيرة الأخيرة في الأرض، ذهبَت ويت إلى السيارة، وعادَت حاملةً مزهريّتين معدنيتين تحويان رماد والدينا. أومأتُ موافقًا، طلبَت منّي تأكيدًا:

- نعم؟ هل أنت واثق؟

- أنا واثق.

وقفنا هناك صامتين، حتى أمسكَت ويت يدي. وضغطَت على أصابعي، بينما حلّقَت طائرة فوقنا. مددتُ يدي إلى الشجرة الأقرب إليَّ، مسّدتُ إحدى أوراقها الشمعيّة بين أصابعي. وقلتُ: «أمي، أبي، حبُّنا لكما أعلى من الصنوبر»، ثم تعانق الجميع، وبكينا، وغرقنا في مشاعرنا حتى قالت ويت فجأةً: «مهلًا، مهلًا، مهلًا!». فتوقفنا، وانتظرنا أن تقول ما تريد قولَه، لكن تبيّن أنها لا تريد قول أيّ شيء. حسنًا، ليس تمامًا.

- تحتاج أشجارنا شيئًا آخر حتى تكتمل..

قالت، وهي تمدّ يدها إلى كيس قمامة كبيرٍ كنت أتساءل عن سبب وجوده، ولكنني افترضت بطبيعة الحال أنه من أجل... القمامة، لكن ما أخرجَته ويت من كيس القمامة ذاك كان قمامة.. وكنزًا في الآن ذاتِه.

أحسستُ بوجهي يتلوّن بكلّ ألوان الارتباك والذهول:

- من أين حصلتِ عليها؟

هزّت ويت كتفيها، وابتسمَت:

- عندما رأيت أنها نُزِعَت عن الشجرة، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لأعرف من فعل ذلك.

- وجدتِه في سلّة المهملات.

- بعد البحث في الغابة مدّة ساعة، وظنّي بأنها قد ضاعت إلى الأبد. نعم، ولكن بعد ذلك بيومين، كنتُ أُخرِج العلب إلى الشارع في يوم التخلّص من القمامة، وقد كانت مهمّتك بالمناسبة، عندما ويا للمفاجأة! خمِّن ما الذي كان داخل الكيس مقلوبًا رأسًا على عقب؟

أخرجَت ويت اللوحة أمام ناظريّ، وشعرتُ بمزيد من الدموع تتدفّق.

أشارت ويت إلى الجرافة عند قدميّ:

مكتبة ياسمين

- أعتقد أنه بإمكاننا أن ندعّمها، وندفن نهايتَها قليلًا بدلًا من تثبيتها على الأشجار البريئة، ما رأيك؟

واستمرَّت الدموع في الانهمار والتدحرج، بينما كنا نحفر خندقًا صغيرًا، وندخل اللوحة فيه. ولم أفهم كيف كانت أغبى فكرة على الإطلاق من قبل، إنما ها هي تبدو منطقيّة الآن وهنا.

«جيدا وآندريه آندرسون.

لَن ننسى».

وهكذا أنهينا جولة «كاربت دينيم» البالغة من العمر عامين تقريبًا. مع خمسة أشخاص تعاركوا في الأيام الأربعة الماضية بما يكفي لبدء حرب صغيرة. ومع ذلك، ها نحن هنا، نجد طريقة للتعاضد، وترك الماضي وراءنا. ففي بعض الأحيان، يكون أفضل الأشخاص الذين نختارهم على الرغم من الأشياء السيّئة، عائلتنا المثلى. خمسة أشخاص لم يتّفقوا دائمًا، إلا أنهم أحبّوا بعضهم بعضًا مع ذلك، ونثرنا رماد والدينا المحبوبين بين سبع أشجار جديدة في محميّة طبيعيّة محظوظة.

32

«يجب أن نتناول العشاء باكرًا»، قالت ويت قبل أن نخرج حتى من المحميّة الطبيعيّة.

صوّت كيو لأن نتناول طعامًا صينيًّا، لكن السيّدة «بي» عارضَته قائلةً إن أحدًا لن يرغب بالوجود قربه بعد الطعام الصيني، وهذا صحيح.

اقترحتُ أن نتناول طعامًا إيطاليًّا، ووافق الجميع، قرّرنا أن نتناول الباستا. أصرّت السيّدة «بي» على أن نأكل «معكرونة منزليّة الصنع». لذا ذهبنا إلى محلّ البقالة، ثم أدخلنا حمولتنا إلى منزلنا، وسألَت السيّدة «بي» ويت على الفور أين نحتفظ بالأواني والطناجر.

قلتُ:

- اركض..

فركض كيو في مضمارٍ مُتخيّل إلى غرفة المعيشة، ورميتُ كيس الثوم في الوقت المناسب، وحُطّ بين يديه بشكل مثاليّ.

مكتبة ياسمين

قالت السيّدة «بي»:

- حسنًا، إذا أسقطتما أيّ طعام، أو كسرتما أيّ شيء، فسوف تغسلان كلّ الأواني والطناجر يدويًّا بعد العشاء.

قال كيو:

- طيّب، لا يبدو هذا سيّئًا.

- فلنتسلّ بينما يمكننا ذلك (دندنتُ).

شمّرَت السيّدة «بي» عن ساعدَيها، وبذلَت جهدًا حقيقيًّا، وصنعَت كميّةً من السباغيتي الشهيّة، بالصّلصة المصنوعة منزليًّا مع المكوّنات التي لم تسمح لنا برؤيتها وهي تضيفها. تناوب أربعتُنا في محاولة نصب كمين لها أو إلهائها، ولكن كلّ جهودنا ذهبَت سدىً، وبقيَت وصفة السيّدة «بي» سريّة.

لم تضحك حتى عندما قدّمنا أنا وكيو وأوتوم وصفة تتبيلة الخبز بالثوم مقابل وصفة الصلصة الخاصّة بها، بل إنّها أهانتنا في الواقع حين رفعت أنفها، كما لو أننا لا نعرض شيئًا بذات القيمة، ولكنها كانت الخاسرة على أيّة حال.

تتألّف وصفتنا من رغيف كامل من شرائح الخبز الأبيض الإيطالي الذي نرشّه بزيت الزيتون، ثم نزيّنه بمزيج توابل مُنتقى بعناية، يُرَشُّ بسخاء. وبالانتقاء أعني أن نتناوب على رشّ الأشياء التي نعتقد أنّها تبدو رائعة، أو تضيف لونًا فريدًا. إلا أنّ إضافة كيو الأخيرة، قد حيّرتني أنا، وأنا الذي زيّنتُ بضع قطع برشّة من القرفة من أجل تجربة ذوقيّة غير متوقّعة، قبل أن تُزال الشرائح الأخرى بسرعة من متناول يدي.

- يانسون يا رجل! ما هو اليانسون بحقّ الله؟

أجاب كيو:

- نداءٌ إلى «نسون».

وأضافَت أوتوم:

- وضوحًا.

ونعم، لقد أصبح الأمر رسميًّا الآن: يتآمران ضدّي عند كلّ فرصة!

مكتبة ياسمين

31

كنّا نسأل ويت والسيّدة «بي» عن تفضيلاتهما فيما يخصّ تتبيل الخبز، عندما شحُب وجه كيو، وارتخى جفناه، وشكا من الدوار. لم تفهم أوتوم ما يجري تمامًا، لأنها لم تكن تعرف أن كيو ميّت، لكنها خمّنَت وجود خطبٍ ما.

قالت له السيّدة «بي»: «اشرب الماء ببطء»، وتذكّرتُ أنها ممرضة، لكنني تذكّرتُ بعدها أيضًا اختصاصها، وتساءلتُ إن كان كلّ التمريض يعني الشيء نفسه.

افترضتُ أن تقييم شخص ما، والتحقّق من عناصره الحيويّة، ومستوى وعيه، سيَفي بالغرض على الأقل.

نهضَت السيّدة «بي» عن الطاولة بينما قرّب كيو الماء إلى شفتيه ويده ترتجف.

سمعتُ نفسي أقول: «كيو، ماذا يحدث؟ كيو، هل أنت بخير؟».

لكن جسم كيو ارتعش بأكمله عندها، وقبل أن أتمكّن أنا أو السيّدة «بي» من الوصول إليه، أفلَت الزجاج من قبضته، وتحوّل إلى فسيفساء من الزجاج الأزرق الصافي، وتناثر تحت الطاولة.

«لاااا»، صرخَت السيدة بي.

لكن الأوان كان قد فات؛ تأخّرتُ أنا، وتأخّرَت هي.

تقلّصَت حدقتا كيو حتى أصبحتا بحجم رأس القلم، وسال لعابه من زاويتي فمه، حتى التوَت رقبته بعنف إلى الأمام، وانغمس أكمل وجهه في طبقه، وقفزَت المعكرونة، وتدفّقَت الصلصة مثل كبسولات الدم.

منعنا أوتوم من الاتصال بالنجدة، على الرغم من أنني أظنّ أننا تساءلنا جميعًا إذا كانت تلك الخطوة الصّحيحة، إذا كان ذلك في مصلحة كيو فعلًا. وبدلاً من ذلك، اتصلَت السيّدة «بي» بالسيد أوكلاهوما محمومةً، وردّدَت معلومات كيو الصحيّة بمجرَّد إجابته. كلّ ما استطعتُ سماعه هو صوتُ السيّد أوكلاهوما الخافت وهو يُجيب: «نحنُ في طريقنا بالفعل».

لكنني لم أستطِع التركيز على ما يقوله، أو ما تنقله السيّدة «بي»؛ ظلّت عيناي مثبّتتين على صديقي، ويدي مستلقية على ظهره. انتشلَت أوتوم المعكرونة من شعره ووجهه، لأننا نريد أن نكون مفيدين حسب ظنّي فقط،

مكتبة ياسمين

وكيف نفعل ذلك عندما لا نملك أيّ شيء ذي قيمة حقيقيّة نضيفه، باستثناء القلق، باستثناء الآمال والإسراع في تلاوة الصّلوات، على الرغم من أننا لا نصلي إلا عندما تواجهنا المصاعب، عندما نجد أنفسنا عاجزين.

لا أعرف حتى كم من الوقت مضى قبل أن يأتي الرجال المتّشحون بالسواد ليتدفّقوا من بابنا الأماميّ، مزيّنين هذه المرّة بسمّاعات، وغيرها من الأدوات الطبيّة الأكثر تعقيدًا.

همسَت أوتوم في أذني:

- من هؤلاء الناس؟ ليسوا مسعفين!

قلتُ:

- لا، لا أعتقد أنهم كذلك.

نزعوا قميص كيو، وربطوا سلسلةً من القطع اللاصقة الدائريّة بصدره وبطنه؛ **مسابر**، كما سمّتها السيّدة «بي». كانت تلك المسابر متّصلة بجهاز يشبه حزمة البطاريّة، موصولٍ بجهاز لوحيٍّ كبير تحكّمَت به إحدى النساء غير المسعفات، التي نقرَت بقوّة على شاشة العرض، وهزّت رأسها، ثم نقرَت أكثر. وفي هذه الأثناء، وصّل الآخرون الأكسجين، وتحقّقوا من نسبة السكر في دم كيو، ومعدّل ضربات قلبه، وضغط دمه، ومعدّل أنفاسِه في الدقيقة. فحصوا غازات دمه، أيًّا كانت تلك، ومجموعة من العوامل الأخرى، التي انتقلَت نتائجها على الفور إلى الكمبيوتر اللوحيّ الكبير.

قالت المرأة بجديّة لزملائها: «إنه يستقرّ»، واستمرّوا في عملهم حتى أعلنت أخيرًا تحقيق الاستقرار، وسرعان ما فصلوا وأزالوا مُعدّاتهم، وأعادوا قميص كيو، ثم نقلوه إلى عربة.

قالت السيّدة «بي»: «عُذرًا، إلى أين تأخذون ابني؟»

تبادل غير المسعفين النظرات، كما لو كانوا يتساءلون من سيتحدّث إلى هذه السيّدة المستاءة، ولم يتطوّع أحدٌ منهم بعد انتظار.

طلبَت المرأة من السيّدة «بي» أن تتبعها إلى البهو، وسمعتُ أصواتهم دون أن أفهم كلماتٍ. بعد بضع دقائق، ظهرَت د. إيفرسون مع السيّد أوكلاهوما، لينضمّا إلى السيّدة «بي» والمرأة في البهو. عندها ارتفعَت الأصوات، وبالأخصّ صوتُ السيّدة «بي».

مكتبة ياسمين

لكن بعد فترة، عادت إلى المطبخ، انحنَت فوق ابنها، وقبّلَت جبهته، ومسّدَت صدغَيه ومعصمه وأصابعه.

ثم بعد العدّ إلى ثلاثة، شاهدناهم وهم ينقلون كيو، ويخرجون من ممرّنا الأماميّ. تبعناهم، وشاهدنا كيو، وهو ينزلق في الجزء الخلفيّ من شاحنة سوداء. كانت الشاحنة ملساء وجديدة.

سألتُ السيّدة «بي»:

- إلى أين يأخذونه؟

لكن د. إيفرسون أجابَت:

- نحتاج إلى إجراء بعض الاختبارات التي لا يمكننا إجراؤها هنا. لا تقلق.. كيو على ما يرام.

أومأ السيّد أوكلاهوما بموافقته:

- لا شيء يدعو للقلق. كوينسي مُقاتل.

وكان الشخص الثاني هذا الأسبوع الذي يقول ذلك.

ثم عاد الرجال الثلاث، والمرأة إلى الشاحنة، وانطلقوا بعيدًا بذات السرعة التي جاؤوا بها. في هذه الأثناء، فتح السيّد أوكلاهوما باب سيارة د. إيفرسون، ثم مشى إلى جهة السائق، ونظر إلى الوراء نحو أربعتنا من فوق الجزء العلويّ من السيّارة. لوَّح، وكأنه غير متأكّد من أنه يجب عليه ذلك. ثم ذهبا. وقفنا هناك صامتين، غير متأكّدين مما يجب فعله.

ثم التفتت أوتوم إلينا:

- وإذًا، ما الذي يحدث بحقّ الجحيم؟

تناوبنا على الكذب عليها.

قلتُ لها جملتي الشهيرة:

- يبدو الأمر أسوأ مما هو!

التي كانت كذبة أفضل قليلًا من «هاهاها، تلك كانت مزحة! سوف يعيدونه في أيّ لحظة الآن، هاهاها». لكن أوتوم تعرفني؛ وجهي الكاذب، ووجهي نصف الصادق، وصوتي الكاذب الحادّ.

- حدث شيء ما للتوّ، ويبدو أنني الشخص الوحيد الذي لا يعرف ما هو!

مكتبة ياسمين

قالت وعيناها تجتاحان وجوهنا بحثًا عن صدع في جبهتنا الموحدة، لكننا لم نتراجع. ثم صعدت السيِّدة «بي» إلى سيّارتها، متجاهلةً علامة التوقّف، والتفَّت عند الزاوية.

طالبَت أوتوم:

- هل ستخبرني الحقيقة؟

وكنتُ أعرف أنها قد حانت.. اللحظة الحاسمة؛ شعر كلانا بها، لكنني لم أستطِع. لم تكن حقيقةً تخصُّني لأبوح بها، وأخبرتُها بذلك. وحاولَت ويت إقناعها بالبقاء، لكنها لم تستطِع الخروج من ممرّنا بالسّرعة الكافية. لوّحتُ بذراعي لأجذب انتباهها، وصِحتُ من خلال الزجاج الجانبيّ للسّائق أنني سأتّصل بها لاحقًا، لكنها أنزلَت زجاج نافذتها حتى أتمكّن من رؤية وجهها، وهي تتكلّم، بحيث أرى أنها تعني ما تقول: «لا تُكلّف نفسك»، صرخت وعيناها تدمعان: «وفِّر أنفاسَك وكذبك لشخص آخر!». وبعد ذلك، ذهبت مثل كلّ من سبقها، لأنه عاجلًا وليس آجلًا، يغادر الجميع هذا المنزل.

30

في وقت لاحق من تلك الليلة، رنَّ هاتف ويت، ووضعَته على الأريكة بيننا. كان صوت السيّدة «بي» يتقطّع بشدّة، ولم أعرف إن كان ذلك بسبب مكبّر الصّوت أم أنها كانت تبكي.

- سيعيدون كوينسي إلى المنزل، لكنهم أخبروني أنّ هناك تطوّرًا جديدًا يجب مناقشته.

بعد خمس عشرة دقيقة، كانت السيّدة «بي» تسير جيئة وذهابًا في غرفة معيشتها، وكانت ويت في الحمام، وجلستُ أنا على الأريكة، محاوِلًا ألا أبالغ في تحليل ما يعنيه **التطوُّر الجديد**.

تبدَّد شرودنا بسبب صوت عالٍ، وأظنّ أنني كنت أتوقّع أن يدخل كيو، موطئ الرّأس حتى يتجنّب الاصطدام برأسه، كما اعتاد أن يفعل حتى عندما يكون بإمكانه تجاوز العتبة، وهي عادةٌ نشأت من سنوات من العُقد والكدمات على وجهه.

مكتبة ياسمين

ولكن ذلك الخطر لم يكن قائمًا حينها، إذ وضعوا كيو في عربة مماثلة لتلك التي أخذوه بها بعيدًا. كان كيو في نوعٍ من النوم العميق، بعينَين وشفتَين مُحكمَتي الإغلاق، ويدين مطويّتين بشكل مستقيم على صدره.

لم تبدُ السيّدة «بي» مندهشةً من حالة كيو، وقادتهم إلى غرفته في الطابق العلوي.

عندما عاد الرجال، سمعتُ السيّدة «بي» تغلق الباب، وظهرَ جسدها من قدميها لأعلى وهي تنزل السلَّم، مثل صورةٍ تخرج من الطابعة حيث تظهر بضعة خطوط في دفعات.

لم أسمع السيّد أوكلاهوما يدخل المنزل. لم أرَه يقف على العتبة، ولكن ها هو، ومعه الأخبار. قال:

- سيكون من الصعب سماع هذا. الخبر السارّ هو أننا تمكّنا من إعادة ذاكرة كيو إلى الوراء قبل ساعة من انهياره. سوف يستيقظ في غضون ساعات قليلة، ولن يتذكر ما حدث -عقد حاجبيه- إلا أنّ كيو قد عانى من انتكاسة كبيرة؛ حصل اضطراب لا يمكن تفسيرُه في دماغ كيو الذي تسبّب بأبسط العبارات.. بغيبوبة. خلال حالة الغيبوبة هذه، بدأ نشاط دماغ كيو، بالإضافة إلى بقية أعضائه الحيويّة، بالتصرُّف كما لو كان كيو في الواقع ميّتًا.

- ماذا تقول؟ قل ما يعنيه هذا حقًّا وحسب!

طالبَت السيّدة «بي»، ووَجهها مثالٌ لنفاد الصبر؛ عينان متضيّقتان، وشفتان ملتويتان، وجبهة متقوّسة.

- تقبّلي اعتذاري. أومأ السيد أوكلاهوما وتنحنح: هذا يعني أنّ مدّة إقامة كيو قد تأثّرت بشكل خطير.

تدخلتُ سائلًا:

- مهلًا، هل تقول إنه لن يظلّ على قيد الحياة مدّة أربعة أسابيع؟

أجاب السيد أوكلاهوما:

- لا، للأسف.

عَلَا صوت السيّدة «بي» كأنّ أحدًا أجفلها:

- كم من الوقت؟ كم تبقّى من الوقت؟

مكتبة ياسمين

سألَت ويت:

- ثلاثة أسابيع؟ أقلّ؟

هزّ السيّد أوكلاهوما رأسه:

- يؤلمني حقًّا أن أقول هذا، لكن ستكون معجزة إذا عاش كيو ثماني وأربعين ساعةً أخرى.

نزَع نظّارته، ومسحها سريعًا بمنديله.

- لا! لا! لقد وعدتني... قلت إنه لا يوجد ما يدعو للقلق!

صاحَت السيّدة «بي»، واضطرِرتُ لأن أخطو أمامها لمنعها من عبور الغرفة بغضب. ومع ذلك، لم يبدُ أنّ السيّد أوكلاهوما قد لاحظ أن حياته في خطر:

- لكن لدينا خيار آخر؛ يمكننا وضع نهايةٍ محددة لإنعاش كيو.

سألتُ:

- ماذا يعني ذلك؟

- أن نحدّد وقتًا لموت كيو مرّة أخرى. بهذه الطريقة لن تواجهنا أيّة مفاجآت، وبهذه الطريقة يمكن للجميع التأهّب.

هزّت السيّدة «بي» رأسها، كأنها لا تصدّق ما تسمعه:

- لكنك قلتَ للتوّ إنك لا تعرف كم من الوقت تبقّى لديه. يمكن أن يكون يومًا أو اثنين!

- يجب أن نحدّد له موعدًا للموت مرّة أخرى الليلة. يمكننا أن نمنحكم بضع ساعات لتوديعه.

ولم أرَ من قبل السيّدة «بي» تتحرّك بهذه السرعة من قبل، حتى عندما كنّا نهرع إلى قاعة الانتظار في المستشفى. ثم اندفعت نحو السيّد أوكلاهوما، ودفعَته إلى الأريكة، وأصبحَت عينا السيد أوكلاهوما مثل الحرف الأوّل من اسمه، ودون هواءٍ في رئتيه، كافح ليتحدّث ويبرّر. ولكن بدا أنّ السيّدة «بي» قد تخطّت كلّ ذلك.

- لقد كذبتَ عليَّ (قالت مرارًا وتكرارًا)، لم أكُن لأفعل هذا قط! ما كان يجب أن أفعل هذا! ما الفائدة؟ يومان؟ يومان!

مكتبة ياسمين

بذلتُ قصارى جهدي لأسحبها بعيدًا، لم يلمسها فريق النّاقلين من المركز، لكنهم اقتربوا تدريجيًّا بينها وبين السيّد أوكلاهوما، مُشكّلين جدارًا بشريًّا بينهما.

نهض السيّد أوكلاهوما متقهقرًا على قدميه، وانحنى ليلتقط أنفاسه ويداه على ركبتيه.

- أنت كاذب! سأبلّغ عن هذا! لا تلمس ابني مرّة أخرى! لقد انتهى هذا! انتهى الأمر!

رفع السيّد أوكلاهوما يده، ووجهه نحو الأسفل. كانت تلك المرّة الأولى التي يظهر فيها غير متوازن، غير رصين. قال:

- أنا آسف جدًّا، ولكن على الأقلّ كان لديك المزيد من الوقت، لا يزال لديك المزيد من الوقت، من فضلك، تفهّمي أننا...

- اخرج من منزلي! خذ أجهزتك وموظّفيك، ولا أريد أن أراك قريبًا من ابني! هل تسمعني؟ إن اقتربتَ ولو قليلًا من هنا، فسأطلق النار عليك. لا أمازحك! سوف... سوف...

تناثرَت كلماتُها، وتكسّرَت إلى أجزاء، وأحرف، وأصوات رطبة. انهارت ركبتاها، ودفعتُ نفسي تحت جسدها، باذلًا قصارى جهدي لإنزالها على الأرض. أومأ السيّد أوكلاهوما لرجاله، وخرجوا من المنزل بسرعة وبهدوء. ثم جمَع نظّارته عن الأريكة، ووجد إحدى ذراعَيها منحنيةً بشدّة، والإطارات منحرفة. وضعها في جيب قميصه، وأدار يده حول خصره ليعيد شدّ قميصه المدسوس. تحرّك ببطء عبر غرفة المعيشة، كأنّه غير متأكّد من رغبته بالمغادرة. كأنّه يعرف أنه ترك الوضع مُتخلخلًا، وأسوأ مما كان قبل قدومه. وقف وظهرُه ناحيتَنا، مواجهًا الباب الأمامي المفتوح، فأحاط بجسده النحيف الغسقُ المتساقط في الأفق مثل دقيقٍ في وعاءٍ.

عاد ضوء عمود المصباح في الفناء إلى الحياة. نبح كلب على بُعْد بضعة أبواب.

نشجَت السيّدة «بي» في قميصي.

استدار السيّد أوكلاهوما، ومال برأسه نحو ويت ونحوي، ونحو السيّدة بارانتيس.

مكتبة ياسمين

سألتُ:

- ماذا حدث؟ رجاءً ماذا حصل؟ هل كان ذلك بسبب شيء فعلناه؟

رَدَّ:

- ألم تخبركم د. إيفرسون أنّ كيو كان أوّل إنعاش عفويٍّ نجريه؟

- هل تقصد أنّ سبب كلّ ما جرى هو أنّكم لم تحظوا بالوقت الكافي للتأهُّب؟!

قالت السيّدة بارانتيس بصوتٍ منهار:

- أخبرتني أنّه سيكون بخير. وعدتَني!

- أنا آسف لأننا لم نَفِ بكامل وعدنا لك، سيّدة بارانتيس. آسف حقًّا، لكن العمل الذي نؤديه في المركز هو عمل خيّر.. عملٌ مهمّ، وسوف يستمرّ.

كانت كلماتُه وعدًا وتهديدًا.

قالت ويت:

- يجب أن تغادر.. حالًا.

أمسكَتْ يده اليمنى الباب كأنها تعزف البيانو، وأومأ برأسه مرّةً أخرى. رفع علامة السلام: «أتمنّى لو كان بإمكاننا منحكم المزيد، لكنني أعلم أنكم ستستغلّون الوقت المتبقّي بحكمة».

مكتبة ياسمين

اليوم الرّابع

تبقّى ما يقارب 48 ساعةً على حياة كيو

مكتبة ياسمين

29

لم نعرف هذه المرّة متى سيستيقظ كيو، وعلى الرغم من أحدًا منّا لم يقُلْها، إنما نظرًا لعدم موثوقيّة المركز، ما كان بإمكاننا أن نثق حتى بأنّه سيفعل.

تقلّصت المدّة من ما بين أربعة وعشرين، أو ثمانية وعشرين يومًا، إلى ثمانٍ وأربعين ساعة؟ بكلّ بساطة، هل كان هذا الاحتمال قائمًا منذ البداية؟ هل كان ذلك مراهنةً على الحظّ، أو حتى احتمالًا فضّلوا ألا يذكروه؟ في مرحلة ما، اقترحَت السيّدة «بي» أنهم قد يكونون مخطئين، وقد يعيش كيو أسابيع بالفعل، أو ربّما لأشهر.

تبادلنا النّظرات أنا وويت، لكننا لم نعارِضها. كنّا نعرف أنّ هذا كلامُ شخصٍ مُصابٍ بالفقدان. نحن أيضًا حاولنا أن نتحدّث عن المستحيلات أملًا بأن تحصُل. نحن أيضًا تحدّثنا عن المعجزات، كأنّ حدوثها بذات سهولة تمنّيها.

الحقيقة هي أننا قد لا نحصل على إجابات غالبًا، ولم يعنِ هذا أننا كنا لنصدّقهم إذا حاولوا شرح الخطأ الذي حدث. كلّ ما كنتُ أعرفه هو التالي:

تبقّى أقلُّ من ثمانٍ وأربعين ساعةً لحياة كيو على هذا الكوكب. وبقدر ما كنت أحتقر السيّد أوكلاهوما لحظتَها، فقد كان محقًّا بشأن هذا الشيء الوحيد:

كلّ دقيقة كانت لا تقدّر بثمن. ينبغي الاستفادة من كلّ لحظة إلى أقصى حدّ. مصطلح **إنفاق الوقت** يعني أنّ الوقت مُكلِّف. ما من لحظة مجّانيّة. ولكُلّ ثانية ثمن.

إلى أوتوم: «مرحبًا، أنا آسف جدًّا جدًّا! أرجوكِ أجيبي عن رسالتي، أو اتصلي بي. أيًّا كان ما تريدينه».

ثم لاحقًا.

إلى أوتوم: «أنتِ على حق. لقد كذبت عليكِ، لكنني لم أرغب في ذلك. كنت أحاول أن أفعل الصواب، لكن الصّواب لم يكن صائبًا تمامًا. عاد كيو».

* * *

ثم لاحقًا، أيضًا.

مكتبة ياسمين

إلى أوتوم: «استيقظ كيو».

رفّ جفناه، وسعل، ولعق شفتيه، وتمطّى، ثم قفز إلى زاوية سريره.

- لماذا تحدّقون إلى وجهي وأنا نائم بحقّ الله؟ هل انضممت إلى طائفة بينما كنت نائمًا؟! هل نُذِرتُ أُضحيةً؟ لا أنفع أضحيةً، فأنا مجرّد عظام. بينما جاي أكثرُ لحمًا.. انظروا.

ارتمَت السيدة على صدر كيو، وبدَا ارتباكه وقلقُه واضحَين، لكنه ربَّت على ظهرها.

- ماذا يحدث؟! هل أنا بخير؟

- نعم. (قالت له، وهي تمسح عينيها، إلا أنّ المزيد من الدموع تدفّقَت بدلًا من سابقاتها على الفور) أنت بخيرٍ يا صغيري. كلّ شيء على ما يرام.

ثم رجّ هاتفي.

أوتوم: «يسعدني أن كيو على ما يرام، لكن حتى تخبرني بالحقيقة كاملة، فنحن ما زلنا على غير ما يرام».

ولكن كيف لي أن أخبر أوتوم بالحقيقة بينما السيّدة «بي» -ومع أنّه لم يتبقّ لكيو سوى يومين- ما زالت مُصرّة على عدم إخباره؟

- إنه يستحقّ الحقيقة (قلتُ وأنا أتبع السيّدة «بي» إلى المطبخ).

لكن «لا لا لا لا لا لا لا لا»، كانت كلّ ما قالته.

وقالت:

- يمكنك صبُّ خرسانة حول قدمي، لأنني لن أتراجع عن هذا القرار.

وتفهّمتُ مدى صعوبة الموقف، وثقلِه، وكم سيعاني كيو إن قلنا له: «مرحبًا يا رجل، خمِّن ماذا جرى، لقد متَّ!» ،حتى دون إضافة: «أه، بلى، ثم أُحيِيتَ مؤقّتًا!».

احتمالات أن تجري تلك المحادثة بسلاسة؟ ألا ينتج عنها ثلاثيّة من النحيب والشتائم والاكتئاب الشديد؟

لا تتردّدوا بوضع العدد «صفر» في كلّ لغات العالم، لكن حتى إن كان تصنيف الصعوبة يُقاس بواحدة المستحيل التعجيزيّ، فذلك ليس عذرًا. الصواب يظلُّ صوابًا. أريدُ أخيرًا أن أفعل الصواب، مهما يكُن الموقف. ولا أقول إنه لا توجد حجَّة لعدم إخباره.

مكتبة ياسمين

فعندما تقول السيّدة «بي»: «أريده أن يستمتع بأيّامه الأخيرة على هذه الأرض، لا أن يتصارع مع وفاته»؛ أفهم الأمر تمامًا. إنها حجة منطقيّةٌ جدًّا. تستحقّ أن تُؤخَذ بعين النظر، لكن في النهاية، بالنسبة لي، ليست جيّدةً بما يكفي. عندما تكون القضيّة متعلّقةً بحياة شخص ما، فلا ينبغي أن نقرّر بحسب مشيئتنا نحن، أو حسب مشاعرنا.

ونعم، بالتأكيد، أُدرك أنه من السهل عليَّ قول هذا، فأنا لست والدته الثكلى، أو فردًا من عائلته الحزينة. أنا صديقه المقرّب القديم القابع حاليًا على هوامش حياة كيو المختصرة جدًّا للأسف، لكن رغم ذلك.. رغم ذلك... فكّروا كيف كنتم لتعيشوا لو عرفتم أنه لم يتبقَّ أمامكم إلا بضعة أيّام من الحياة. فكّروا الآن كيف تعيشون معظم الأيام.

حسنًا، الآن أجيبوني: هل كنتم لتفضّلوا استغلال ما تبقّى من حياتكم بفعل الأشياء التي طالما رغبتم بها، أم تقضون عشرين دقيقة محدّقين إلى مرآة التكبير الخاصّة بأختكم أثناء نتف شعر أنفكم المجعّد الطويل الملتفّ حتى صار يشبه ذيل خنزير؟ يا رفاق، هذا ليس سؤالًا مخادعًا.

لذا قلتُها ببساطة:

- قراركِ بعدم إخبار كيو خاطئ!

قلتُ بصوت أعلى مما كنت أنوي، وصار صوتُ كلَينا يعلو أكثر مع كلّ جملة. ربّما لهذا لم نسمعه يدخل المطبخ.

سأل كيو:

- تخبرني بماذا؟

استدرنا أنا والسيّدة «بي» مذهولَين، بفكّين مرتخيين، وأعينٍ محملقة.

- لا شيء عزيزي، .. (قالت السيّدة «بي»، وهي ترمقني بنظرة كان بإمكانها أن تقضي على الديناصورات بسهولة) جمال كان يخطّط لحفلة مفاجئة و...

- حفلة مفاجئة (ردّد كيو) لماذا؟

- أوه، آه، من أجل، آه...

وبينما كانت السيّدة «بي» تبحث عن الكذبة التالية لتقولها، شعرتُ بها تتكوّن في داخلي؛ الكلمات.. الحقيقة.. تحوم في أحشائي، مليئة بأسوأ

مكتبة ياسمين

الاحتمالات، وارتفعت أعلى وأعلى دون أن تجِد مَخرجًا، مثل مرحاض مسدود على وشك الانفجار. كان ذلك حتميًا.

- كيو، هناك... هناك شيء ينبغي أن أخبرك به...

لكن السيّدة «بي» لوّحَت إليَّ لأصمت، ونظراتُها القاتلة تتضاعف بشكل هائل.

- جمال، اخرس. هذا لا يخصُّك!

- أنا آسف، سيدة بارانتيس. أحبُّك، لكن هذا لا يخصّك أيضًا.

- جمال، إذا قلتَ... إذا فعلتَ ذلك، فلَن...

هززتُ رأسي:

- لن ماذا؟ لن تطأ قدمي هذا المنزل مجدّدًا؟ لن أرى صديقي كيو مجدّدًا؟ كلّ هذه الاحتمالات قائمة على أية حال.

- ماذا يحدث بحقّ الجحيم؟ لماذا لن تراني مجدّدًا؟!

استحال الغضب في وجهها إلى خوف:

- أتوسّل إليك. أرجوك لا تفعلها.

- ما خطبك يا جاي؟ -تابع كيو- هل أنت مريض؟

ثم وضع راحة كفّه على جبهتي: اللعنة، أنت مريض، أليس كذلك؟ متى ستحصل على استراحة، اللعنة... اسمع، لا... أنت قوي يا رجل... وأعدك بأنني سأساندك مهما يحدث...

- كيو..

قلتُ، وأعدتُ اسمه مرارًا وتكرارًا حتى توقّف أخيرًا، سقطت السيّدة «بي» في زاوية المطبخ.

تابعت:

- أنا لست مريضًا يا رجل. من فضلك، من فضلك، فقط استمع إليَّ...

ظهرَت ويت في المدخل بجانب كيو، ووجهها محتار:

- ماذا...؟ ماذا يحدث هنا؟

- أخوك على وشك تدمير حياة ابني. هذا ما يحدث.

التفتت ويت إليَّ:

مكتبة ياسمين

- ماذا تفعل يا جاي؟

- ما كان ينبغي أن أفعله من قبل.

قالت السيّدة «بي»، وهي تمسك هاتفها:

- لن أدع ذلك يحدث. سأتصل بالشرطة.

لكن كيو مشى نحو والدته، أخذ الهاتف من يديها:

- أمّي أنا أحبّك، لكن مهما يكُن هذا، لا يمكنك حمايتي من كلّ شيء. لست بحاجة إليك. أنا أحبّك، لكن عليك أن تدعيني أكون مستقلًّا.

- أتظنّ أنني لا أعرف ذلك؟ تظنّ أنني لا أريدك أن تكون مستقلًّا؟ تظنّ أنني لست فخورةً بالفعل بالإنسان الذي أنت عليه؟

أومأ كيو:

- إذا كنت تؤمنين بذلك حقًّا، فستسمحين بحدوث هذا، أيًّا كان ما يحدث.

اكتفَت بالصمت.

- هلّا بقيتِ مع أمّي قليلًا يا ويت؟

أومأت ويت بالإيجاب. والتفت كيو إليَّ، وأشار إلى الباب: «فلنتمشَّ».

لم نتساءل حول وجهتنا، مشينا حيثما تأخذنا أقدامنا وحسب.. حيث تأخذنا الطريق. كم مرّة ركضنا على هذا الرصيف، وترجّلنا، ودفعنا درّاجاتنا إلى ما وراء هذا المنزل، لأن المالك اعتاد أن يصرخ: «الأرصفة للمشي، لا لركوب الدراجات!»، ثم عدنا إلى دراجاتنا حالَ تجاوزِنا لهذه الزاوية!

- كيو، أنا...

رفع كيو إصبعه:

- لدينا وقتٌ، صحيح؟

أومأتُ:

- نعم يا رجل. بالتأكيد.

رغم أن هذا هو فحوى الأمر، الوقت.

سرنا أمام منزل ورديٍّ ونكزني كيو:

- هذه منطقتك يا أخي.

- حقًّا يا هذا؟ ضحكتُ.

مكتبة ياسمين

- قبضتُ عليك وأنت تتبادل القبلات الشّغوفة مع بريندا لونجفيلو. كدتما تأكلان وجهَي بعضكما بعضًا.
- طيّب، أيًّا كان.
- بريندا لونجفيلو ذاتُها التي أمضت ذلك الصيف بأكمله في مناداتك جمال غير الجميل، ومضايقتك في كلّ مرّة تمشي فيها بجوار منزلها.
- ثم أتى آخر يوم من الصيف، كان ساحرًا -تنهّدتُ حالمًا- آه، القلب وأسراره.

عجيبٌ كيف تحافظ الأماكن على ذكرياتنا كاملةً؛ مبنى، أو حديقة، أو رقعة من العشب بين منزلين، كلّ منها مثل جَرّة حافظة!

مررنا بمتجر لقطع غيار السيارات حيث عرفَ جميع الموظفين والدي بالاسم. ثمّ بمتجرٍ أنفقنا أنا وكيو كلّ نقودنا التي كسبناها من جزّ العشب في شراء وجبات خفيفة من الفاكهة، ورقائق البطاطس، ومجلة «سلام». ثم وصلنا إلى متجر يبيع شريحة البيتزا مقابل دولار.

28

توبروَن

جانسي في الشارع

29.452 مشاهدةً، 9.2 ألف إعجابٍ، 374 عدم إعجاب، ثنائي جانسي للكوميديا - 21.265 مشتركًا

انتقال إلى مشهد: خارج متجر يبيع شريحة البيتزا مقابل دولار

كيو: إذن، نحن خارج متجر يبيع شريحة البيتزا مقابل دولار، حيث لا تكلّف شريحة البيتزا أكثر من...

تنتقل الكاميرا إلى فتى يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا يرتدي قميصَ «ليكرز» مصنوعًا خصّيصى له، ويحمل طبقًا ورقيًّا عليه شريحة من بيتزا الجبن عليه.

ليكرز جيرسي: خمسة دولارات مثلًا؟

مكتبة ياسمين

كيو: لا.

ليكرز جيرسي: ثلاثة دولارات.

كيو: لا.

ليكرز جيرسي: يا رجل، أنا أكره الرياضيّات.

كيو: لقد اشتريت للتوّ شريحة بيتزا.

ليكرز جيرسي: وإذًا؟

كيو: كم تكلفة تلك الشّريحة؟

ليكرز جيرسي: لا أعرف. لقد أعطيتَه عشرين دولارًا وحسب يا أخي.

كيو: كم أرجَع لك؟

ليكرز جيرسي: هل تريدني أن أعُدّها؟

(سحب الفتى رزمة من النقود من جيبه، تُكبّر الكاميرا وجه كيو).

كيو: لم نصل حتى إلى السّؤال الفعليّ بعد، لكن بصراحة، أنا... مصعوق.

ليكرز جيرسي: مهلًا، هل أنتما مشهوران بما يكفي لأظهر في الفيديو الخاصّ بكما؟

تنتقل الكاميرا إلى كيو: ارتسم على وجهه تعبيرٌ يوحي بأنه لم يصدّق ما سمعه للتوّ.

كيو: لقد وصلنا للتوّ إلى عشرين ألف مشترك.

ليكرز جيرسي: حسنًا، لا تشعرا بالسّوء. تبدوان رائعَين يا رفاق. ستحقّقان النجاح.

(يحاول كيو أن يتماسك قبل أن ينفجر ضاحكًا).

كيو: مهلًا، أنت من كبار مشجّعي «ليكرز» إذًا؟

ليكرز جيرسي (مُشيرًا بكلّ فخر إلى مقدمة قميصه): العب أو مُت.

كيو: ساعدني في فهم الأمر إذًا، فأنا لا أعرف أيّ لاعبٍ في فريق «ليكرز» يُدعى سي دي بريكاشو.

ليكرز جيرسي (ضاحكًا): هذا القميص مُخصّصٌ لي يا رجل. هذا اسمي. قيّوط[1] دي بريكاشو.

---

(1) Coyote: القَيّوط، ذئبٌ شمال أمريكيّ صغير.

مكتبة ياسمين

كيو (ورأسُه مائل متأمّلًا): مهلًا! أيّ أنّ اسمك القانونيّ المطبوع على شهادة ميلادك الحقيقيّة، هو قيُّوط دي بريكاشو؟

ليكرز جيرسي: نعم، لماذا؟ هل أنا أوّل قيُّوط تعرفه؟

(تُكبّر الكاميرا وجه كيو، ويومئ بالإيجاب ببطء. يصدر رنين وتظهر على الشاشة كلمة «صحيح»).

كيو: لا أدّعي عادةً أنّني واثقٌ من أيّ شيء مئة بالمئة، يا قيُّوط، لكنني واثقٌ مئة وتسعة وثمانين مليونًا بالمئة من أنك أول ذئب يعرفه هذا الكوكب بأكمله!

(يصدر رنينٌ، وتظهر على الشاشة كلمة «مؤكَّد»).

كيو: هل لديك أيّ أشقّاء، يا قيُّوط؟

ليكرز جيرسي (مبتسمًا): أخت. اسمها سلحفاة.

(أُغمي على كيو على الرصيف فاقدًا للوعي).

انتقال إلى مشهد: كيو، منتصبًا

كيو: أعلم أنّك لا تحبّ الرياضيّات يا قيّوط، لكن هذه ستكون معادلة بسيطة، اتفقنا؟ سأمرّر لك الكُرة لتسدّدها تسديدة سهلة.. هل أنت مستعد؟

ليكرز جيرسي: بالتأكيد يا رجل.

كيو: وسطيًّا، يتألّف الشهر من ثلاثين يومًا... إذا أخذت تلك الثلاثين يومًا... وأضِف والديك... من أصل تلك الثلاثين يومًا... كم يومًا منها... يدخّن... والداك الحشيش؟

ليكرز جيرسي (ضاحكًا): كُلَّها.

(يصدر رنين، وتومض على الشاشة كلمة «صحيح»).

كيو: أنت رائع يا رجل! يا رفاق، هذا قَيّوط دي بريكاشو، صديقُ العَرْض مدى الحياة!

(يضرب كيو وليكرز جيرسي كفّيهما متصافحَين).

مكتبة ياسمين

27

سِرنا في شارع آخر قبل أن أحاول مرّة أخرى. مررنا بملعب أطفالٍ اعتاد أن يتطارد فيه كيو وجمال الطفلَين. وأردتُ أن أقول كلامي بأفضل طريقة، بالطريقة الصحيحة، لكن ما من فضيلة أو حقّ في ما يجري.. كلّ ما هناك هو:

- كيو، ما هو آخر شيء تتذكّره عن حفلة هيل تلك الليلة؟

ابتسم كيو:

- تقصد باستثناء أننا صِحنا على بعضنا بعضًا أمام المدرسة بأكملها؟

- هل تتذكّر ما حدث بعد ذلك؟

- بصراحة، ذكرياتي ضبابيّة قليلًا.

- هيا، يا كيو.. فكر.

فرك رأسه، كما يفعل الناس عندما يحاولون تذكُّر شيء ما:

- أنا آسف يا رجل، لكنني لا أذكر شيئًا! -فرقع أصابعه بعدها- مهلًا، مهلًا! تذكّرتُ شيئًا آخر.. أتذكّر أنني كنت جالسًا على حافّة الرصيف.

- ألا تتذكّر رؤية أيّ شخص آخر هناك؟

هزّ كتفيه:

- لا، كنتُ وحيدًا على ما أعتقد. أشعر أنّ... مهلًا، مهلًا، كان هناك شخص ما. أتذكّر أنّه كان هناك وميض أحمر، وظننتُ أنها كانت مجرّد خردة طافية، لكنها لم تكن... خردة... كانت...

وشعرتُ بالسوء، لأنني كنتُ أساعده على تذكُّر ليلةٍ أردنا جميعًا أن ننساها، لكنني لم أجِد طريقة أخرى.

- مهلًا، مهلًا! -قال كيو وهو يرفع يديه ووجهه ملتويًا من الرعب- أعتقد أنني... أتذكّر أحدهم يسبح... كانت هناك ومضة حمراء، لكنها خرجَت من الماء. لقد أخبرتَني أنها نجَت.

هززتُ رأسي:

- لم أرَ الفتاة قط. لم يرَ أحدٌ في الحفلة أيّ شخص في الماء سواك... ثمّ أنا.

مكتبة ياسمين

- هل غصنا بحثًا عنها؟

- لا.. غصتَ أنت بحثًا عنها، ثم لحقتُ بك.

- لماذا؟

- لأنك كنت... كنت تصرخ، يا كيو. كنت تغرق وتصرخ و...

قاطعني كيو:

- حسنًا، لكنك أنقذتني، صحيح؟ جمال المُنقِذ! ولهذا كنتَ في غرفتي في صباحَ اليوم التالي، لأنك كنت قلقًا عليَّ. ليتَني أتذكر.. لكن أنا... شكرًا لإنقاذ...

- كيو، أُقسم أنني سبحتُ بقوّة لم أشهدها في حياتي، وكنت خائفًا للغاية، لأنني في البداية لم أجدك، وكنتُ خائفًا من أنني كنتُ قد تأخرتُ للغاية، لكن بعد ذلك... ولكن بعدها وجدتُك، إلا أنك كنت تختنق بسبب الماء، وحاولت إبقاء رأسك مرفوعًا، لكنني تمنّيتُ لو كنتُ أقوى وأكبر. أنا... جدَّفتُ نحو الشاطئ، لكنني كنتُ على وشك أن أفقدك عدّة مرات، كنتَ تُفلت مني تحت الأمواج. ومرّاتٍ غُمِر كلانا، لكنني واصلت السباحة، يا كيو. كانت ساقاي تخذلانني، وآلمتني ذراعاي، ولكن بعدها وكأن شيئًا ما بداخلي استسلم، وفجأةً لم أستطِع التنفس. حاولت الاستمرار. أقسم أنني حاولت، لكن، لكن... وتزايدَت صعوبة النظر إلى كيو، ومشاهدة وجهه، وهو يكافح لفهم قصتي. وأراد جزءٌ كبيرٌ منّي أن أتوقّف هنا، وأن أخبره أنني كنتُ أمزح فقط.. أن ينسى كلّ شيء، لكنني كنت أعرف أنه عليَّ أن أنهي:

- بدأ كلانا يغرق يا كيو. كنا نغوص أسرع مما استطعت أن أسبح. ظللنا نغرق.

- جاي، ماذا تقول؟! (سأل كيو بهدوء، مُقاطعًا، وشفتاه ويداه ترتجفان) جاي، أنت تخيفني نوعًا ما! يا رجل...

أنا خائف أيضًا، فكرتُ في نفسي، ثم قلتُها له:

- وأنا آسف، يا كيو. أنا آسف جدًّا يا رجل... لكن... لم أكن بالقوّة الكافية.. لم أكن بالسرعة الكافية. لم أكن... كافيًا.

دلّك كيو جبهته:

مكتبة ياسمين

- لكنني لا أفهم... إذًا، أنت تقول... مهلًا، تقصد... أننا... ميتان؟

- كيو...

- أنّ هذا مَطهَر من نوعٍ ما أم الجنة؟ أو لا أعرف! لكننا ميتان، هل هذا... هل هذا ما تقوله؟ نظر إلى يديه، وإلى ذراعيه، وربَّت على بطنه وصدره.. قرص نفسه: لكنني لا أشعر أنني ميت!

- كيو... لم تمُت...

- يا إلهي! الحمد لله. لقد أخَفتَني للغاية يا رجل. لقد... جاي، ما الأمر؟ لماذا تبكي؟ جاي؟ جاي. أخبرني يا جاي، ما الأمر؟

- لقد متَّ، يا كيو. أنت فقط.

- لا.. هذا ليس صحيحًا!

قال وهو يتراجع خطوةً إلى الوراء، أو لعلّه تعثّر، وأمسكتُ بقميصه، وأبقيتُه واقفًا، إلا أنه سقط في العشب الأصفر.

- كيو، أنا آسف جدًّا. أنا...

- لا.. هذا غير ممكن!

- كيو...

- إن كنتُ ميّتًا، فكيف يمكنني أن أكون هنا.. معك؟

- أُعيد... إحياؤك.

- أُعيدَ ماذا؟ هذا ليس أمرًا حقيقيًّا!

- إنه حقيقيّ، يا كيو. لقد أعادوك.

- لا! (هزّ كيو رأسه بشدّة) لا لا لا لا لا لا لا...

انهمرَت الدموع من أعيننا معًا؛ عينيه، وعينيّ.

- أنا آسف للغاية، لأنني خذلتك. أنا آسف جدًّا...

- هذا ليس حقيقيًّا. هذا... ليس... أنا لست... ميتًا. أنا على قيد الحياة. سوف... سوف أُثبِت ذلك.. راقبني.

وتعثّر كيو واقفًا على قدميه، مذهولًا بينما بحث جسده ودماغه عن التوازن.

- كيو، دعنا نذهب إلى المنزل. يمكنك التّحدّث مع والدتك.. يمكنها إخبارك.

لكن كيو لم يكن يسمعني:

مكتبة ياسمين

- راقبني! انظر يا جاي. أنا لست ميتًا؛ سأثبت ذلك حالًا.

وبدأ يركض خارج الحديقة تجاه التقاطع المزدحم.

- لا، كيو! كيو! عُد!

استمرّ كيو في الركض، حتى خانَه حذاؤه، وتعثَّر عن الرصيف إلى الطريق، بحيث إذا انحرفَت سيّارة عن مسارها مقدار أنمُلة، فسوف...

أسرعتُ راكضًا، وأمسكتُ كِلتا ذراعَيه، وبكلّ القوّة التي لم أكن أعرف أنني أمتلكها، سحبتُه بعيدًا بما يكفي.

كان يرتجف، ويقول شيئًا لم أفهمه. تأرجح جسده ذهابًا وإيابًا مرتعشًا ومرتجفًا.

قرّبتُه إليَّ، تلاصق رأسه على رأسي. كان وجهه رطبًا وناعمًا. كان دمعُه وبكاؤه خافتًا للغاية، وكأنه خلف زجاج.

مسّدتُ مؤخّرة رأسه، لأنني لم أستطِع فعل ما أردتُ فعلَه. أردتُ أن أقول إنه سيكون على ما يرام، إنّه بخير. أردتُ أن...

سأل كيو:

- كم من الوقت تبقّى لديّ؟ أخبرني بما حدث يا جاي، أخبرني بكُلّ شيء.

وفعلتُ.

لم أُخفِ أيّ شيء.

26

ظللتُ أترقّب أن يُذعَر كيو مرّة أخرى.. أن ينفعل مرّة أخرى، ولكن على العكس، فقد كان أهدأ من المعتاد.. أكثر صمتًا. وكلّما توقّفنا عند زاوية، في انتظار أن تسمح الإشارة بمرور المُشاة، كنتُ أحاول إشراكه في الحديث، حتى لو بغاية الثرثرة وحسب. في مرحلةٍ ما، حاولتُ أن أجعله يتحدّث عن كندريك فالون، لكنه أومأ برأسه وعيناه شاردتان. ولعلّ تلك كانت حالةَ صدمة.

تسكّعنا مدّة ساعة، ثم عدنا إلى شارع منزل كيو، وكان الحيّ حينها مظلمًا، باستثناء مصابيح الشوارع، وتوهُّج المصابيح الأماميّة بين الفينة والأخرى من السيّارات العابرة.

مكتبة ياسمين

عاد جار كيو بسيّارته خلفًا في ممره، وأنزل زجاج نافذته مشيرًا إليَّ:

- هيه، هل هذا جمال؟

رفعتُ يدي:

- مرحبًا، سيد ريتشاردسون.

كان وجهه منارًا بالضوء الأزرق الصّادر عن وحدة التحكّم بالسيارة. ضربَ على فخذه، ثم قال:

- يا للروعة! اجتمعَت عصابتكما مرّةً أخرى! هذا يسعدني.. يسعدني! لقد افتقدناكما أنا والسيّدة ريتشاردسون أيّها الأولاد، وأنتما تركضان في ساحاتنا الخلفيّة. هاها. أظنّ أنكما كبرتما على ذلك الآن!

ابتسمتُ من باب الأدب.

- كيو، هل بإمكانك مساعدتي في أعمال الفناء الأسبوع المقبل؟ صرتُ جاهزًا أخيرًا لإصلاح تلك السقيفة. أوه! وسأدفع لك مبلغًا جيّدًا، بالطبع، وقد وعدَت السيدة ريتشاردسون سابقًا بصنع قدْرٍ ضخم من الكيمتشي من أجلك فقط.

كنتُ على وشك إخبار السيّد ريتشاردسون أن كيو ليس بحالٍ تسمح بهذا الحديث الآن. لكن لدهشتي، قال كيو:

- بالتأكيد، اتصل بي عندما تكون مستعدًّا.

تبسّم السيد ريتشاردسون كاشفًا عن أسنانه، وهو يقول:

- كلّ الشكر لك. ويردد: يا لك من فتى طيّبٍ يا كوينسي! ويكرّر: سرّتني رؤيتك هنا، يا جمال، لا تُطِل غيابك.

ثم ابتعد بسيارته. راقبناه يتوقّف عند الزاوية، وأضواؤه الخلفيّة تتضاءل أكثر وأكثر حتى اختفَت.

«كيو! جاي!»، نادَت ويت من الباب. لم أستطِع قراءة وجهها، وفي عينيها دوّامات من ألف لون، مثل الكأس التي يغسل فيه الرسّام فُرشَه. سألَت: «هل كلّ شيء...؟»، أومأتُ بالإيجاب. وتكدّرَت السّماء من فوقنا بلون أرجوانيٍّ؛ ظلام سماويّ حتى تكاد تشكّ بوجود الشمس، أو إن صحّ ذلك، فما كنتَ لتعرف إن كانت ستعود يومًا، وكأنها تعكس ما نشعر به، كأنّ الشمسَ أنارَت يومها الأخير.

مكتبة ياسمين

سمعنا مُحرّك سيارة يُقلع وراءنا. التفتُّ لأقول شيئًا لكيو، لأُلقي دعابةً سخيفةً، وأرمي القليل من الخِفّة في قِدر العاطفة ذاك، لكن كيو لم يكن بجانبي.

«كيو!»، نادَت ويت، وهي تخرج من المنزل، بينما مشى كيو بسيارته عابرًا الرّصيف الأماميّ.

«كيو!»، ناديتُه، وركضتُ خلف السّيارة، وأنا ألوّح بذراعي حتى تجاوزنا كُتلتَين سكنيّتين، قبل أن تتحوّل المنازل إلى مغسلة سيارات، وكنيسة، ومتجر صغير، قبل أن يقفز الحدّ الأقصى للسّرعة من عشرين إلى خمسة وأربعين. شاهدتُ كيو يدخل في حركة المرور، شاهدتُه يتجاوز مسارًا كاملًا من السيارات التي علَت أصواتُ أبواقِها، واقتربت السيارة إلى جانب شاحنة خدمة بريديّة مركونة. وضعتُ يدي على فمي، وصرختُ باسمه للمرّة الأخيرة، رغم أنه ما كان يستطيع سماعي.. رغم أنّ شيئًا ما كان ليتغيّر حتى لو استطاع.

فتحتُ هاتفي، ضغطتُ شاشته، وضغطتُ وضغطتُ، ثم انتظرتُ.

- جمال؟

- سيد أوكلاهوما؟ نحن... أنا بحاجة إلى مساعدتكم.

عدتُ أدراجي، ووقفتُ عند زاوية تبعدُ أربعة منازل عن منزل كيو. وسكن الكون من حولي وهدأ. لم أرَ نجمًا في السماء، كأننا جميعًا نائمون.

بعد خمس دقائق، اهتزّ هاتفي.

- أعرف مكانَه.. إنه بأمان.

الحمدلله.

- قل لي أين هو. سأذهب لأجلبه، وأعيده للمنزل.

بعد لحظات:

- جمال... أعتقد أنه من الأفضل... لعلّه من الأفضل أن تبقى في مكانك.

عضضتُ شفتي. رمشتُ رادعًا الدّموع، وفهمتُ السيّدة «بي»، وكيف يبدو الصّواب وما هو أفضل، الشيءَ ذاته أحيانًا، لتكتشف بعدها أنّ الحبل المختلط هو في الواقع خيْطان متشابكان.

«جمال.. جمال، هل أنت هناك؟»

لا، لست هنا. أو هناك. لستُ في أيّ مكان.. أيّ مكان.

مكتبة ياسمين

عندما عدتُ إلى المنزل، لم تضيّع السيّدة «بي» لحظةً:

- أين كيو؟

- لا أعرف.

- أين هو يا جمال؟ أنت تكذب!

هززتُ رأسي:

- كنتُ لأخبركِ لو كنتُ أعرف.

- ها هو كيو في الخارج، الله يعلم أين، معتقِدًا أننا جميعًا كذبنا عليه.. مُعتقِدًا أنني كذبت عليه.. أنني خنتُه، وأنّه ما من شيء حقيقيّ!

لكننا فعلنا، وفعلتِ. ولا شيءَ حقيقي.

- سيّدة بار...

- إذا لم أجد ابني يا جمال...

- أعدكِ أنني...

لكنها كانت قد أمسكَت مفاتيح سيارتها. هزّت رأسها في وجهي، وأخبرتني أنّ هذا ما كانت تخشاه، وسألَتني إن كنتُ قد رضيتُ الآن، لكنني لم أكُن راضيًا، ولا قريبًا من الرضى، لأنها لم تكن معركة يفوز فيها أحدٌ، لأنه ما من شيء في هذا الأمر يبعث على الرضا بأية طريقة، ولأنني لا أتذكّر آخر مرّة كان فيها أيّ شيء مُرضيًا.

لأنه ما من مادّة أكثر عُرضةً للانفجار من سرّ ثقيل، والاحتفاظ بها في دواخلنا، ظنًّا منّا بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، أشبه بابتلاع قنبلة يدويّة، ثم تنظيف أسناننا بالفرشاة.

مكتبة ياسمين

كوينسي..

ها أنت ذا مجدّدًا تُطالب بحريّتك.

ومن أنا لأضعك تحت وطأة سواها؟

«أحلام»، فليتوود ماك

مكتبة ياسمين

25

.1

قبل ساعتين، ظننتُ أنّ الموتى الأحياء هم زومبي. لم أكن أعلم أنني عضوٌ فخريٌّ منهم، إلا أنني لا أشعر أنني ميّت.

أعطيتُ المرأة نقودي.

قالت:

- اختيار موفّق. ضعها في الماء على الفور.

أومأتُ موافقًا.

- هل تحتاج حقيبةً؟

- لا، لديّ كلّ ما أحتاجه.

وشعرتُ أنني بحالة جيّدة، مما بدا غريبًا. شعرتُ أنني طبيعيّ، بغضّ النظر عن خيانة وغدر كلّ من أحبّهم لي. بالطبع، كانت نيّة أمي طيّبة، لكنها احتفظت بسريّة أهمّ شيء حدث لي على الإطلاق.

وجمال، هل كان هذا السّبب في تفعيله النسخة المُحدّثة من برنامج السوبر صديق 2.0، بعدما كان يتجاهلني في العامين الماضيين كما لو أنني غير مرئيّ؟

أحد الدروس التي تعلّمتُها من مشاهدة والدي في ساعاته الأخيرة؛ عندما يتعلّق الأمر بأمور الحياة أو الموت، نادرًا ما يقول الناس الحقيقة.

ركنتُ سيّارتي على الرصيف الضيّق. أخَفتُ حارس المكان، وأنا أفعل ذلك.

- هل أنت واثقٌ من أنّك تريد أن تكون هنا في هذه السّاعة، يا أخي؟ ألا تخاف من الأشباح وهذه الأشياء؟

- لا، لست قلقًا (قلتُ له وأنا أتجاوزه) أنتمي للأشباح!

كان يملك الشاهدَ الأزرق الوحيد في القسم، لأنه كان عليه أن يكون مختلفًا دائمًا، حتى في الموت.

تقول أمي إن أسوأ ما قد نفعله لشخصٍ ما هو أن ننساه. ربّما لهذا السبب اختار اللون الأزرق، ليُصبح من السهل تذكُّره.

مكتبة ياسمين

جثوتُ، ووضعتُ أزهاري عليه. تتبعَت أصابعي الحافةَ المنحنية.

«مرحبًا يا رجل. أرجو أن تحبّ النرجس البرّي، لأنّ هذا كان كلّ ما لديهم. اسمع، لقد مرَّ وقت طويل منذ أن مررت، لن أكذب. ليس بسبب أنك أقلُّ أهميّة الآن؛ كلُّ ما في الأمر أنّ قدومي إلى هنا كان أحد الأشياء التي كنتُ أعرف أنّه عليَّ أن أجد طريقة للتوقّف عن فعلها. ليس إلى الأبد، لأنني آمل أنك تعرف أنّ هذا مستحيل، بل بحيث أقضي يومًا واحدًا دون الشعور بالانكسار.. بحيث أبتسم أكثر مما أبكي، لكنّك رجلٌ يصعب هزه.

لو كنت هنا، كنتَ لتومئ برأسك كما لو لتقول «بالطبع أنا كذلك»، وحتى عندما يكون الأمر قاسيًا ومؤلمًا، فتفعل ما ينبغي فعلُه. تبذل قصارى جهدك كما يفعل المرء بحيث يستمرّ، وينتهز كلّ لحظات الحياة التي تركها تفلت منه، كلّ الأشياء التي تجاهلها في حياته لأنه... لأنه كان حزينًا جدًا فلم يبالِ بها، وإلا فإنّ الماضي سيؤثِر بالمتعلّقين به، وثِقْ بي، فأنت لست شخصًا يريد تلك المرساة. ومع ذلك، لم تعانِ من هذه المشكلة قطّ. كنتَ دائمًا مرتاحَ البال.

اعتادت أمي أن تسمّيك البطّ، لأنك تدَع كلّ شيء ينزلق عن ظهر، بما في ذلك بعض التي ما كان عليك أن تتناساها، لكنك كنت قد سمعت ما يكفي من أمي على مرّ السنين.

وإذًا، هل تريد أن تسمع شيئًا عجيبًا؟ أقصد، عجيبًا للغاية؟

تمالك نفسك، لأنك لست مستعدًّا لهذا بالتأكيد.

أنا في منتصف الطريق إليك عمليًّا، حيثما كنتَ، وإن كنتَ لا تزال موجودًا، لأنه اتّضح أنني ميت. هذا مفاجئ! صحيح؟ لم يُفاجأ أحد أكثر مني، ثق بي.

هل تريد أن تعرف كيف حدث ذلك؟

كنت أحاول أن أكون مثلك؛ شخصًا صالحًا لا يفوِّتُ فرصةً لفعل الخير والصواب. كُن مبادرًا، صحيح؟ لقد زرعتَ هذا عميقًا في رأسي.

وتسألني كيف أقف أمام قبرك إن كنتُ ميتًا؟

سؤال رائع يا أبي!

لقد أُعيد إحيائي. يسمُّونه الإنعاش. لا أعرف.. أيًّا كان! إذًا، باختصار، حصلتُ على وقف تنفيذ الإعدام. ما زلت في طريقي إلى قبرٍ جميل. لكنني

مكتبة ياسمين

حصلتُ على بضعة أيّام أخرى للسّفر إلى هناك، ولهذا، أفسِح لي المجال يا رجل.

لا يمكنك أن تأخذ مساحةً كما اعتدتَ أن تفعل على الأريكة؛ أن تمدّ جسدك كأنّ أحدًا سواك لا يريد الجلوس ومشاهدة التلفزيون، هاها.

أفتقدك.

أحبّك.

آسف، لأنني لم أقل ذلك مرّاتٍ أكثر. بصراحة، لا أعتقد أنني قلتُها من قبل.

لذا، سأسحبُ كلامي، حسنًا؟ انسَ أنّك سمعت ذلك.

قريبًا جدًّا سأخبرك شخصيًّا. اتفقنا؟

سيكون عليك أن تُريَني المكان، وتُطلعني على تفاصيله.

هل لديهم بلاي ستيشن هناك؟ قد نلعب أخيرًا مباراةً جيّدةً، على الرغم من أنني أشكّ في ذلك! ولا أريد أن أسمع أيّ أعذار. لا مزيد من المراهنات على ضعف النتيجة، أو الشيء الذي تحاول دائمًا إقناعي به بعد أن أهزمك شرّ هزيمة.

إذًا، لديك يوم أو يومان للاستعداد، حسنًا؟ لأنني قادم يا أبي.. أنا قادم.

ها، أينما كنت، فهم ليسوا مستعدِّين لك ولي معًا، هذا ما أعرفه. ما من طريقة.

لن يقتربوا.. اجتماع رجال بارانتيس مجدّدًا.

أتخيّل أحيانًا...».

- كوينسي، أنا آسف جدًّا للمقاطعة. انتظرت لبعض الوقت...

ظهر تعبيرٌ على وجهي.

- ما وراء الأشجار هناك. لم أستطع سماع أيّ شيء، أؤكّد لك. أتمنّى لو كان بإمكاني منحك المزيد من الوقت، لكن... حسنًا، مرّة أخرى، تقبّل اعتذاري.

- من أنت؟ كيف تعرف اسمي؟

- نعم، بالطبع -دفع نظّارته للأعلى- اسمي السيّد أوكلاهوما.

قلت له:

مكتبة ياسمين

- لديّ محطّة أخيرة بعد، ثم يمكننا الذّهاب.

مشيتُ أربعة صفوف خلفًا، وصفَّين للأمام، ووضعتُ الزهرتين الأخيرتين برفقٍ على قبرين متجاورين. قلتُ: «أحبكما أيضًا، وآسف».

2.

كانت سيّارة السيّد أوكلاهوما بالغة النّظافة. لم يكن ذلك مفاجئًا.

نظرة واحدة إليه، ومن العدم، انبثقَت كلمة «بلا أدران» في رأسي. كنتُ واثقًا تمامًا من أنني لم أقل «أدران» من قبل على الإطلاق. يا لغرابة العشوائية التي تخيّم في أدمغتنا في انتظار فرصتِها!

- إذًا، هل أنت بخير؟

حدّقتُ إلى الأمام مباشرة:

- اكتشفتُ أنني ميّت. كلّ شيء ظريف.

- صحيح. كنتُ أقصد... (تنحنح وغيّر قبضته على عجلة القيادة) نظرًا إلى كلّ شيء، لكنك على حق. سؤال مُتبطِّل.

- إذا كانت كلمة «متبطِّل» تعني «غبي»، فلديك موافقتي الكاملة.

ضحك السيّد أوكلاهوما، لكنه تمالك نفسَه على الفور. قال:

- طيّب. وقد عادَت رصانة صوته.

- هل لي أن أسألك سؤالًا يا رجل؟

- بالتأكيد.

- كم من الوقت تبقّى لديّ قبل أن أبتسم ابتسامة مزيّفة في نعش؟

- هذا سؤالٌ من الأفضل طرحُه على والدتك، يا كوينسي.

- لا أحد يريد أن يعطيني أيّ إجابات.

- اسأل ما شئت.

- حقًّا؟ (قلتُ محدِّقًا إليه من مقعدي) هل كنتَ لتعيد ابنك إلى الحياة دون أن تخبره؟

عبس السيّد أوكلاهوما:

مكتبة ياسمين

- هذا ليس... أنا غير متأكّد، لو كنتُ في مكانها، من المسار الذي سأختاره، لكنني أفهم لماذا اختارت والدتك النَّهج ذلك. ليس لي أن أحدّد الصواب أو الخطأ، ولكن... لا أعتقد أنها كانت مخطئة. كانت دوافعُها صافية، وكانت نيَّتُها حمايتك، ولست متأكّدًا من أنه يمكنك طلب المزيد من أيّ شخص.

- والجميع يعلم... ما حدث لي؟

- إذا كنت تقصد بالجميع والدتك وجمال وويت، وموظَّفينا في المركز.

- ماذا عن الأطباء في المستشفى، الممرضات، طاقم التنظيف؟

هزّ السيّد أوكلاهوما رأسه:

- بعد أن حصلنا على إذنٍ بنقل جسدك، نقلناك إلى منشأتِنا. لا أحد باستثناء الأشخاص الذين ذكرتهم يعرف بخصوص إنعاشك.

- لكن لماذا أنا؟ لماذا اخترتم إعادتي؟

- السؤال الذي يجب أن تطرحه، يا كوينسي، لماذا قد لا نختارك أنت؟ لقد تركت هذا العالم بطلًا. أظهرتَ الشجاعة حيث كان سيتردَّد معظم الناس. الكثير من البالغين ما كانوا ليقدِّموا تلك التضحية.

ضحكتُ:

- أنت تعرف أنني لم أكن أحاول الموت، صحيح؟

- أنا مدرك لهذه الحقيقة، نعم -ابتسَم- لكنها لا تُغيّر ما حدث. أنت تستحقّ أكثر مما يمكننا تقديمه، يا كوينسي.

أكملنا مسيرنا في صمت. أرخيتُ مرفقي على النافذة. خطر ببالي أنني لا أعرف إلى أين سيأخذني. أعتقد أنني افترضتُ أنّه سيأخذني إلى منزلي.

- لا يمكنكم إعادة الأشخاص الذين ماتوا منذ زمن طويل، صحيح؟

هزّ رأسه، ونقر على إشارة الانعطاف:

- صحيح. مستوى التحلّل يجعل ذلك مستحيلًا.

- معظم عملائكم أثرياء، صحيح؟

امتعض، وقال مُدافعًا:

مكتبة ياسمين

- يأتي عملاؤنا من بيئات مختلفة. البعض منهم لديه المال، لكن هذا ليس شرطًا. أربعٌ من عمليّات الإنعاش العشرة لدينا كانت في الواقع...
- خيريّة، كما في حالتي. ما المغزى؟ لماذا تعيدون إحياء أيّ شخص؟
- عندما فكّرَت د. إيفرسون بهذا العمل لأوّل مرّة، يا كوينسي...

أبطأ السيارة، تجاوز أمام شاحنة متوقّفة، وركن سيّارته، ثم تابع: نريد أن يكون المركز مكانًا يجد فيه الناس العزاء والسلوان. لا يزال أمامنا طريق طويلة قبل أن نعالج الموت بشكل دائم، ولكن يومًا ما، قريبًا، سيُمحى أسى الفقدان. سيكون الموت آخر ما يموت. تخيّل ألا يموت أحفادك على الإطلاق. ألا يعانوا من هذا النوع من الخسارة!

ضحكتُ قبل أن يقدِّر خطأه.

- لم أكن... لم أقصد أن... أنا آسف يا كوينسي.
- هيه، لن يكون لديّ أحفاد أو حتى... أبناء. لكن ماذا في ذلك، صحيح؟ هززتُ كتفي: أعني، ليس هناك ما يضمن أنني كنت سأنجبُ حتى لو... ليست مشكلةً هائلة.

إلا أنّ الحقيقة أنّ تلك الفكرة لم تخطر ببالي حتى الآن. لن أكون قادرًا على إنجاب الأطفال، وإنشاء أسرة. لن تكون أمّي جَدّةَ شخص ما، مما أحزنني، لأنها تعرف كيف تتعامل مع الأطفال. ومن الطريقة التي تدلّلني بها، لا يمكنني سوى أن أتخيّل كيف ستكون مع أطفالي.

نزعَ السيّد أوكلاهوما نظّارته، ومسحها بقطعة قماش من جيبه:

- نريد أن يصبح المركز عالميًّا.. أن يكون في أماكن يستطيع الناس تحمُّل تكلفتها، في أماكن لا يشعر فيها أحد بالحزن أو الألم.. أن يكون كلّ وجه داخل ذلك المبنى بهيجًا ومفعمًا بالأمل والسعادة. تخيّل هذا: مركز في كلّ زاوية من كلّ مدينة.
- هل تريد أن تصبحوا بمنزلة متاجر البرجر الرخيصة بالنسبة للرعاية الصحيّة؟

ضحك مرّة أخرى، لكنّه لم يردع نفسَه هذه المرّة:

- أنت شابّ مضحك يا كوينسي!
- يا رجل، ليتَني أحصلُ على ساعة إنعاش إضافيّة في كلّ مرّة أسمعُ فيها ذلك!

مكتبة ياسمين

.3

لم أعرف إذا كان ذلك بسبب شعوره بالمسئولية أو بالذنب جزئيًّا، أو لأنّ إقلال فتى ميّت على وجه التحديد جعلَه يشعر بالحزن، ولكن عندما كنّا على بعد كُتلتين سكنيّتين من منزلي فقط، ركن السيّد أوكلاهوما السيّارة.

- كوينسي، سأسمح بسؤال آخر.. دون حدود.

- ويمكنني أن أسأل أيّ شيء؟

أومأ السيّد أوكلاهوما برأسه.

- بجديّة، يموت الناس الطيّبون كلّ ثانية من كلّ يوم. لماذا اخترتموني أنا؟!

شرَع السيّد أوكلاهوما في حديث طويل حول حتميّة الموت للجميع.

- شكرًا لكلّ هذا الكلام النابع عن حكمة رجلٍ عجوزٍ... وفلسفته، لكنني قصدت لماذا أعدتموني أنا.. شخصيًّا؟!

- أوه! (مال السيّد أوكلاهوما إلى الخلف في مقعده.. عدّل وضعيّة نظّارته) ضع حزام الأمان مرّة أخرى.

- هاه؟ لماذا؟

- لقد وعدت أنني سأجيب عن سؤالك. هكذا يتمّ ذلك.

قدنا السيارة مدّة أربعين دقيقةً صامتَين تقريبًا، وفضّلتُ ذلك بصراحة، فقد كانت فرصة لترتيب أفكاري، للجلوس مع مشاعري. عندما أبطأَت السيّارة أخيرًا، انعطفنا إلى مسارٍ طويل متعرّج. مررنا عبر مجالٍ قوّة من الأضواء البرتقاليّة، وتوقّفنا عند قمّة التلّ.

قلت للسيّد أوكلاهوما:

- كان من الممكن أن تكتفي بقول إنك لا تعرف.

ضحك:

- مقاطع الفيديو الخاصّة بك لا تنصف حسَّ دعابتِك، يا كوينسي. خرج من السيارة: اتبعني.. أسرِع.

لم أملك أدنى فكرة أين كُنّا، لكن، من الخارج، بدا أنه كان ذات يوم مَصنعًا.. دون وجود دليل على ما كانوا يصنعونه هنا، أو ما يصنعونه هنا الآن. تبعتُ

مكتبة ياسمين

السيّد أوكلاهوما عبر سلسلة من الممرّات الطويلة، وكانت الجدران بيضاء صارخة مع أضواء بيضاء ساطعة لم أستطِع تتبُّع مصدرها.

كلّما وصلنا إلى باب ضخم، كان السيّد أوكلاهوما يضغط بيده على منتصفه، فتُضيء كلّ وسادة إصبعٍ بلون أزرق لامع، ثم يصدُر صوتٌ خافت، ثم ينفتح الباب في غضون ثوانٍ. توقّفنا أخيرًا عند باب لا يشبه كلّ الأبواب الأخرى. وضع السيّد أوكلاهوما يده على المقبض، ثم استدار نحوي، ووضع إصبعه على شفتيه، كما لو ليطلب مني أن أحافظ على الهدوء.

قلّدتُ إيماءته.

أدار المقبض.

.4

لم تكن تلك البقعة مثل بقيّة المرفق؛ كانت دافئةً وجذّابة، بأرضيّات خشبيّة وسجّاد مُتقَن النسج. زيّنَت لوحاتٌ كلّ جدار. كان الطابعُ خشبيًّا. كُنّا في شقة ضخمة.

- من يعيش هنا؟ سألتُ، وعيناي تكافحان لاستيعاب كلّ تلك التفاصيل.
- المدير.
- ألن ينزعج، لأننا في منزله في وقت متأخّر من الليل؟!
- لا أعتقد ذلك؛ لا ينام كثيرًا مؤخّرًا.

خلع السيّد أوكلاهوما حذاءه، وفعلت مثلَه. مشينا عبر الأرضيّة المفتوحة الواسعة، والإضاءة الخفيّة الكاشفة عن الحركة تضيء طريقنا.

- هناك سؤال واحد لم تسأله قط، يا كوينسي. على الأقل ليس بصوت عالٍ.
- ما هو؟
- لماذا قفزتَ في الماء؟
- قال جمال إنني اعتقدت أنني رأيت شخصًا ما هناك؛ فتاة، لكنها لم تكن حقيقيّة. كانت في رأسي وحسب.
- هل تظنّ إذًا أنّك متّ من أجل لا شيء؟

هززتُ كتفي:

مكتبة ياسمين

- لقد متُّ، وأنا أحاول أن أفعل ما اعتقدتُ أنه الصواب. هذا ليس لا شيء.

نقر السيّد أوكلاهوما على الباب أمامنا، وذاب النصف العلوي منه مُستحيلًا إلى شفافيّة مفاجئة. أردتُ أن أمدّ يدي لألمسها. هل كان حقيقيًّا؟ هل تفكك النصف العلوي بالفعل، أم أنه شفّاف وحسب؟ استقررتُ على الخيار الثاني، وإلا فكانوا ليحتاجوا الكثير من الأبواب البديلة. أشار لي بأن أقترب، وأنظر من خلال نافذة الباب.. كانت غرفة نوم.. غرفة طفل، وفي السرير النهاري الثنائيّ كانت طفلة صغيرة نائمة.

- من هذه؟

أجاب: وهو لا يزال يحدّق إلى الغرفة:

- الفتاة التي أنقذتَها.. ابنتي.

5.

صار كلّ شيء منطقيًّا؛ سبب رغبة المركز بإعادة إحيائي، هويّة السيّد أوكلاهوما الحقيقيّة.

- مهلًا! إذًا أنت... هل تملك كلّ هذا؟ هذا مختبرك؟

أومأ السيّد أوكلاهوما برأسه قليلًا:

- أنا المالك الأساسيّ للمركز، نعم. هناك عدد قليل من الأشخاص الآخرين الذين يشكّلون مجلسًا صغيرًا برفقتي. لا ينبغي لأحد أن يقرّر مسائل الحياة والموت وحده.

أومأتُ برأسي:

- أنت رجل ثريّ يريد إنقاذ العالم إذًا؟

- الحقيقة هي أنّ هذا بدأ مشروعًا أنانيًّا، يا كوينسي. منذ ما يقارب العشرين عامًا حتى الآن. لقد فقدتُ شخصًا كان يعني لي كلّ شيء. وقد حطّمني ذلك لفترة.

- لكنك تجاوزتَ الأمر.

- لقد فعلتُ (تنحنح السيّد أوكلاهوما)، لأنه على الرغم مما سلبني إيّاه هذا الموت، فقد منحني هدفًا. يسعدني أن أقول الآن إنّ العمل الذي نفعله، لم يعد يتعلّق بي فقط، أو بألمي.

مكتبة ياسمين

- أعتقد أنّ تحقيق مكاسب كبيرة في بعض الأحيان يتطلب خسارةً كبيرةً.

قال السيّد أوكلاهوما بهدوء:

- نعم، أظنّ ذلك.

لكن ظلّ لديّ سؤال واحد:

- لماذا كانت هناك بمفردها، في الماء، في منتصف الليل؟!

- استأجر أحد علمائنا منزلًا على شاطئ البحيرة، على بُعْد بضعة أبواب من مكان الحفلة التي كنتَ فيها. بناتُنا مُقرّبات من بعضهنّ بعضًا، في العمر والاهتمامات. العمل الذي أفعله يتطلَّب تضحيات معينة، أحدُها أننا في حركة مستمرّة. منذ ولادتها عشنا في إحدى وعشرين مدينة. تُمثِّل هذه التعديلات تحدّيًا للبالغين الذين أعمل معهم، ناهيك بأطفالنا. ومع ذلك، لم أكن لأسمح لها بالذهاب إلى حفل المبيت في تلك الليلة، فهي تكره العواصف الرعديّة، لطالما كرهَتها، ولكن... أخبرَتني أنّها أرادَت أن تكون شُجاعة، وأقنعتني أن هذه المرّة لن تكون مثل سواها، حيث اعتادَت أن تخاف للغاية، وتتصل بي لأُقلّها. قالت لي هذه المرّة ستكون مختلفة. وأردتُها أن تتغلّب على مخاوفها. كنت فخورًا برغبتها في المحاولة، لذلك تركتها تذهب.

تنهّد السيّد أوكلاهوما، وفرك صدغيه، وتابع:

- في مرحلة ما خلال المبيت، قرّرت الفتاتان أن تتسلّلا إلى الشاطئ، لتتظاهرا بأنهما حوريّتا بحر. رأيتَها أنت، وسبحت نحوها، ودفعتَها إلى الأمام، فجُرفَت إلى الشاطئ، فاقدةً للوعي، لكن على قيد الحياة. كانت صديقتُها قد عادت إلى المنزل طلبًا للمساعدة، لإحضار والدها. أخبرَتني أن الخوف جمّدها، وأنك لو لم تأتِ لإنقاذها، لكانت...

أزال نظّارته، وربّت بتكتُّم حول عينيه.

- لم أتخيل كلّ شيء. إنها حقيقيّة!

أومأ السيّد أوكلاهوما برأسه:

- بفضلك، ها هي بالفعل.

- يا للهول. يا له من حِمل حسِّيٍّ ثقيل، قد أحتاج أن أطلب منك إعادة إيصالي بآلة الحياة، وتُنعشني لبضع ساعات حتى أستطيع مُعالجة كلّ هذا.

مكتبة ياسمين

ضحك.

- ولا أحد يعرف عن هذا؟

- لا أحد خارج هذه الجدران. لا.. والآن أنت.

- ما اسمها؟ إذا كان لي أن أسأل.

- أماري ليليان.

- هذا ما كنت سأخمِّنه.

- قد يُفاجئك أنها خَصَّصَت لك -باعتبارك بطلها- لقبًا مناسبًا.

هززتُ رأسي غير مُصدِّق:

- استحالة! ما هو؟

- بوسيدون[1]، يا كوينسي. تدعوك بوسيدون.

.6

ركنّا في ممرّ سيّارات بيتي، لكن السيّد أوكلاهوما لم يوقف المحرّك.

- إن أردتَ أن أذهب مع... لأتحدّث مع والدتك، أنا...

- لا، سأتولّى الأمر من هنا. ابتسمتُ وأنا أخرج من السيارة: لكنني مدين لك بالشكر.

- بالشكر؟

- نعم، أمهلَتني قيادتك البطيئة الكثير من الوقت للتفكير.

بعينَين نصف مغمضتَين بسبب وهج الأنوار الأماميّة، نقرتُ على غطاء المحرّك، ووضعتُ يدي في جيبي بحثًا عن مفتاح منزلي بينما كنت أستدير نحو الباب الأماميّ، إلا أنّ الباب كان مفتوحًا. وقفت أمي في إطاره، ويداها على كلا الجانبين كما لو كانت تُسند المنزل، وبدا وجهها كما لو كنت أراه من خلال عدسة حُزن؛ بدَت أكبر سنًّا منذ أن رأيتها ذلك الصّباح.

- صغيري.. أنا جدُّ.. جدُّ...

لكنني أسرعتُ في إغلاق الفجوة بيننا:

---

(1) بوسيدون إله البحر والعواصف والزلازل، والخيول عند الإغريق، وأحدُ الآلهة الأولمبية التي تسكن جبل أوليمبوس بحسب الديانة، والميثولوجيا اليونانية القديمة.

مكتبة ياسمين

- لا، أنا آسف. يقول الجميع إنني غَيريٌّ، لكن كان يجب أن أفكر فيك، وفي تركي لك وحيدةً. آسف يا أمي. أنا... كان عليَّ...

دفنتُ رأسي في رقبتها. همسَت: «هُس، سأكون بخير، ستكون بخير. كلّ شيء سوف...»

وكنت أعرف أنها تريد أن تقول: «يكون على ما يُرام»، إلا أنها تركَت النهاية مفتوحةً على مصراعيها!

.7

«كيو»، قالت لي أمي، ونحن جالسان على سريرها، وكنتُ في الجانب حيث كان أبي ينام. أحيانًا أنسى أن والديّ أعطياني غرفة النوم الأكبر، حتى قبل أن أكبر. قالا: «أردنا أن يكون لديك غرفة بها أكبر قدرٍ من ضوء الشمس». أحيانًا أنسى أنّ لديّ هذا النوع من الآباء الذين يقلقون بشأن مستويات فيتامين «د» لأطفالهم. هذا النوع من الآباء الذين يسارعون إلى التضحية بطرائق كبيرة وصغيرة.

هززتُ رأسي، وقلتُ لها:

- لا تقوليها. لن نبكي. سنكون سعداء، اتفقنا؟

- حسنًا

قالت أمي. ومسحتُ وجهها، وأنا أفكّر ماذا لو كانت هذه آخر مرّة أرى فيها هذا الوجه؟ ماذا لو كانت هذه هي المرّة الأخيرة التي ننظر فيها في أعين بعضنا بعضًا؟

- لكن كلّ ما في الأمر هو أنني أريدك أن تعرف...

- أمي.. رجاءً.

- أنا آسفة للغاية يا حبيبي.

قلت:

- أعرف يا أمي، لكنني لا أريدك أن تكوني آسفة. ليس على هذا، ليس عليَّ. فعلتُ ما اعتقدتُ أنه صحيح. ما كنتِ لترغبي في أن يفعله شخص ما من أجلي. وهل كلَّف هذا شيئًا؟ نعم، كلَّف الكثير. ولكن... إذا رأيتُ تلك الفتاة الصغيرة تتخبّط في تلك المياه الآن، مُدركًا أنه إذا غطستُ،

مكتبة ياسمين

فسيحدث كلّ شيء بنفس الطريقة بالضبط، عليَّ أن أغوص في تلك المياه. عليَّ وحسب.

- كان بإمكانك أن تنادي طالبًا المساعدة. كان بإمكانك أن تطلب المساعدة!

درستُ وجه أمي. ماذا لو كانت هذه المرّة الأخيرة التي نقترب فيها إلى هذا الحدّ؟ ماذا لو كانت ستنحني بجانب صندوقي الأبديّ حين ستُقبّلني مجدّدًا؟ هذا ما ندعوه النّعوش.. الصناديق الأبدية. مفردة «النعش» تبدو كئيبة جدًّا. تبدو كلمة النعش، وكأن مكانها هو النّعش.

- ما كانوا ليصلوا إلى هناك في الوقت المناسب. كانت سوف... كانت لتكون... وكيف يمكنني التعايش مع ذلك؟

قالت أمي بصوتٍ متقطّع:

- كان يجب أن أربّيك على أن تكون أنانيًّا. من سيخبرني أن أحدث تجربة لي في رغيف اللحم هي أفضل ابتكاراتي حتى الآن، هاه؟

قلتُ مبتسمًا:

- كلانا يعرف أن رغيف اللحم الذي تصنعينه سيّئ للغاية. لعلّه من الأفضل أن تموت تجارب رغيف اللحم معي.

صفعتني على صدري:

- من الذي سيأخذ جهاز التّحكم عن بُعد من يدي عندما أنام، وأنا أشاهد التلفزيون على الأريكة؟

- يمكنك ضبط مؤقت التلفزيون.

- من سيغسل الأطباق الاثنين والأربعاء والجمعة؟

- هذا هو الغرض من غسالة الصحون.

- لكنها تستغرق وقتًا طويلًا.

ضحكتُ:

- لأنك تصرّين على غسل الصحون قبل وضعها في الغسالة.

رمقَتني بنظرة، ورمَتني بواحدة من ثمانين ألف وسادة للزينة. بجديّة، في حالة حدوث نقص كبير في الوسائد، يمكن لسرير أمي حلّ الأزمة وحده في ثوانٍ!

مكتبة ياسمين

قالت:

- لا أثق في أنّ غسّالة الأطباق ستنظّفها.

- ما الغاية من استخدامها إذًا؟

- لأنها بمنزلة غسيل ثانٍ؛ غسيل للضمان.

ضحك كلانا.

- أمّي، لديّ اعتراف: أنا لا أغسل الأطباق أوّلًا.

صفعتني على صدري مرّة أخرى:

- كوينسي! كنت تكذب عليَّ؟

- ما كنتُ لأدعو ذلك كذبًا، فأنا أشطفها، نوعًا ما.

- لا أصدّق أنّ ابني الوحيد كان يتركني أتناول الطعام في أطباق متّسخة طوال هذا الوقت!

- أيام الاثنين والأربعاء والجمعة فقط.

- من سيقول لي إنني أفضل أمّ على الإطلاق؟

- كم مرّة تعتقدين أنني أقول لك ذلك الآن؟

- حسنًا، كلّ عيد ميلاد بالتأكيد. عيد ميلادك وعيد ميلادي... بعض العُطَل أيضًا. بالإضافة إلى المرّات التي تقولها فيها دون سبب مباشر: أي فلنقُل عشر مرّات في السّنة وسطيًّا. حسبتُها.

- حسنًا، عشرة أعوام آخذين بعين الاعتبار متوسّط العمر المتوقّع، ما زلت مدينًا لك بستّين «أفضل أمٍّ» على الأقل.

- لذا، هل ترى؟ لا يمكنك الذهاب. وهذا مجرد شيء سخيف. فكِّر فيَّ... فكّر في كلّ الأشياء الأخرى التي من المفترض أن تفعلها. لا يزال لديك الكثير لتفعله. كلّ أحلامك يا حبيبي. لماذا غصتَ في ذلك الماء؟ -شدّتني إلى عناقٍ حارٍّ آخر- كان عليك أن تستدير، وتكمل طريقك وحسب.

- لا تعنين قولَكِ.

- لكنني أفعل! أنا أعني ذلك!

مكتبة ياسمين

- لا، لا تفعلين (قلتُ لها، وقبّلتُ رأسها)، لا بأس بأن تغضبي مني. لا بأس بأن تغضبي من هذا.

- لستُ غاضبةً، أنا حانقة، وحزينة، وحائرة، ومستاءة وضعيفة و...

- سيكون كلّ شيء على ما يرام يا أمي.

- لن يكون شيءٌ على ما يرام، هذه كذبة.

- أتعلمين ما ليس كذبة؟ (لم تجِب، وهزّت رأسها مُشيرةً بالنفي على صدري) أنك أفضل أمّ على الإطلاق. والآن أنا مدين لك بتسعة وخمسين.

- كوينسي.

- أنت أفضل أمّ على الإطلاق. أنت أفضل أمّ على الإطلاق. سبعة وخمسون.

- كوينسي.

- أنت أفضل أمّ شهِدَها هذا العالم على الإطلاق. أنتِ مِثال الأمهات. أنتِ مُنتهى الأمومة. أمومة مُصنّعة لتشغَل واجهَات المحلّات. أنت ما قصده الله عندما خلق الأمَّ الأولى. ما كنتُ لأحلم بأُمٍّ أفضل منكِ. لا بدّ أنّ هذا يُحتسب عشرة، صحيح؟

- لمَ أنتَ هكذا؟

- هذا هو أسهل سؤال طرحتِه طوال اليوم. أنتِ..

8.

وبعد ذلك، عندما توقّفنا أخيرًا عن الضحك والبكاء، جلست أمي على طاولة المطبخ بينما بحثتُ عن وجبات خفيفة في الخزائن والمؤَن. من كان ليخمّن أن خبر وفاتي سيفتح شهيّتي؟!

رميتُ كلّ غنائمي: رقائق البطاطس، والبسكويت، وستَّ عبوات من الصودا، أمام أمّي التي هزَّت رأسها:

- كوينسي، أرجوك أخبرني أنّك لن تأكل كلّ هذه القاذورات؟

- لا.. لن أفعل.

قالت:

- جيّد.

مكتبة ياسمين

- لأنك ستساعدينني.

- كوينسي، هذه الأشياء ضارّة للغاية. هل تريد أن... تمالكَت نفسها، وتوقّفت.

هززتُ كتفي:

- هل أريد أن أموت من اندفاعٍ في الدماغ ناجمٍ عن السّكر والصّوديوم؟ أعني، ماذا قد أخسر، صحيح؟

هزّت رأسها:

- لا تقُل هذه الأشياء!

- الحقيقة؟

عقدَت ذراعيها، وأشاحت بنظرها بعيدًا، لكن ليس قبل أن أرى الحزن في عينيها.

- أنا آسف يا أمي.

- لا، أنا آسفة (قالت وعيناها ما زالتا مصوّبتين على الجانب الآخر من المطبخ) من المفترض أن أحميك!

مشيتُ نحوها:

- لقد فعلتِ، وما زلتِ تفعلين.

نظرَت إليَّ، وابتسمتُ:

- ولكن الآن عليكِ أن تُسدي لي معروفًا.

اعترى الشكُّ وجهها:

- ما هو؟

مددتُ يدي نحو الطاولة، وأخذتُ مشروبًا غازيًّا من العلبة.

- العبي معي جولةَ سباق كَرْع الصودا من أجل الأيّام الخوالي؟

ضحكَت:

- يا إلهي! لم نفعل هذا منذ كان والدك على قيد الحياة.

- لقد كان المَلك، بلا شك -قلتُ هازًّا رأسي- لكن لطالما كنتِ الأفضل.

مكتبة ياسمين

التقطَت مفاتيحها عن الطاولة، ثم أخذَت علبة الصودا من يدي. أدارَت العلبة أفقيًّا، وثقبَت بالمفاتيح ثقبًا في جانبها. سلَّمَتني المفاتيح، وفعلتُ الشيء نفسه لعلبة أخرى. وفتحناها، وتجرّعنا جرعةً تلو الأخرى، وسالَت الرغوة من أفواهنا، وبالكاد استطعتُ أن أشرب بسبب الضحك. ونعم، هزمتني أمي هزيمةً نكراء.

قالت، وهي تضرب الهواء أمامها مثل ملاكمة:

- يبدو أنني ما زلت بارِعة.

- نعم، صحيح. (وأمسكتُ ذراعها، ورفعتُها في الهواء مباشرة) الفائزة الليلة التي تُجدِّد لقبَها باعتبارها بطلة العالم في سباق كَرع الصودا للوزن الثقيل... سيمون «ماد دوغ» باراااانتيس.

ضحكَت أمي بشدّة، وارتميتُ على المقعد المجاور لها، كان البلاط مبللًا ولزجًا.

- أمي؟

سألتني ووجهها لا يزال مبتهجًا:

- ماذا الآن؟

- كم من الوقت تبقّى لديّ؟

مكتبة ياسمين

جمال

مكتبة ياسمين

24

عندما عدنا أنا وويت إلى المنزل، كانت أوتوم على درجات السّلم.

- هل أنتما بخير؟ سألَت ويت، وهي تنظر إلينا. لكنها لم تنتظر الإجابة، ودخلت المنزل على الفور، قالت: لا تمانعاني، فعليَّ أن أتبوَّل للمرّة الثمانمئة اليوم!

- أنا آسف (قلتُ حالما صرنا بمفردنا).

ردّت أوتوم:

- يبدو أنك تقول هذا كثيرًا مؤخّرًا.

مما كان من حقّها.

- لكن أتعلم ما هو أفضل من الاعتذار بعد إفساد الأمور يا جمال؟

- ألّا... أُفسد... الأمور؟

- حسنًا، إن كنتَ مُدرِكًا لذلك، فكيف ينتهي بنا المطاف هنا كُلّ مرّة؟

- لأنني... مُفسِدٌ للأمور؟

- جمال، هذا ليس مضحكًا.

- لم أكن أحاول أن أكون مضحكًا.. أَعِدُكِ.

- كفاك! -دعَتني للصمت- لا أريد المزيد من الوعود التي لا يمكنك الوفاء بها.

- أوتوم، لو فهمتِ كُلّ ما كان يحدث، كنتِ لتعرفي أنني كنتُ أبذل قصارى جهدي لفعل ما يصبُّ في مصلحة الجميع.. أنني أحاول وأحاول، لكن هذا حِملٌ ثقيل عليَّ.. ثقيلٌ جدًّا.

- حسنًا، أخبرني ما الذي يحدث يا جمال؟ خضنا في هذا من قبل. دعني أساعدك.

- أوتوم، أريد أن أخبرك، أقسم، لكن...

رفعَت يدها:

مكتبة ياسمين

- أتعلم؟ أيًّا كان العذر الغبيُّ الذي تُوشِك على إعطائه لي، فوفِّرهُ على نفسك وحسب. جئت إلى هنا، لأنني أردت إصلاح ما بيننا، لأنني اعتقدت أنك تريد ذلك أيضًا، لكن من الواضح أنني كنت مخطئة!

تجاوزَت الشرفة، وسحبَت مفاتيحها من جيبها.

- قد ألقاك لاحقًا!

- أوتوم...

- كفى، أرجوكَ.

- أوتوم، مهلًا! هذا ليس شبيهًا بما جرى من قبل. هذا شيءٌ مختلف تمامًا. هذا شيء لن تصدّقيه حتى لو أخبرتك. اللعنة، أنا بالكاد أصدّقُه!

فاستدارت، والدموع تنهمر على خديها:

- جرّبني.

مسحتُ وجهها، وكفكفتُ دموعها. قلتُ:

- طيّب، طيّب.

* * *

استحالَت أوتوم إلى كتلة من الاندهاش.

قالت:

- حسنًا، اللعنة.. اللعنة.. أقصد... اللعنة!

- خَبَلٌ، صحيح؟

- هذا ما كنت تُخفيه عنّي إذًا؟

أومأتُ بالإيجاب:

- أنا آسف. لم أشأ أن أفعل ذلك.

- ولا أحد يعرف بشأنه باستثناء خمسة أشخاص...

- نعم، الأمر عجيب!

- سمعتُ أقاويل حول أنهم كانوا يقتربون، لكن القُرب في المجالات العلميّة يعني أنّه من المُحتمل أن ننجح في الأمر في غضون ثلاثين أو أربعين عامًا، لكن هذا... هذا...

- مُنتهى الخَبَل!

مكتبة ياسمين

- أعرف أنك لا تكذب، ولكن أيضًا، أنا واثقة تمامًا من أنك تكذب.

- أتمنى لو كنتُ أكذب. ليتَ كلّ هذا لا يكون صحيحًا، فالإنعاش أمرٌ رائع، نظريًا، ولكن بالمقابل، إنه محيِّر للغاية. أعني، أنا حزينٌ جدًّا وغاضب لأنه... وأريد أن أشعر بالأسى عليه، أريد أن أُعلن الحداد على صديقي، ولكن بالمقابل، هذه الفرصة ليقول وداعًا، ليفعل ما يشاء، هي هِبةٌ رائعة، وأريده أن يستمتع بكلّ ثانية منها وحسب. أريد أن أحتفل بحياته معه.

- يا للقدَر! أنا بالكاد أعرفه، لكنني أعلم أنني سأشتاق إليه.

حدّقتُ إلى العشب:

- لستِ وحيدةً في ذلك.

- وإذًا، في غضون يومين، كيو سوف... سوف... ينطفئ ببساطة؟

ألقيتُ نظرةً على ساعتي، كما لو كنت ضابطًا الوقت الرسميّ لما تبقّى من حياة كيو.

- أقل من يومين، أو ربّما يوم واحد فقط. لديه نافذة مُدّتها أربع ساعات.

- أربع ساعات كاملة؟ لقد أعادوا شخصًا ما إلى الحياة، كنت تعتقد أنهم سيكونون قادرين على تضييق النافذة قليلًا.

هززتُ كتفي:

- ليس الإنعاش علمًا دقيقًا على ما يبدو! أمسكتُ يدها: ما أخباركِ أنتِ؟

- لا أملك أخبارًا بروعةِ إحياء الموتى!

- مُقصّرةٌ في مهامك.

ضحكنا، ومسح كِلانا وجهه بسبب الحساسيّة.

23

- هل أنت متأكّد من أن هذا مسموح؟ لن تضربني جدَّتُك بمكنسة أو شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟

هزّت أوتوم رأسها قائلةً:

- إنها تشاهد القاضي كينان. لن تلاحظ حتى أنك هنا. ثِق بي.

مكتبة ياسمين

تركنا سيّارة أوتوم في الممرّ، ودخلنا عبر الباب الأماميّ في الوقت المناسب تمامًا لسماع القاضي كينان يلقي قفشتَه المميّزة: «لا من الأفضل أن تخرج من قاعة المحكمة الخاصّة بي، وتأخُذ هذا الهراء معك».

مشينا عبر غرفة المعيشة التي كانت جدرانها مغطّاة بصور عائليّة، وأثاثها مضغوطًا بالبلاستيك الواقي، واتّجهنا نحو غرفة العائلة. كانت «نانا» جالسةً على كرسيٍّ منحنٍ أزرق لامع، وكانت مشّايتُها ذات العجلات إلى يمينها، وظهرُها نحونا، وهي تحدِّق إلى التلفزيون. لم يرفَّ لها جفنٌ، ونحن نتسلّل من خلفها، ونبدأ في صعود الدرج.

- أوتوم، عزيزتي.

توقّفنا متجمّدَين.

- نعم، نانا؟

- لم أعهَدكِ تُحضرين أحدًا إلى منزلي دون إلقاء التحيّة!

اعتلَت وجهَ أوتوم نظرةٌ متفاجئة، ثم قالت بلا مبالاة:

- إنه جمال وحسب يا نانا.

- أنا أعرف من هذا يا فتاة. أنا عجوز ولست غبيّة. ثم إنني عهِدتُك خلوقًا يا جمال. تعاليا الآن ودعاني أراكما.

عدنا إلى غرفة المعيشة، واستدرنا لنصبح في مواجهة نانا. وأنا أحاول أن أبدو طبيعيًا. رأيتُ الشبه بينها وبين أوتوم بمظهرها؛ نانا عجوزٌ، لكنها ما زالت جميلةً وملَكيّة. كان واضحًا من خلال الطريقة التي ترفع بها برأسها أنها اعتادت أن تفتن كُلّ الحاضرين في الغرفة.

قلت:

- مرحبًا نانا، أنا آسف لكوني وقحًا. لقد كان خطأ أوتوم.

مدَّت نانا يدها، وتساءلتُ للحظة ما إذا كان من المفترض أن أقبّلها، لكنني صافحتُها بدلًا من ذلك.

- ربّما إذا جئت إلى هنا مرّاتٍ أكثر، فلن تشعر حفيدتي بالحاجة إلى التسلل إلى منزلك في جميع ساعات الليل.

اللعنة. نانا تسدّد هدف البداية. أردتُ أن أضحك، ولكنني كنتُ خائفًا نوعًا ما.

- هاه؟ أوه. إمم... أنا آسف... أنا...

مكتبة ياسمين

- ما نواياك مع حفيدتي أيُّها الشاب؟

ابتسمتُ ونظرتُ إلى أوتوم، ثم عدتُ إلى نانا:

- ليس لديّ سوى أفضل النوايا، أعدك.

- نعم، حسنًا، ربّما ستأتي إلى هنا الآن. سنكون سعداء بوجودك معنا. خلال ساعات العمل العاديّة، بالطبع. الشيء الوحيد الذي يفتح بعد منتصف الليل هو السيقان والمستشفيات، ولن يكون أيٌّ منكما في أيٍّ من المكانين.

- أم، نعم؟ أعني لا. لن نذهب... هناك، حاضر سيّدتي. أقصد، لا يا سيّدتي.

- حسنًا، أيُّها يا ولد؟

قاطعَت أوتوم:

- نانا، من فضلك.

لكن نانا لم تنزعج على الإطلاق.

- من فضلي ماذا؟! هل قلتُ شيئًا غير صائب؟ آخر مرّة تحققتُ، كان هذا لا يزال منزلي!

- نعم، نانا.

- حسنًا، الآن القاضي كينان على وشك أن يعاود البثّ. اذهبا واستخدما «التشابسنات»، أو العبا البينغو الإلكترونيّة على الويب المظلم، أو أيًا كان ما يفعله الأولاد هذه الأيام.

- شكرًا، نانا (قالت أوتوم، وهي تشدُّني نحو السّلم).

- سررت برؤيتك مرّةً أخرى.

ناديتُها بعد أن تجاوزناها، لكن نانا كانت تومئ برأسها أمام القاضي المحترم.

ارتمَت أوتوم على سريرها:

- لا أقصد أن أطرح الأمر بفظاظة، ولكن، آه... كلّ هذه الموضوعات الثقيلة التي أخبرتني بها للتوّ جعلتني أشعر بالفناء الآن، لذا... لعلّه عليك أن تأتي لتُقبِّلني.

- لعلّه عليَّ بالفعل.

مكتبة ياسمين

ارتميتُ على السّرير بجانبها، وقذفَتُ بعض الوسائد الزخرفيّة على الأرض. نظرتُ إليها للحظة، ثم قبّلتُها.. قبّلتُها مرارًا وتكرارًا. شدَّت أصابعَها على قميصي، دافعةً إياه لأعلى، فأعلى.

- ماذا لو صعدت نانا إلى هنا؟ السيقان والمستشفيات، تذكرين؟ أي أنّها إن رأَتْ ساقيك، فسأرى المستشفى؟

ضحكت أوتوم:

- لقد رأيت مشّايتها، أليس كذلك؟ أعتقد أننا سنسمعها.

ضحكتُ، وغمزتُها غمزةً طويلةً:

- أو أنّها من سيَسمعك، لو كنتِ تعرفين قصدي؟ هل تعرفين قصدي؟

- ياه! لا تفعل ذلك مجدّدًا رجاءً.

- لا؟ ذكّرتُك بالأمير ساحر النساء.

- حسنًا، يمكن أن يبقى منسيًّا، شكرًا جزيلًا لك.

ضحكتْ:

- أضِف إلى ذلك أنه إن كانت نانا ستسمع أصوات أيٍّ كان، فستكون أنت يا مسكين. سوف يصل صوتُك إلى نوتات عالية، لو كنت تعرف قصدي؟ هل تعرف قصدي؟

ضحكتُ، والتقطتُ وسادة، وألقيتُها تجاه رأسها. أمسكت بها، وألقتها نحوي، وأصابتني في صدري.

- لن أكذب، هذا مضحك أكثر عندما تقولينه أنتِ (قلتُ لها، وأنا أمشي خلفًا).

كانت مستلقية على ظهرها، وترامى شعرُها اللولبيّ في تراقصه المستمرّ، مثل الألعاب النارية التي تنفجر في كلّ اتجاه. تساءلتُ في سرّي كيف يمكن لأيٍّ شخص أن يكون جميلًا لهذه الدرجة، ثم سألتُها:

- كيف لكِ أن تكوني جميلةً لهذه الدرجة؟

- كفاك!

قالت وهي تُشيح بنظرها. ومثل الترامبولين، تقعّرَت الغمّازة في خدّها الأيمن، ثم ارتدَّت عائدةً إلى انبساطها.

مكتبة ياسمين

- أنا جادّ. لا أعرف إن كنتِ تستوعبين مدى إعجابي بكِ. لا أعرف إن كنتُ أنا أستوعبُ ذلك دائمًا.

سألَت، وهي تلتفتُ بوجهها إليّ، والدموع تنهمر على كِلا خدّيها:

- لكن لماذا؟ ها! لماذا أنا؟

- يختلف الجواب. ما كميّة السذاجة التي تسمحين لي بالوصول إليها؟

- كلّ السذاجة الممكنة.

- طيّب، جنيتِ على نفسِك. مسحتُ خدّيها، وأمسكتُ يدها: أوتوم، أنت السطرُ المفضّل لديّ من أغنيتي المفضّلة. أوتوم، أنتِ اللحن الذي لا يفارقني مهما يحدث. أنتِ اللازمة التي لا يملُّ عقلي من تكرارها. أنظر إليكِ، وكيفَما كان مزاجي، كلّ ما أشعر به هو السّعادة. أنتِ مقطعٌ من أغنيةٍ عالقة في رأسي وقلبي. أوتوم، أنت الأغنية الوحيدة التي أُضيفها إلى كلّ قائمة تشغيل.

قالت، وهي تمسح عينيها:

- توقّف. هذا فظيعٌ للغاية! بالغُ السذاجة.

- سألتُكِ سابقًا، واخترتِ أقصى حدٍّ من السذاجة.

أومأت برأسها:

- فعلتُ. أنا المُلامة.

- هيه...

حدّقَت إلى وجهي:

- هيه ماذا؟

- أنا... أُحبُّكِ يا أوتوم.

قالت مبتسمةً:

- هل أنت متأكّد؟ لقد ترددتَ نوعًا ما.

- تردَّدتُ قليلًا، أليس كذلك؟ (ضممتُ وجهها بين يدي) عليّ أن أحاول مجدَّدًا إذًا.

تلاقَت أعيننا: «أحبّك يا أوتوم»، قبّلتُ جبهتها، «أحبّك يا أوتوم»، قبّلتُ كِلتا عينيها. «أحبّك.. أحبّك»، ثم خدّيها، «أحبّكِ»، وأنا ألمس بشفتيّ شفتَيها، نزولًا

مكتبة ياسمين

إلى ذقنها وجانبِ رقبتها. «أحبّكِ كثيرًا»، نزولًا إلى القلوب السّوداء الموشومة على يمين بطنها، أسفلَ وأسفلَ وأسفل.

«أحبكَ أيضًا يا جمال»

ثُمّ أسفل...

22

أسندتُ درّاجتي على جانب المرأب، ومشيتُ إلى كومةٍ بجانب الأريكة، كانت ألبومات الصور لا تزال حيث تركناها. أخرجتُ هاتفي، والتقطتُ صورًا لبعض الصور. كان هذا آخر عيد ميلاد ونحن أصدقاء مُقرّبون، عيد ميلادنا الرابع عشر. كانت ذراعانا حول أكتاف بعضنا بعضًا، مُبتسمَين ابتسامةً تظهر فيها الأسنان. فبما أننا وُلِدنا بفارق خمسة أيام فقط، كنا دائمًا نجمع حفلتَينا.

صورةٌ لنا على دراجتَينا في سن العاشرة، في حديقة سيدار لأوّل مرة، أمام أفعوانيّة الجوزاء، في الثامنة، في المقعد الخلفيّ لسيّارة أمّي، في طريقنا إلى رقصتنا المدرسيّة الأولى، في سنّ الثانية عشرة.

سحبتُ الصور التي التقطناها أثناء «كاربت دينيم» أيضًا. في آخر واحدة، انحصرنا أنا وويت والسيّدة «بي» وأوتوم وكيو في كادر صورة سيلفي، ومن خلفنا صفّ من الأشجار على بعد ثلاثين مترًا. ضغطتُ على خيار الإرسال.

كيو: أوه، واو! أنت تعلم أنني بالفعل عاطفيٌّ. هل تحاول التسبّب بانهياري؟

جمال: أردت أن أشكرك على مساندتي دائمًا فقط، حتى عندما لم أستحق ذلك.

كيو: الصداقة ليست عربةً تنزلها وتصعدها.

جمال: هذا عميق، وصحيح جدًّا.

جمال: من صاحِب هذا القَول؟

كيو: أنت تراسله الآن.

جمال: سأسرقُه.

كيو: افعَل، فلن أكون موجودًا لأرفض ذلك.

جمال: اللعنة! أنا لا أعرف حتى ماذا أقول.

كيو: كنتُ أمازحُك يا رجل.. أعتذر.

مكتبة ياسمين

جمال: اللعنة، لا تفعلها مجدّدًا. تصبّبتُ عرقًا. بحثتُ عن ردٍّ باستخدام جوجل.

كيو: أريد أن أعرف ما كتبتَه في البحث.

جمال: كيف تردّ على نكات صديقك غير المريحة حول موته الوشيك؟!

كيو: ها ها.. هل حصلتَ على الكثير من النتائج؟

جمال: نعم، لكن عدد النتائج ذات الصّلة بهذا الوضع كان صفرًا، لذا شكرًا على لا شيء يا جوجز.

كيو: جوجز؟!

جمال: نعم، هذا هو اللقبُ الذي اخترتُه لجوجل.

كيو: ماذا يناديك جوجل؟

جمال: جمال الفحل.

كيو: يا للشناعة!

جمال: هاها.

كيو: هيه، أنا آسف لاختفائي بهذه الطريقة. كان عليَّ فقط أن أجد عُزلتي.. بسرعة.

جمال: لا تعتذر يا صديقي، أتفهم ذلك، لكنني ظننت أن والدتك ستبرحني ضربًا بصراحة!! كنت خائفًا جدًّا على حياتي بجديّة، ولكن بالمقابل، لها الحقّ في أن تكرهني! لو كنت مكانها لكرهتُني على ما فعلتُ.

كيو: لا، إنها تريد أن تعتذر لك أيضًا.

جمال: تعتذر؟ حقًّا؟

كيو: أجل.. كان لديها سبب وجيه لتغضب، فهي أمّي، وكانت تفعل ما كانت تأمل أنه الأفضل بالنسبة لي، لكنها تعلم أيضًا أنك لم تحاول إيذائي. كنت تعتقد أنك كنت تفعل شيئًا جيّدًا.

جمال: أنا آسف، لأنني كذبت عليك في المقام الأول. أوتوم كانت تسأل عنك.

كيو: ماذا قلتَ لها؟

جمال: الحقيقة أخيرًا.

كيو: جيّد، يجب أن تعرف. أخبرت بري أيضًا.

جمال: بجديّة؟

مكتبة ياسمين

كيو: بجديّة! لم تصدقني في البداية. صراحةً ما زلت غير متأكّد من أنها تصدّقني حقًّا!

جمال: لا ألومها؛ الأمر ليس سهل الاستيعاب.

كيو: قالت إن كنتُ أظنُّ أن إخبارها بأنني سأموت قريبًا يعني أنها ستتراخى معي، فسأشعر بخيبة أمل عارمة.

جمال: اللعنة، أنا معجب بها!

كيو: أنا أيضًا. ماذا تفعل؟

جمال: بصراحة، كنت أحاول معرفة ما سأقوله لك.

كيو: بخصوص ماذا؟

جمال: ظننت أنك غاضب مني.

كيو: هذا ما لم أفهمه. لماذا قد أكون غاضبًا، لأنني سأعيش المزيد من الأيام؟! هاها أنا غاضب، لأن أحدًا لم يسألني أوّلًا.

جمال: حسنًا، حسنًا، هذا مضحكٌ عندما تصوغه بهذه الطريقة.

كيو: هل من طريقة أخرى؟ أعني، بجديّة، أنا غاضب حقًّا، ولم يسألني أحد سابقًا.

جمال: لم تكن هنا عمليًّا... حسنًا، أُفضِّل التوقّف عن المزاح بشأن هذا. أنا سعيد، لأنك تتصالح مع الأمر، ولأنك استوعبته في الغالب، ولكنني أكرهه، أكره كلّ شيء بخصوص كلّ هذا.

كيو: تكره ذلك؟ ما بالُك كيف أشعر أنا!

جمال: لم أقصد الأمر على هذا النحو.

كيو: أعرف.

جمال: طلبَت منّي ويت أن أخبرك أنك مدعوٌّ لتناول العشاء لدينا الليلة، برفقة والدتك بالطبع.

كيو: أخبر ويت أنني أشكرُها، لكن أعتقد أنّ أمي وأنا بحاجة إلى بعض الوقت لأنفسنا.

جمال: نعم، حسنًا. اسمع، لا أعرف تمامًا كيف أقول هذا، لكنّي أريد أن أكفّر عما فعلتُ، أو على الأقل أن أعوِّض عمّا فعلتُه لك ولوالدتك.

كيو: وإذًا؟ ماذا تقترح؟

مكتبة ياسمين

جمال: ليس لديّ أدنى فكرة. هاها. حتى الآن! حتى الآن! أنا أعمل على اقتراح، لكن عندما أتوصّل إلى واحدٍ، فستحبُّه.

كيو: نعم، حسنًا، لا تستغرِق وقتًا طويلًا.

جمال: اللعنة! الآن ما عدتُ أستطيع أن أُميّز مزاحك من تعمُّقِك!

كيو: أُمازحك بالطبع.. هاها.

جمال: وجه حزين

كيو: عليَّ أن أسترجع حقّي منك.. هاها.

جمال: لم يكن ذلك لطيفًا يا رجل!

كيو: أوه! تقصد مثل أن تكذب على صديقك.. هاها.

جمال: ملعوبة يا معلّم. هاها..

كيو: شكرًا! لكن هلّا أسديتَ لي معروفًا يا جاي؟

جمال: ماذا؟

كيو: أخبرني حالَما أموتُ المرّة القادمة، اتفقنا؟

جمال: اتفقنا

كيو: جاي؟

جمال: نعم؟

كيو: هل تعرفُ أسوأ ما في الموت؟

جمال: ماذا؟

كيو: كنت قد بدأتُ أحيا.

21

فكّرتُ في الاتصال، أو حتى في بعث رسالةٍ، لكن في النهاية، كنتُ أعرف أنه لا مفرَّ من إصلاح الأشياء بالطريقة نفسها التي أفسدتُها بها وجهًا لوجه. رجلٌ في مواجهة أُمٍّ.

أشار كيو إليَّ بأن أدخل إلى المنزل، وتعانقنا بقوّة أكبر مما قد فعلْنا في أيِّ وقتٍ مضى. ظللنا على هذا النحو لفترة أطول من الخمسين حِضنًا الماضية في حياتي. لم نقُل شيئًا. كانت في المطبخ، وظهرُها لي. تنحنحتُ، وقلتُ اسمها بهدوء:

مكتبة ياسمين

- مرحبًا، سيّدة بارانتيس.

تأنّت للحظة، لكنّها لم تتوقّف عن غسل الأطباق، فلم تستدِر.

- أنا آسف، لأنني خالفتُ رغبتكِ. أعرف أنّ هذا كان خاطئًا حتى لو اعتقدتُ أنه الصّواب. أعرف أنك كنتِ تحاولين حماية كيو، وأنك تحبّينه أكثر من أيّ شخصٍ آخر، وأنك مستعدّة لِفعل أيّ شيء للحفاظ على سلامته. أنا أحترمكِ على الرغم من أنكِ قد لا تشعرين أنني أفعل، ولا أعتقد أنني قد شكرتكِ يومًا على الأشياء التي فعلتِها لي، ولِويت عندما أمي وأبي...

-أغلقَت السيّدة «بي» صنبور الماء- على الأطباق، والبطاقات، وعلى غسيلك ملابسنا، والتحدّث إلى أساتذتي، ومساعدة ويت في معرفة الأمور الضريبيّة و... على كلّ ذلك.

اكتفَت بالوقوف في مكانها، ومنشفة الصحون المبلّلة في يدها.

ففعلتُ ما كنتُ لأفعلَه مع أمي؛ أغلقتُ الفجوة، أرحتُ رأسي على كتفها، وربَّتَت على طرف فروة رأسي:

- لا تزال مزعجًا!

- أنا أحبّك أيضًا.

20

- لذا، على الرغم من أنني أفسدتُ هذا الأمر برُمَّته...

قاطعَتني ويت:

- كان يمكن أن يكون أسوأ بكثير!

- صحيح، وأشكركِ على دعمكِ الحماسيِّ، لكنني كنت سأقول إنّ الأخبار السّارّة هي أنّ كيو ما زال يتحدّث معي. وأمه لا تريد قتلي أنا وأولادي الذين لم يولَدوا بعد.

- رائع. هذا مريح.

- نعم، ستعفو عن أطفالي. ظننتُ أن هذا كان تصرفًا لطيفًا حقًّا.

- لكن إذا كنتَ ميّتًا... تضاعفَ صوت ويت.

- يا إلهي يا ويت! توقّفي عن النّفخ على كلّ بصيص أمل. اللعنة!

مكتبة ياسمين

هزّت ويت رأسها:

- نيّتُك كانت طيّبة. هذا يُحتسَب.

هززتُ كتفي:

- لسوءِ الحظ، لا يبدو أن نواياي الحسنة توقِفُ الجلجلَة المستمرّة إثرَ حماقَتي الأولى. هل تظنّين أنّ السيدة بارانتيس تُبالي بأن نيّتي كانت طيّبة؟ هل تظنّين أن كيو يواسي نفسه قائلًا: لعلّ جمال قد دمَّر أيَّ سلامٍ كنت قد حصلتُ عليه في الأيّام القليلة الماضية على الأرض، ولكن يا له من قلبٍ عارمٍ..؟!

- جمال.

- إذا كانت الدقائق الثمانون الأولى من الفيلم مذهلةً، ولكن الاثنتي عشرة دقيقة الأخيرة كانت عبارة عن درّينة من السّخافة، فهل يُعدُّ هذا الفيلم تحفةً فنيةً؟ هل تعذرين النهاية، لأنّ البداية كانت تُبشّر بالكثير، وكان القسم المتوسّط كتلةً من الإمكانات؟

فتحَت ويت فمها، لكنها لم تقُل شيئًا.

قلتُ:

- بالضبط، ولهذا السّبب يجب أن أصحِّح هذا. لن أسمحَ بوجود نهاياتٍ سيّئة.

- جمال، أحيِّي اندفاعَك، لكني لستُ متأكّدةً من أنُ هذا شيءٌ يمكنك إصلاحه، أو أنّه عليك أن تحاول. لعلّ الدرس المستفاد من كلّ هذا هو أنّ ما يبدو لنا مُخرَّبًا أحيانًا، قد لا يكون كذلك. ومحاولتُنا للإصلاح هي ما يُخرِّبه.

- جَلُّ ما أريده هو التكفير عن أخطائي. هل هذا سيّئ للغاية؟

- ليس سيّئًا، بل على العكس، إلّا أنَّ أفضل طريقة لتصحيح الأمور هي أن تسأل صاحب العلاقة كيف يمكنك فعلُ ذلك، ثم أن تفعلَه. تُساعدُ الناس إن كان ما تفعله مفيدًا بالفعل، وإلا فإنك تجعل نفسك تشعر بتحسُّن فقط، وهذا هو الغرضُ من المثلّجات!

- واو! هذا عميق نوعًا ما.

هزَّت ويت كتفيها:

مكتبة ياسمين

- حسنًا، هذا منطقيٌّ، فأنا عميقة نوعًا ما.

وكنا نتحدّث حول كيو بالتأكيد. حول السيّدة «بي». ولكن في الحقيقة، كنّا نتحدّث عن كلّ الأشخاص الذين يحبّونني.. الذين تحمّلوني، من فعلوا كلّ ما في وسعهم لمساعدتي، حتى عندما رفضتُ مساعدة نفسي، بينما آذيتهم في هذه العمليّة. لا أحد يعرف هذا أكثر من الشخص الذي كان يقف أمامي.

سألَت ويت:

- ماذا على وجهي؟

- هاه؟ ما الذي تتحدّثين عنه؟

هزّت إصبعها:

- أنت تنظر إليَّ بشكل مضحك! ما الأمر؟

- لا يوجد شيءٌ على وجهك. يا للعجب! ألا يستطيع الأخ أن ينظر إلى أخته بمحبّة دون إثارة شكوكها؟

ضحكت.

- أنا متأكّدة من أنّ الأخ يمكنه ذلك، بلى، لكننا نتحدّث عنك، أليس كذلك؟

- ويت، أنا آسف للغاية. ها أنا ذا صرتُ أفكّر في سواي و...

- هاه؟ الآن ما الذي تتحدّث عنه؟

- أقصدُ كيف كنتُ عبئًا ثقيلًا على ظهرك على مدار العامين الماضيَين. لقد جعلتُ من نفسي محورَ كُلّ شيء. لقد كذبتُ، وحنثتُ بالوعود. كلّ الأشياء التي فعلتُها في الأيّام القليلة الماضية؛ الأشياء التي أسعى جاهدًا الآن لإصلاحها، هي أشياء فعلتها لكِ طوال هذا الوقت. أنت الشخص الوحيد الذي يفهمني حقًّا، والذي ساندَني منذ البداية.

- جمال، ليس علينا أن نفعل هذا...

- بلى، علينا. عليّ أنا -وأمسكتُ يديها- سأضطرّ على الأرجح إلى قضاء بقيّة حياتي في ردّ جميلك، لكنني سأفعل مهما يطُل الوقت.

هزّت ويت رأسها:

- ألا ترى؟ ما من شيء لتعوّضه. اخترتُ هذه الحياة معك. أريد هذه الحياة معك.

مكتبة ياسمين

- أريدها معك أيضًا. أنا آسف، لأنني لم أُظهِر ذلك.

- جمال، أعلم أنك تحبّني، أشعر بذلك، وتُخبرني أنت، وتفعل الأشياء التي تُظهِر لي الحُبّ، ولكن... أحيانًا تعاملني كأنني أُعاديك.. كأنّك تعتقد أنني أستمتع بمضايقتك بشأن المدرسة، وكأنّ إدارة حياتك لدقيقة هي غايةُ حياتي. بينما كنتُ أريدُ في الواقع أن تكون سعيدًا وحسب، وأن تحصل على كلّ الأشياء التي كنا سنحصل عليها بوجود أمي وأبي.

عصرتُ يديها، وأنا أقول:

- أريدك أن تحصلي على هذه الأشياء أيضًا.

- عليك أن تبذل جهدًا أكبر، أن تُحافظ على تماسُكك. أريدك أن تتوقّف عن الادّعاء بأنَّك لا تهتم، عندما يعلم كلانا أنك أكثرُ الأشخاص عاطفيَّة في هذه المدينة بأكملها.

ضحكتُ، وانهمرَت بضع دموع على وجهي:

- سأبذل جهدًا أكبر، وأنت على حقّ، فأنا أهتمّ. أنا أهتمّ كثيرًا، وأعرف أنك تحاولين المساعدة وحسب. أعرف ذلك.

- لكن هذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا سمحت لي بالدخول.

قالت، وهي تُفلِتُ يدي، وتنقر على صدري.

مسحتُ وجهي:

- هل أنتِ متأكّدة من أنك تريدين الدخول؟ أحيانًا يكون ذلك المكان مظلمًا جدًّا.

قالت ويت:

- وكريه الرائحة أيضًا. لكن لا، ما زلت أُريد الدخول. أمالَت رأسها إلى كتفي: حسنًا، بينك وبين هذا الطفل بداخلي، أحتاج المثلّجات، وأحتاجها الآن.

قلتُ:

- في طريقها إليكِ.

وجلسَت على المنضدة بينما سطوتُ على الثلّاجة.

- لماذا لا يخبروننا أنّ الحمل يجعلنا أكثر عرضةً لقوّة الإيحاء؟ ذكرُت المثلّجات قبل عشر دقائق، والآن هذا كلّ ما يمكنني التفكير فيه.

مكتبة ياسمين

ضحكتُ:

- هل تقولين إنّك عرضة لاقتراحاتك الخاصّة حقًّا؟ هذا مثل أن تضحكي على دعاباتك مستغربة من حسّك الفكاهي العالي.

تركتُ علبة المثلّجات الكرتونيّة أمامها، وأعطيتها ملعقةً خشبيةً.

- أين وعائي؟

- ما من وعاء!

- لكنك تكره أن آكل من العلبة.

- حسنًا، في الواقع، لقد أثبتنا أنني لا أعرف أيَّ شيء، لذا...

- صحيح. قالت، وهي تغرف ما يُعادل وعاءً كاملًا من المثلّجات: أضِف إلى ذلك، ما المشكلة في أن تضحكنا دعاباتُنا؟ ماذا لو كانت دعاباتُنا مُتفرّدةً في فُكاهتها؟

- حسنًا، أُقدّر أننا حظينا بلحظةٍ حميميّة، ولا أريد أن أفسدها، لكني آمل حقًّا أنّك لا تدّعين أنّكِ مُضحكة.

- ها (مدَّت لسانها) واجِه الأمر يا أخي، أنا الفردُ المضحك في العائلة. أعني، في حياةٍ أخرى، كنتُ لأصبح كوميديَّةً خارقة.

- نعم، حسنًا، ربّما يجب عليكِ أن تصبحي كوميديّة... يا للهول! (توقفت).

- مهلًا! ماذا يجري؟ هل من المفترض أن يكون هذا نوعًا من تصعيد المواقف؟ لأنّني لست متحمّسة بالفعل.

فرقعتُ أصابعي، لأنّ هذا ما يفعلُه المرء عندما تراوده فكرة رائعة:

- يا إلهي! وجدتُها. لماذا لم أفكّر في هذا من قبل؟ أنتِ عبقريَّة بحقّ يا ويت! يا إلهي! شكرًا لك! شكرًا لك! لو لم تكن بطنك ضخمةً جدًّا، كنت لأحاول تقبيلك.

قالت، وهي تمسك بالملعقة:

- أنا مُسلَّحةٌ، كما ترى. حَذارِ!

قبَّلتُها على أيّة حال، ثمّ وجدتُ نفسي أُراقص مشاعري في أرجاء المطبخ مثل مخبولٍ، فقد وجدتُها.. وجدتُها!

مكتبة ياسمين

اليوم الرابع

تبقّى 32 ساعةً تقريبًا في حياة كيو

مكتبة ياسمين

19

أعددتُ حُجَّتي. بذلتُ قصارى جهدي للتنبّؤ بكلّ اعتراضٍ مُحتمل، من كُلِّ واحدٍ منهم.

كنتُ أعرف أنّها ستكون معركة.. أنهم سيقاومون خطّتي.. أنّه سيكون صراعًا.

أملي الوحيد هو أن يفهموا سبب أهميّة الأمر؛ السبب الذي يجعلُها الطريقة الوحيدة التي تصبُّ في مصلحة الجميع. والأهمّ من ذلك، في مصلحة كيو.

ألقيتُ خطابي، وحجزتُ لنفسي مقعدًا على صواريخ الرّفض، لكن على العكس؛ لم يحصل شيءٌ من ذلك. قابَلوني بالحماس.. بقفزاتٍ لأعلى وأسفل. قابَلوني ببعض شهقات البكاء، لكن حتى تلك كانت مُبتهِجةً. ثم شغّلنا الموسيقى، ورقصنا، وضربنا أوراكنا ببعضها بعضًا في غرفة المعيشة في منزل كيو، فهكذا يكون الحب. هكذا يحصل الجميع على ما يريدونه. وكدت أنسى مدى شعوري بالرّضا النّاتج عن إسعاد الآخرين.

تستغرق الرحلة سبع ساعات بالسيّارة إلى مدينة نيويورك.

قالت السيّدة بارانتيس: «إلّا أنّنا لا نملك كلّ هذا الوقت، فكُلُّ ساعة تعادل كيس ذهبِ الآن».

أومأَت ويت برأسها موافِقةً، وأومأتُ برأسي، وأومأ كيو برأسه، وأومأت أوتوم برأسها.

أظنُّ أنه كان بإمكاني قَول إننا أومأنا جميعًا، لكنني نظرت في أعين الجميع، وهُم يعلنون موافقتهم، لذلك شعرت أنه من الصّواب الإقرار بموافقتهم بشكل فرديٍّ.

- هل أنت في أسبوعكِ السادس والثلاثين يا ويت؟
- الرابع والثلاثين، سأصبح في الأسبوع الخامس والثلاثين بعد يومين.
- لن يكون الطيران خطرًا على صحّتكِ إذًا، لكن ما مشاعركِ حيالَه؟
- كان ليخيفَني الأمرُ في ظلّ أيّة ظروفٍ أخرى، لكن لا يمكنني أن أُفوِّت هذه الأحداث على نفسي، كما أنني سأسافر مع ممرضة مُختصّة بالتوليد.

مكتبة ياسمين

قال كيو:

- ربما ستلِدين على متن الطائرة! مهلًا! إذا كنا نطير فوق ولاية بنسلفانيا، فهل سيظلّ الطفل من أوهايو؟

ابتسمَت أوتوم:

- أنت تقصد حالةَ أن يولَد المرء في بلد مختلف.

ضحك كيو:

- أوه! صحيح.

- أنا أشتري التّذاكر الآن. إذا أسرعنا، يمكننا أخذُ الرحلة الليليّة.

سحبَت ويت بطاقتها الائتمانيّة:

- ما تكلفة التذاكر؟

فاعترى وجهَ السيّدة «بي» تسعة وثلاثون لونًا من الإهانة:

- لا يجوز السؤال عن تكلفة الهدايا أبدًا!

جادلَت ويت قائلةً:

- لن أسمح لك بالدفع عن الجميع. لا بُدّ أن التّذاكر تُكلِّفُ ثروةً صغيرةً.

لكن السيّدة «بي» لم تقتنع. توزّعت الدموع بين رموشها، وقالت بنبرةٍ حاسمة:

- إذا لم أنفق أموالي على هذا، فأين سأُنفقها لاحقًا؟ ما فائدة المال إذا لم يكن أحباؤنا بجانبنا لنستمتع به؟

وكانت على صواب، وكان الصوابُ مُحزِنًا.

- نغادر في غضون ثلاث ساعات (أكّدَت السيّدة «بي»)، وهو الوقت الكافي لحزم الأمتعة، والوصول إلى المطار.

ثمّ صرنا مثل فريق كرة سلّة خرج من وقتٍ مستقطع، وتفرّقنا وسارَعنا إلى مواقعنا في الملعب. تسابق كُلٌّ من السيّدة «بي» وكيو في المنزل لتوضيب بعض الأشياء.

- هل تمانع نانا ذهابك إلى نيويورك؟

سألتُ أوتوم، وأنا أبحثُ في النّشافة عن جوارب نظيفة.

أجابت:

مكتبة ياسمين

- لا، لكنها لا تمانع أن أقضي أكبر قدر ممكن من الوقت مع كيو...

أدخلتُ يدي في جوربٍ، وضغطتُ إبهامي على سبّابتي، وقلتُ:

- أنا سعيد لوجودك هنا. شكرًا. فتحتُ، وأغلقتُ أصابعي كأنّ الجورب من يتحدّث.

وضعَت أوتوم جوربًا على يدها:

- إنه محظوظٌ لوجودك بجانبه.

هززتُ كتفي:

- أتمنى لو كان أوفَر حظًّا.

18

اشترينا تذاكر الطائرة، لكن كنّا ما زلنا بحاجة إلى تذاكر عَرْضِ «ليتر تونايت».

- يستحيل أن تكون قد تبقّت أيّة مقاعد للغد (قلتُ، وأنا أضغط على لوحة المفاتيح).

هزّت أوتوم رأسها:

- هل عليك أن تُحبط عزيمتنا؟

لم أكلِّف نفسي عناء الردِّ بأنني واقعيّ. لم أكلِّف نفسي عناء قَولِ ما نعرفه كلانا، وما نعرفه جميعًا؛ أنه من المستحيل على الأرجح أن نحصل على تذاكر لحلقة الغد. ومع التحذير بوجود حرق للأحداث، أنّ كيو لن يحضر عرض «ليتر تونايت» بكلّ تأكيد.

ذكّرتني أوتوم:

- غايتُنا أن نحاول.

فتّشتُ موقع «ليتر تونايت» الإلكترونيّ بحثًا عن المساعدة. لم تُذكر كيفية مقابلة كيندريك، أو حتى كيفية إجراء الاختبار لعرض الكوميديا، لكنني وجدتُ عنوان بريد إلكتروني، للاستفسارات العامّة: .info@latertonightshow.com حسنًا، هذا يشمل شريحة واسعةً جدًّا من الاستفسارات، لكنه كان أفضل من لا شيء. كسرة خبز واحدة على أرضية نظيفة.

مكتبة ياسمين

- هل تعتقدين أن استفسارنا عامٌّ بما فيه الكفاية؟ (سألتُ أوتوم).

- هل أعتقد أنك مبتذل بما فيه الكفاية؟

- هل هذه نعم أم لا؟

مدّت يدها أمامي، ونقرَت على الرابط، ففُتِح بريدٌ إلكتروني فارغ.

كتبتُ رسالةً قبل أن أتمكّن من الشكّ بنفسي. بعد لحظات قليلة ظهرَ ردٌّ في البريد الإلكترونيّ، وأخذت معدتي تصرخ.

شكرًا لتواصلكم. أهلًا وسهلًا، شكرًا لكونكم متوافرين عند الاتصال. سنبذل قصارى جهدنا للردّ... حسنًا، أحببتُ أنّهم سيبذلون قصارى جهدهم، ففي معظم الأوقات، لا نبذل حتى أدنى جهد، لذلك.... في غضون أسبوعين من الاستلام. وسمعتُ صوت الفرصة، وهي تفوتُني. كان لدينا أقل من اثنتين وثلاثين ساعة، مما يعني أنّ ذاك كان الوقت المناسب لتفعيل الخطة الاحتياطيّة. لو كنّا نملك خطّةً احتياطيّة.

- ماذا نفعل الآن إذًا؟ (سألَت أوتوم، أو ربّما سألَ عقلي، يصعب القول!).

- إذا تمكنّا من الوصول إلى الجمهور على الأقل غدًا، يمكنني تدبُّر أمر الباقي.

أومأَت أوتوم، وأخذَت لوحة المفاتيح، وهي تتابع فتح وغلق شاشات البرامج بسرعة هائلة حتى صار بالكاد يمكنني تتبُّع السّهم الوامض الوثّاب.

- متى ستعترفين أنك تعملين في وكالة حكوميّة مشكوكٍ بأمرها؟

ضحكَت:

- لمَ كلّ الوكالات الحكوميّة مشكوكٌ بأمرها؟

عرضتُ بديلًا:

- غامضة؟

ابتسمَت:

- غامضة تنفع بديلًا.

- انظري ماذا وجدتُ في كمبيوتر والدي.. كنتُ قد نسيتُها.

اقتربَت أوتوم لترى:

- ما هي؟

مكتبة ياسمين

نقرتُ بضعة أزرار:

- مقاطع فيديو منزليّة. هناك ما لا يقِلُّ عن مئة مقطع.

- أوه! واو! هذا أشبَه بيوميّات الأسرة أو شيءٍ من هذا القبيل.

- لم أفكّر في الأمر بهذه الطريقة، لكنك على حق -تصفّحتُ القائمة- هل تعتقدين أنه من الغريب أن أُنزِّلها على هاتفي؟

- أعتقد أنَّ الأغرب ألّا تفعل ذلك.

واصلتُ التصفُّح بحثًا عن مكان جيّد للبدء.

- فلنشاهِد أحدها (أمالَت رأسها) إن كنتَ ترغب في ذلك.

ضغطتُ على زرّ التشغيل.

أبي: أنا أُجرّبُ كاميرتي الجديدة فقط. أحاول أن أعتاد استخدامها.

جمال: لديّ شعورٌ أنك ستستخدمها كما استخدمتَ الكاميرا السّابقة.

أبي: هاهاها دعابة لطيفة يا جمال. استدِر الآن، وانظر إليَّ أنت أيضًا يا كوينسي.

أمي: أندريه، هلّا سمحت للأولاد بإنهاء واجباتهم المدرسيّة، من فضلك؟

أبي: أنتِ على حقٍّ، حبيبتي. المدرسة أولويّة دائمًا. سوف أطفئها.

جمال: مرحى!

أبي: بعد أن تُجيبا على سؤالٍ واحد.

جمال: يا للهول يا أبي!

كوينسي: إنه سؤال واحد يا جمال.

أبي: أترى، كيو منطقيّ. شكرًا لك، يا كيو. إذا كنت بحاجةٍ إلى مكان لتعيش فيه...

ويت: عاد أبي إلى مشروعه القديم.

جمال: لماذا أنتِ في غرفتي يا ويت؟ ومن أين أتيت؟

ويت: شعرتُ أنّ شخصًا ما يتعرّض للتعذيب، لذلك كان عليَّ أن آتي لأرى.

جمال: حسنًا، لقد رأيتِ، بإمكانك الآن أن تعودي زاحِفةً إلى جُحرِك.

أمي: جمال! اعتذر لأختك! ومن الأفضل ألا أسمعك تقول شيئًا كهذا مرّة أخرى! هل تسمعني؟

مكتبة ياسمين

جمال: تقول لي أسوأ من هذا بكثير يا أمي، ولا تسمح لي بدخول غرفتها إطلاقًا، فلماذا عليَّ أن أسمح لها بالدخول إلى غرفتي؟

الأم: جمال!

جمال: حسنًا، أنا آسف يا ويت... -بهدوء- لأنكِ تعيشين في جُحر مثل الأقزام!

أبي: يا رفاق.

ويت: لا أدعك تدخل غرفتي، لأنك ترفض استخدام مزيل العرق.

أمي: جمال، لقد تحدّثنا عن النظافة.

أبي: يا رفاق.

جمال: أمي، إنها تكذب! شمّي إبطي! شمّيني! كوينسي، توقّف عن الضحك!

كوينسي: عائلتك مضحكة. ما بيَدي حيلة.

أبي: يا جماعة! هل تريدون سماع سؤالي اللعين أم لا؟

أمي: انتبه إلى لغتِك، يا أندريه.

أبي: كلّ ما قلتُه هو اللعنة، يا حبيبتي. هذا بالكاد...

أمي: أندريه ألكسندر آندرسون.

أنا: رائع! أبي في ورطة.

أبي: ما الجديد في ذلك؟ حسنًا، إليكما السؤال: ماذا تريدان أن تكونا عندما تكبران؟ جمال، أنت أوّلًا.

أنا: لماذا أنا؟

أبي: لأنك طفلي، ولأنني أحبّ كيو بشكل أفضل.

ويت: هذا مؤلمٌ يا أبي.

ضحكنا جميعًا.

أبي: وإذًا، ماذا ستكون؟

أنا: حسنًا. عندما أكبر أريد أن أكون... لاما.

أبي: ألا يمكنك أن تكون جادًّا مدّة ثلاثين ثانية يا فتى؟!

أنا: ثلاثون، رقمٌ كبير، يمكنني أن أكون جادًّا مدّة عشر ثوانٍ.

مكتبة ياسمين

أبي: كيو، ماذا عنك؟ ماذا تريد أن تكون؟

أنا: أوه! هذا سهل، سيّد آندرسون. أريد أن أكون مُضيف عرض «ليتر تونايت».

أبي: واو! هذه إجابة ممتازة. هذا رائع، يا كيو. يمكنني بالتأكيد رؤيتك على المسرح، والميكروفون في يدك.

أنا: وأنا أيضًا.. أنا أراه أيضًا.

عندما توقّف الفيديو، نظرَت أوتوم إليَّ، وقالت: «واو! كان ذلك رائعًا».

أومأتُ موافِقًا: «لا أُطيق صبرًا حتى أُريها لِويت.. مذكرات عائلتنا».

قبّلَت أوتوم خدّي.

بعد بضع دقائق، هناك خمس تذاكر إلكترونيّة لعرضِ الغد على هاتف أوتوم. كانت قد وجدَتها في أحد مواقع الشراء والبيع، مما يعني بالطبع أننا دفعنا مبلغًا هائلًا مقابل تذاكر عادةً ما تكون مجّانية، لكن هذا لم يهم.

قالت أوتوم:

- لا تخبر كيو أننا دفعنا ثمنها.

قلتُ:

- بالطبع لا. لماذا أقول له...

لكنني تمكّنت من فهم النكتة قبل أن يفوت الأوان. قلت لها: «أكرهك».

دندنَت:

- ما كنتَ لتستطيع حتى لو أردت ذلك.

نقرَت على شاشة هاتفها، وبعدها بثوانٍ، أضاءَت شاشة هاتفي مع رنين.

قالت: «أرسلتُ للجميع تذاكرهم».

التقطتُ هاتفي، لكنها أخذته من يدي، وأعادته إلى طاولة المطبخ. ولن أبدأ في الحديث عن جاذبيّة أعين أوتوم البنيّة الأقوى من أشدّ ثقبٍ أسود، أو عن أنها استحوذَت عليَّ على الفور، أو عن أنني رأيتُ في مركزها مستقبلنا المشترك بأكمله يتصاعد في كلِّ اتجاه، مثل حلزون مزدوج، فهو حديثٌ مبتذل للغاية.

مكتبة ياسمين

لعقَت شفتي السفلية، وقبّلتُها. ثم عضَّت شفتي السفلية، ولم أشعر بألمٍ أشهى من قبل. قبّلتُها.. قبّلتُها بشدّة، وكأنّ تقبيلنا يمنع العالم من الدمار النوويّ، وفتحتُ عينيّ لأرى ما إذا كانت عيناها مفتوحتين، ولم تكونا كذلك، لكنهما فُتِحتا وقبضَت عليَّ، فابتسمَت.

- اللعنة، هل تحبّ التّحديق؟

أومأتُ برأسي:

- عندما يكون أمامي ما يستدعي التّحديق.

تراجعَت زاوية فمها مُشكّلةً ابتسامةً فاتنةً، مثل المِقلاع.

- هل يُجدي هذا الكلام مع الفتيات عادةً؟

ابتسمتُ:

- أخبريني أنتِ.

أفلتَت من عناقنا، وخرجَت من الغرفة.

«هيه»، ناديتُها، لكنها لم تُجِب. سمعتُ الباب الأماميّ يُفتح ويُغلق. دخلتُ البهو الأماميّ، وكانت قد ذهبَت. ركضتُ نحو الباب، وفتحتُه بقوّة، وخطوتُ إلى الخارج. لم أرَها. مشيتُ نحو الممرّ، وكانت سيّارتها هناك.

صاحَت من ورائي:

- هيه.. من الذي تبحث عنه؟

استدرتُ ببطء، كما لو كنتُ قد قطعتُ عشر خطوات، وأُخطّط لسحبِ بندقيتي. تصرّفتُ، وكأنني لا أبالي، بعفويّة بالغة:

- كنت أتفقّد البريد وحسب.

- أوه! هذا مخيِّب للآمال!

- تركتِني.

- لقد سألتَني إذا كان ذلك الهراء ينفع.

- فغادرتِ ببساطة؟

- كان الأمر مضحكًا أكثر في رأسي (اعترفَت).

ابتسمتُ:

- اللعنة! أريد هذه الجملة على شاهدة قبري.

مكتبة ياسمين

17

اتصلَت السيّدة «بي» لتقول إنّ السيّد أوكلاهوما قد حذّرنا من هذه الرحلة.

نقرَت ويت على مكبِّر صوت المكالمة، حتى نتمكّن من سماعها: «ماذا قال بالضبط؟ وكيف عرف بالأمر؟!»

قالت السيّدة «بي» إنها أخبرته على سبيل التنويه، وسألَته عمّا إذا كان لديه أيّ نصيحة حول كيفيّة الاهتمام بـكيو.

وقالت السيّدة «بي»:

- إنّه دون معرفة متى... هذه الرحلة خطيرة للغاية. إنّه لا يجب ألا يذهب كيو على الإطلاق فحسب، بل أن أعيد النظر في الإنهاء المُتعمّد لحياته، إنني بحاجة إلى مراعاة اهتمامات كيو، وليس اهتماماتي فقط، لكنني أخبرته أنني لا أهتمّ بما يراه هو، أو ما يراه المركز، وأنّ الأم تعرف ما هو الأفضل لابنها، وأنني أريد أن تكون لحظات ابني الأخيرة على هذا الكوكب من أفضل اللحظات في حياته.

أعرف أنني آخر من يحقّ له الاعتراض، باعتبار أنني نوعًا ما سببُ وجودنا في هذه الورطة أصلًا، ولكن كان عليَّ أن أسأل:

- ماذا إذا... ماذا لو كانت هذه الرحلة فكرة سيّئة؟ ماذا لو كُنّا مخطئين؟

- يحدث الموت عندما يحدث، والتحدّث عنه، أو التخطيط له، لا يُغّير شيئًا على الإطلاق. إذا كانت عائلتانا لا تُدرك ذلك، بعد كلّ ما عشناه، فمن قد يفعل؟

مكتبة ياسمين

اليوم الخامس

تبقّى ما يقارب 30 ساعةً من حياة كيو

مكتبة ياسمين

16

حشرنا أنفسنا وحقائبنا الليليّة في سيّارة السيّدة بارانتيس. وغادرنا مبكرًا، وسُحِق اختيارنا لوقت مغادرتنا كُليًّا عندَ لحظةٍ غارَت فيها قلوبنا، وكادت السيّدة بارانتيس تقف على دوّاسة الفرامل لمنعنا من الاصطدام بالشاحنة المتوقّفة أمامنا.

لو كنا نلعب بينغو اللعنات، لفَاز خمستُنا، مع تشريع أذرع الانتصار في الهواء، حتى أنّ السيّدة بارانتيس رشَّت كلماتٍ بسرعة، ولست متأكّدًا من أنّها كانت بذيئة. قالت، وهي تنظر إلى كلّ واحدٍ منّا:

- هل الجميع بخير؟ ما الذي يشغلهم بحقّ الله؟

توضّع أمامنا حقل من الأقماع البرتقاليّة والبراميل البرتقاليّة التي شكّلَت مضلّعات غير ترحيبيّة في الطريق السريعة. وبينما أشار رجالٌ يرتدون خوذات مزوّدة بمصباح كهربائي إلى الطريق، وهم يضعون أيديهم على أوراكهم، ظلّت الطريق السريعة المكوَّنة من أربعة ممرّات مقيَّدةً بمنفذٍ واحد نحيف بشكل مثير للشّفقة.

فتحَت ويت تطبيقًا لحركة المرور على هاتفها:

- الزحام ممتدٌّ على مدى نصف كيلومتر.

هزّت السيّدة بارانتيس رأسها: «لا!».

كان كلّ ما قالَته، وهي تُدير السيارة يمينًا، وإلى القسم الأوسط، متجنّبةً مذبحةَ مخاريط برتقاليّة بصعوبة، قبل أن تضغط دوّاسة الوقود، وتخرج من منطقة البناء متجاوزةً العوائق. بدَت وجوه طاقم البناء مرعوبة، وهم يهربون بعيدًا عن الطريق، لكنها لم تكن قريبةً بما يكفي لتصدِمهم. حسنًا، ليس بذلك القرب.

سألَت أوتوم:

- اللعنة! سيدة بي، هل أنتِ ممثّلة بديلة في أوقات فراغك؟

صاح كيو من المقعد الخلفي:

- هذا هائلٌ يا أمّي! يا للروعة!

- من يقول إنّ الأشخاص ذوي البشرة السمراء لا يحبّون سباقات ناسكار.

مكتبة ياسمين

قالت، وهي تغمزنا من خلال مرآة الرؤية الخلفيّة. بعد عشر دقائق، خرجنا من السيّارة إلى خطّ الأمن بالمطار، ووضعت السيّدة بارانتيس مفاتيحها وأموالها إلى عامل ركن السيّارات دون تردّد. بطبيعة الحال، كانت بوابتنا (C29) التي يمكن بسهولة إعادة تسميتها بمسار أوريغون، كانت مسافة طويلة لتلك الدرجة.

وضعَت المضيفة الواقفة على البوابة علامةً على حقائبنا، لأنه لم يعد هناك مساحة تخزين على متن الطائرة، وبدَا أنها تريد أن تقول شيئًا عندما رأت بطن ويت، لكنها اتّصلَت بدلًا من ذلك بالطاقم، وأخبرتهم أنّنا وصلنا أخيرًا، وطلبَت منّا متابعة طريقنا عبر ممرّ الطائرة. ارتمينا على مقاعدنا؛ كيو وأمه معًا، ويت وأوتوم، وأنا وحدي.

جلستُ في المقعد الفرديّ على الرغم من أن أوتوم أرادَت أن تفعل. ها أنا في المقعد الأوسط، بجوار المحرّك مباشرة، واهتزّ جسدي بالكامل دون أن أستطيع سماع نفسي أفكّر في الطنين الذي لا يَكلُّ، وأفضل ما في الأمر! لم يكن لديّ مسند ذراع، لكن ذلك لم يهمني.

رأيتُ الجزء الخلفيّ من رأس كيو، وجانبَ والدته وهي تنظر إلى ابنها بطريقة ليس من المفترض أن يعلّمك إياها أحدٌ عندما تعرف الحبّ الذي قد تصونُه بحياتك، مما ذكّرني أنّ ما فعلتُه بقولي الحقيقة لكيو، لم يكن من حقّي؛ أنني كنتُ أنانيًا، ومُدّعيًا للتنوّر ومتهورًا. وحتى لو كان مصمِّمًا على التظاهر بأنه بخير، فلا ينبغي لكيو أن يقضي أيَّامه الأخيرة في خوف وكآبة، فهو يستحقّ السّلام الذي يكون أحيانًا أفضل من الحقيقة، ولو لم أخبر كيو بالحقيقة، فلما انتهى بنا الأمر هنا غالبًا؛ على ارتفاع ثلاثين ألف قدم، في رحلةٍ نحو أحلامه؛ رحلة سلسة للغاية، وكأن الاضطراب اختفى رسميًّا.

لكن لم يكن القرار في ذلك لي. الحقيقة هي أنه لا يمكنك تعويض الضرر الذي تسبّبه أبدًا؛ قد تعتذر، وتحاول التكفير، وتتراجع الندوب في أحسن الأحوال، لكنها لا تختفي.

وتعيش مع ألمِ أنك آلَمْتَ شخصًا ما.

وخزَت السيّدةُ الجالسة على المقعد بجواري في ضلوعي بواسطة مرفقِها، لكنني لم أشعر بأيّ شيء.

مكتبة ياسمين

انقسمنا إلى مجموعتين في الفندق: ويت، وأوتوم، وأنا في غرفة واحدة، وكيو ووالدته في أُخرى. اضطُرِرنا لغلق الغرفة على ويت عمليًّا حتى تستريح، فقد أرهقَها ركوب الطائرة وهلع التحضير للرحلة، لكنها كانت مصمِّمة على البقاء في قلب الحدَث، إلا أنّ خبرة السيدة بارانتيس في التمريض أقنعَت «ويت» بأخْذ قيلولة تُريح فيها جسدها. لذلك أنشأنا لجنةَ وضعِ الخطط الخاصّة بنا في غرفة كيو.

كانت خطّتنا بسيطة؛ قرّرنا بناء مجموعة متنوّعة من اللافتات المكتوبة بخطّ اليد، التي لن يتمكّن كيندريك من مقاومتها، ناهيك بتجاهلها. سيرى اللافتات، المليئة بمديح كيو، بالإضافة للتركيز الخاصّ على حبّ كيو اللامتناهي وإعجابه بـكيندريك، ثم سنراقب النجاح الساحق!

لكن حسنًا، كان أمامنا بعض العقبات البسيطة لنعالجها.

العقبة البسيطة الأولى: في حين أنّ الافتراضات عادةً ما تكون مشئومة، أفترض أنّ اللافتات، حتى لو كانت ذات طبيعة سعيدة، أو إن كانت جذّابة قليلًا، فلعلّها مستهجنة في العرض، وهو منطقيٌّ، فما كان أحدٌ ليرغب بأن يرفع مجموعة من غريبي الأطوار لافتات في وجه كندريك، وهو يحاول تقديم مونولوجه.

لكن بالنسبة لي، بدا ذلك انتكاسةً بسيطةً، ويمكن علاجها بسهولة؛ فقرّرنا أن نهرِّب لافتاتنا إلى الاستوديو تحت ملابسنا وحقائبنا ومحافظنا، ثم نُخرجها من الأماكن المذكورة في الوقت المناسب، مع القفز في أماكننا، ورفرفة مناشداتنا ذات الحِبر بشكلٍ متموّج.

العقبة البسيطة الثانية: يبدو أنني الوحيد الذي يفهم الأهميّة الحيويّة لهذه اللافتات.

انظروا:

أوتوم:	ويت:	السيدة بارانتيس:
كيو يحبّك يا كيندريك! أرجوكَ.. دعْهُ يلقي دعابةً!	كيندريك، كيو يتحدّاك في مواجهةٍ فرديّةٍ! الفوزُ للرجل الأطرَف!	أنت مجنونٌ إن لم تدعُ ابني يشارك في عرضك!

مكتبة ياسمين

يجب أن تكون لافتاتنا مُلهمة، بالطبع، ولكن يجب أيضًا أن تستحضر المشاعر التي قد تراودك أثناء قراءة مذكّرة فدية ترشدك إلى ما يجب عليك فعله، إذا كنت تريد رؤية من تحبّ. ومن ثمّ، لافتتي:

سوف يموت صديقي الطيّب كوينسي في غضون يومين حرفيًّا إن لم يشارك في عرضك.

وأرى أنّها تتماشى مع الموقف ببراعة؛ فصيغتُها لبِقة، ونبرتُها واقعيّة، ولكنها أيضًا مباشرة بما يكفي بحيث تكون رسالتها واضحة.

عارَضني كوينسي قائلًا:

- لكن يا جاي، سأموت على أيّة حال!

عندما أرَيته عملي بفخر، قال:

- هذا يبدو نوعًا من... التلاعب!

- لن أتراجع عن لافتتي يا كيو.

- لكنها كذبةٌ عمليًّا.

- أنا مسئولٌ عن أقوالي (دنَوتُ من مساحة عمله) دعني أرى لافتتك.

رفعَها.

كندريك، أنت السّبب في أنّني أحبّ الكوميديا. أضحَكْتني، وأبكَيْتني في آنٍ واحد مراتٍ عديدة. لستَ مُلهمي في الكوميديا وحسب. أنتَ طريفٌ للغايةِ بالطبع، لكنني أعتقد أنّ موهبتك العظمى تكمن في قدرتك على رؤية حقيقة الناس. أنت تفهم ما يعنيه أن تكون إنسانًا.. أن تُحفّز الآخرين، وتدعمهم. أنت حاصِلُ جمْع الكلمات المذهلة مع التصرّفات. شكرًا لك على كلّ شيء.

قلتُ:

- لا بأس بها، لكنك لم توضّح مطالبك. أعتقد أنها تفتقر إلى الجاذبيّة.

قالت أوتوم:

- أظنّ أنّها رائعة، لو رفع أحدٌ هذه اللافتة من أجلي، فسأذوب في مكاني.

مكتبة ياسمين

- إلّا أننا لا نحاول أن نذيبه، بل نحاول أن نجعل كيو يشارك في العرض. وعلاوةً على ذلك، كيف يفترض أن يقرأ كندريك كلّ ذلك من المسرح؟ لو كان ملفًّا نصيًّا لكان حجم الخط عشرة!

سعل كيو، ثم سعل بعدها عدّة مرات.

- هل أنت بخير يا رجل؟ (سألَت أوتوم).

- أشعر بقليلٍ من الدّوار، وحكّة في حلقي. قد تكون بدايات نزلة برد.

سعل كيو مرّةً أخرى، إنما بشكل شبه عنيف، ثم تنحنح في النهاية:

- لم أكن أرغب في قول أيّ شيء من قبل، يا جاي، لأنني أرى كم يعني هذا لك.

- ما الذي تتحدّث عنه؟

- نعرف جميعًا أنني لن أشارك في «ليتر تونايت»، صحيح؟

- نحن لا نعرف ذلك يقينًا. لقد جلب أعضاء من الجمهور على خشبة المسرح من قبل. توجد العشرات من المقاطع على تُوبروَن.

هزّ كيو رأسه:

- نعم، ولكن ما احتمالُ أن يفعل ذلك في هذا العرض، وحتى لو فعل ذلك، فما احتمالُ أن يختارني أنا؟ لكن لا بأس. هذه ليست غايةَ هذه الرحلة بالنسبة لي. أردت أن أكون في المكان نفسه مع بطلي في الكوميديا فقط. أردت أن أراه يفعل ما يبرع به، وأشعر بطاقته، وأضحك على نكاته في عرضٍ حيّ.

- كلّ هذا سيحدث، لكن...

- لكن أتعرف ما هو أفضل جزء على الإطلاق من كلّ هذا؟ (سأل كيو).

- احتمال أن يذوب كيندريك في البث التلفزيوني المباشر؟

- وجودي هنا معكم يا رفاق. قضيتُ السّاعات القليلة الماضية على هذا الكوكب محاطًا بالأشخاص الذين أحبّهم، والذين يضحّون لمساعدتي في فعل ما أحب. بصراحة، سأموتُ سعيدًا لو متُّ الآن.

لو كان الأمر متروكًا لي، لانتهى الموقف بحديثٍ باكٍ حول غايةِ الحياة أو أيًا كان، لكن بدلًا من ذلك، ألقَت أوتوم ذراعيها حولنا:

مكتبة ياسمين

- أوه! الحب في هذا المكان يتكثّف جدًّا. أحبُّ هذا.

وتعانقنا عناقًا جماعيًّا، كأنّ شيئًا لا يهمّنا، وكأنّ كلّ ما يهمنا هو العناق الجماعيّ.

بعد عشر دقائق، اقتحمت السيّدة بارانتيس الغرفة ممسكةً بكيس ورقي بُنيّ، عليه أشكال بيضاويّة دهنيّة على كلا الجانبين، مثل بقع العرق تحت الإبط.

- هل طلب أحدٌ وجبة باد كي ماو؟

وأعتقد أن ويت سمعَت موافقتنا الحماسيّة من غرفتنا المُلاصقة، لأنها طرقَت الباب بعد دقيقة، وبدَت أقلّ إرهاقًا، إنّما أكثر جوعًا.

قالت ويت، وهي جالسة على كرسي المكتب:

- أنجيليس يُرسل محبّتَه.

ابتسم كيو:

- هل من شابٍّ أروع منه!

- مستحيل! (قالت ويت، وهي تحرّك كرسيها قليلًا نحو كيو، ثم نحوي) لكن يمكنني التفكير في عدّة شبابٍ يتمتّعون بذات الرّوعة.

ثم مرّرنا العُلب فيما بيننا، موزِّعين المعكرونة والدجاج والبط المقرمش، والكثير والكثير من الخضار، وقد كان من اللطيف ألّا نخطّط لأيّ شيء لبضع دقائق.. أن نكتفي بالصّمت... أن نترك سفننا تجري مع الرّياح.

15

وصل إميليو.

تلقيت إشعارًا بأنّ سيّارتنا أمام الفندق.

تبيّن أنّ «ليتر تونايت» يُسجَّل في الواحدة بعد الظهر، فيا للروعة!

- التذاكر معك، أليس كذلك؟ (سألتني ويت ليس للمرّة الأولى منذ أن ركبنا السيارة).

- إنها معي. هل لي بقليلٍ من الثقة؟

بدأ كيو بنوبة سعال أخرى، لكنه ضحك ضحكةً كبيرةً في النهاية، التي شعرتُ بها تمامًا؛ كلِّ اهتزازٍ في ضحكته، لأننا كنّا محشورين معًا في المقعد

مكتبة ياسمين

الخلفي، هو والسيدة بارانتيس، وأوتوم، وأنا. بينما جلسَت أختي الحامل مرتاحة كليًّا في المقعد الأماميّ.

وأحيانًا يكفيك هذا من الحياة؛ أن تكون في سيارة مع أشخاص تحبهم، سعداءَ تغنّون، ولا يمكنك تخيُّل حالٍ سوى تلك. لن ينفد الغاز أبدًا. ستسمع كلّ أغانيكم المفضلة واحدة تلو الأخرى. ستبتسمون وتلوّحون للسيّارات التي تتجاوزونها، والسيّارات التي تتجاوزكم. لن تعرف ما إذا كانت الشمس مشرقة حقًّا أم أنّها انعكاس لإحساسٍ في داخلك. في كلتا الحالتين، تشعر بالدفء، والامتلاء.

وصلنا إلى الاستوديو حيث يصوّرون «ليتر تونايت»، ورأينا بابًا مكتوبٌ عليه «مدخل ضيوف الاستديو».

- يقصدوننا (قلتُ وأنا أفتح الباب للجميع).

شبكَت أوتوم يديها معًا:

- أنا متحمّسة.

قال كيو:

- أنا أيضًا. لن أكذب، هذا رائع جدًّا.

فليلتزم الجميع بالخطة.

أومأنا برأسنا جميعًا موافقين.

سألتُ:

- هل ينبغي أن نتجمع ونفعل تلك الحركة حيث نضع يدًا في المنتصف ثم نقول في انسجام تام شيئًا شبه مُلهِم قبل أن نرفع أيدينا في الهواء؟

قالت أوتوم:

- طيّب، لكن أعتقد أنه كان من الأفضل لو فعلنا ذلك حالًا، بدلاً من أن تشرح كلّ خطوة.

قالت ويت:

- نعم، أوافق. تروقُ لي هذه الفتاة.

قال كيو:

- أؤيّد ذلك. التشجيع الحماسيّ عبر الأيدي هو الأفضل.

مكتبة ياسمين

قالت السيّدة بارانتيس، وهي تغمزني:

- أعتقد أنه لا مانع عن ذلك يا جمال. لا أعتقد أنك أفسدت أيّ شيء.

- شكرًا.. شخصٌ ما يفهمني على الأقلّ.

- واء واء! (قالت ويت، متظاهرةً بالبكاء) هل هذا النواح قادمٌ من بطني؟

قلبتُ عينيّ مستنكرًا، ومددتُ يدي:

- جاهزون يا رفاق؟

- جاهزون.

قال الجميع، وهم يضعون أيديهم فوقها: «حسنًا، فلنوصل كيو إلى المسرح بعد العد إلى ثلاثة»، وجهت: «واحد... اثنين... ثلاثة...»، فلنوصل كيو إلى خشبة المسرح، نصيح جميعًا باقتناع، وترتفع أيدينا في الهواء.

مسحنا التّذاكر، وجلسنا على مقاعدنا. خفتت الأضواء، وصفّق الجمهور كأنّ حياتنا مرهونة بمقدار حماسنا. وخرج كندريك يخطو، وبدَت كُلّ ابتسامةٍ، وكأنه ينتزع ملاءةً من غرضٍ مُغطىً ليكشف عن شيء مميّز. ترامَت جدائل شعره الشّعثة بعيدًا عن وجهه مثل مسارات مجمّدة للعديد من الأحجار المترامية. جلدٌ أسود ناعم جدًّا، ولو مررت أصابعك على ذراعه يسارًا ويمينًا، فسيتغيّر ملمسه مثل المخمل. حسنًا، لعلّ هذا غير صحيح، ولكن الأكيد هو أن كيندريك يمتلك جاذبيّة هائلة. يرغب المرء بأن يُعجب به قبل أن ينطق بكلمة واحدة. بعد فترة وجيزة من بدئه للمونولوج الذي يستغرق ثلاث دقائق، أومأتُ للفريق بالإشارة، وبدأنا في إزالة لافتاتنا من أماكن إخفائها.

لكن شيئًا لم يكن في حسباننا؛ مقدار الظلام. لوّحنا باللافتات، بل وجعلناها ترفرف، ولكن إن كان كيندريك قد لاحظ (أو أيّ شخص آخر باستثناء الجالسين خلفنا)، فإنّ أحدًا لم يقل أيّ شيء. لم يرفّ جفنٌ لكندريك.

في النهاية، ارتمَت لافتات الجميع في أحضانهم، لكنني واصلتُ المحاولة، في انتظار أن تتغيّر الأضواء.. في انتظار أن يتغيّر حظُّنا. لكنّ شيئًا لم يحدث!

وقفتُ، وسحبَت ويت قميصي:

- ماذا تفعل؟

- أحاول جذب انتباهه.

- اجلس.

مكتبة ياسمين

قال رجل من خلفنا:

- أجل، اجلس يا فتى! ليس من المفترض أن ترفع أيّة ملصقات على أيّ حال!

- معذرةً يا سيّدي، لكنني لا أرى أنّ هذا قد يكون من شأنك! أحاول أن أفعل شيئًا مهمًّا لصديقي هنا، فهلّا...

- أيّها السيّد، أيّها السيّد، نريدك أن تأتي معنا.

قال رجلٌ ظهر فجأةً في نهاية صفّنا وبينما كان يوجِّه مصباحه إلى وجهي، لمحتُ كلمة «الأمن» مُطرَّزةً على قميصه وقبّعته.

- ما الخطأ الذي ارتكبتُه؟!

- أنت تسبّب إزعاجًا. يشتكي ضيوفٌ آخرون.

- كُلّنا معًا. إذا ذهب، فسنذهب جميعًا (رنّ صوتُ أوتوم).

لكن حارس الأمن هزّ كتفيه، ولوّح بمصباحه لنا جميعًا: «حسنًا، تعالوا جميعًا».

قلتُ:

- لا، مهلًا.. مهلًا! خذني أنا فقط. لم يفعلوا أيّ شيء. أنا المُلام!

- اسمع، لا يهمُّني إن كنتَ أنت المُلام فقط أم المجموعة بأكملها!

التفتُّ إلى الآخرين:

- لا أريد أن يفوِّت كيو العرض. يجب أن يرى العرض.

قال كيو:

- لا أريد أن أراه دونك. هذه كانت فكرتك.

هززتُ كتفيّ بلا مبالاة، فقد كان من المستحيل أن أخذل كيو اليوم.

- لا، أنا في الواقع أكثر تحيّزًا لبرنامجٍ يُعرض بعد هذا على أيّ حال.

«جايسون، ما الذي يحدث هناك؟!»

قال صوتٌ سمعته مرّات عديدة على شاشة التلفزيون، ولكن ليس شخصيًا من قبل. نظرتُ إلى المسرح، وكان كندريك يضع يده فوق عينيه، وهو يحدّق بعينين نصف مغمضتين مقاومًا الأضواء.

مكتبة ياسمين

هزّ حارس الأمن (الذي كان يُدعى جايسون على ما يبدو) رأسه: «عذرًا يا زعيم. سنبتعد عن الطريق بعد لحظة».. بعد لحظة! وخطرَت الفكرة على بالي عندها، لماذا لا تكون هذه اللحظة؟

أومأ كندريك برأسه، وهو على وشَك أن يستدير عندما هتفتُ: «كندريك، سيّدي، أنا آسف للغاية لمقاطعة عرضك! أنت ذكيّ ومضحك، وتبدو إنسانًا رائعًا، ولهذا نحن هنا! لهذا جئنا لرؤيتك، فقد...»، لوّح كندريك بيده قليلًا، لم يتأثّر. كان هذا خطابًا قد سمعَه من قبل، وأمكنَه أن يقرأه عن ظهرِ قلب، إلّا أنّه كان ليكتبه بشكل أفضل.

- شكرًا لحضورك (قال وهو يمشي نحو أجنحة المسرح).

- مهلًا، كندريك! صديقي مريض! سيموت في غضون يومين، وكلّ ما أراده، الشيء الوحيد؛ كان أن يأتي لرؤيتك! من فضلك، من فضلك، أعطِه ثانيةً من وقتك.. لو سمحت. أتوسل إليك.

تمهّل كندريك، وأدار رأسه نحونا:

- ما اسم صديقك؟

- كيو! كوينسي!

- كوينسي، هل أنت هناك؟

أومأ كوينسي برأسه، ولكنه لم يتحرك. لو كان كيو رسومًا متحرّكة لكانت حدقتاه حلزونيتين سوداوين تدوران، كما يحدث عند التنويم المغناطيسيّ.

قال كندريك ضاحكًا:

- بإمكانك التحدّث يا كوينسي.

- أنت بطلي في الكوميديا.

- شكرًا لك يا كوينسي. وشكرًا لاستخدامك آخرَ... شكرًا لتكليفك نفسك عناء القدوم مِن...

هتفَت السيّدة بارانتيس:

- أوهايو.

- أوهايو (ردّد كندريك) أتمنّى لك ولعائلتك السلام والعزاء.

قال كوينسي فجأةً:

مكتبة ياسمين

- لقد شاهدتُ «الشريط البنفسجيّ» مئة مرّةً!

تجعّد جبين كندريك:

- حتّى أمّي لم تشاهد «الشريط البنفسجيّ»! قد لا يعرف بوجوده سوى أربعة أشخاص!

- اشتريته عبر الإنترنت. ليست أفضل نسخة، ويتقطّع الفيديو لثانية واحدة في مكانين، ولكن كلّ المشاهد كاملة. لقد ادّخرت من أجله لفترة طويلة، لكنه كان يستحقّ ذلك. دعاباتك مَدرسَةٌ في الكتابة. لا أشعر أنّها دعاباتٌ حتى في معظم الأوقات، بل قصصٌ رائعة تدعو للضحك.

أومأ كندريك برأسه:

- حسنًا، شكرًا لك يا كوينسي. هذا من أجمل الأشياء التي قيلت لي على الإطلاق.

مشى خطوةً نحو الجناح، ونظر خلفًا مرّة أخرى: انتبه لنفسك يا رجل.

وبعد ذلك ذهب، على الأرجح لتغيير الملابس من أجل مقطع آخر، أو تناول الجعّة، أو أيًّا كان ما يفعله المضيفون بين الفقرات.

ضغط كيو خدَّيه بكلتا يديه:

- يا إلهي! هل حدث هـــــ... هل توقّف كندريك وتحدّث... هل...؟

ضحكتُ، لأنّ تلك كانت الغاية من كلّ هذا، أن نرى هذا التعبير على وجه كيو، وأن نشهَد لسان كيو يصدر هذه الأصوات، وأن نرى أعين كيو تتوسّع إلى هذا الحدّ!

وخز الحارس ظهري، مقاطعًا سلسلة أفكاري:

- حسنًا، لقد حظيتَ بتسليتك. هيّا يا فتى.

سألتُ:

- هل يستخدم كلّ حرّاس الأمن كتابًا واحدًا للعبارات الشائعة؟!

هتف:

- حظًّا موفّقًا في المرّة القادمة، تحرّك الآن.

حاولَت ويت دفع نفسها من مقعدها الفرديّ:

- لن تأخذ أخي إلى أيّ مكان. أنا الوصيّة عليه، ولم يرتكب أيّ خطأ!

رفع الحارس يديه:

مكتبة ياسمين

- سنذهب إلى الرّدهة، يا سيّدتي. يوجد تلفاز هناك، يمكنه أن يشاهد العرض، ويأكل فطائر أيضًا، إن أحسَن التصرّف.

خطوتُ نحو الممرّ:

- أترين؟ سأكون بخير. أراكم بعد العرض يا رفاق، اتفقنا؟

لكنني كنتُ أنزل الدرج تجاه المخرج قبل أن يتمكّنوا من أن يحتجّوا أكثر. لم تكن مشاهدة العرض في الرّدهة بهذا السّوء، فقد كانت الكراسي مريحة بدرجة كافية، وكانت القهوة مجانيّة. جلستُ على حافّة مقعدي معظمَ التسجيل، وأنا أشبك أصابعي أملًا بأن يجد كيو طريقه إلى المسرح بمعجزةٍ ما، إلّا أن شاشة التلفاز خفتت وأظلَمَت، مما أدّى إلى إطفاء آخرِ بريقٍ من تفاؤلي، لكن لم أتحرك. كنتُ واثقًا من أن هذا لن يحدث، لكن لم أستطِع قبول أننا فشلنا.. أنني فشلت. لعلّه بإمكاني الرّكض إلى المسرح، أو أن أتسلّل خلفه، وأبحث عن غرفة ملابس كندريك، لأفعل حركةً كما في أفلام الأكشن، حيث أستجمع قواي، ثم أندفع وكتفي نحو الأمام مُتّجهًا إلى قلب الباب، فأمزّق المزلاج من قفله، أو أن أجِد سيارته، وأنتظره هناك حتى يخرج. يحوي الإنترنت صورًا لسيّارته غالبًا، فليس من المفترض أن يكون من الصعب العثور عليها، وإذا كان الحراس الآخرون مثل هذا، فما مدى صعوبة التسلل دون أن يكشفوني؟

«لا تفكّر في الأمر!» -قال حارس الأمن، وهو يقرأ أفكاري- «هاكَ فطيرة أخرى».

ألقيتُ نظرة على الباب خلفَه؛ الباب الذي أتينا منه. يستحيلُ أن يكون سريعًا بما يكفي لإيقافي. وقفتُ ووقعتُ ضمن نطاقٍ قريبٍ منه.

ضحك حارس الأمن: «لقد حِزتُ على المرتبة الثانية في الركض في خمس بطولات مصارعة للهواة. سأرميك أرضًا بقوّة تكفي ليُصاب أطفالك بالدّوار!».

ضحكتُ، فقد كان ذلك مضحكًا. تخلّيتُ عن وضعيّة الهروب، ووقفتُ احترامًا لأطفالي الذين لم يولدوا بَعْد! لا بدّ من وجود طريقة أخرى، فكّرتُ، عندما بدأ حارس الأمن في التبسُّم.

سألتُ:

- ما الظّريف لهذه الدرجة؟

أومأ نحو الشاشة:

- يبدو أنّ صديقك لم يكن بحاجة إليك.

مكتبة ياسمين

14

شعرتُ برجفة، وتخلخل في ركبتيّ، أو ربّما كان ذلك رأسي. لم أصدق عيني.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا!

كيو، وميكروفون من الكروم في يده، يبتسم، ويحدّق إلى الكاميرا، كما لو أنّ قَدَره أن يظهر على التلفاز. لا، بل كأنّ هذا قَدَر التلفاز!

«أتيتُ من أوهايو بواسطة الطّائرة، مما جعلني أفكّر في أوّل رحلة تجاريّة على الإطلاق. هل يمكنكم أن تتخيّلوا الموقف؟ والدك يحاول إقناعك أنّها آمنة؟ أعدك بأنّ الأمور ستكون على ما يرام يا بنيّ. ما أسوأ ما يمكن أن يحدث؟

أبي، إنّها علبة سردين عملاقة بأجنحة واهية تحلّق على ارتفاع ثلاثين ألف قدم! كانت أمّي على حقّ، أنت تفتقر إلى المخيّلة بالفعل!

هل تعرفون أكثرَ ما أكرهه في الطيران؟

نصف علبة المشروب الغازيّ الذي يقدّمونه. ألا تغطّي السّبعة آلاف دولار التي دفعتُها مقابل هذه الرّحلة المزيدَ من رشفات الليمون؟ وللتأكُّد من أن تحصل على أقلّ كميّة من المشروب، يملئون كوبك بالثلج. عُذرًا، لكن أما زال الهدف تبريد الصودا أم عليَّ أن أمسك بفأسي، وأبدأ بالتّسلّق؟ وليس هذا ثلجًا عاديًّا، بل يذوب حالًا عند التلامس. حالَمَا تصبُّ المضيفة الكميّة المحدودة من الصودا.. بووم، تستحيل الطبقة العليا من مشروبك إلى ماء صنبورٍ نقيّ. تكرَع نصف كأسك قبل أن تتذكّر حتّى ما طلبته، فهو أشبَه بالماء. تأخذ رشفتين أُخريَين وينفد، فتجد نفسك أمام كيس من كعك البريتزل الصّغير الذي لا يمكنك فتحه لإنقاذ حياتك. ومن الذي ابتكر كعك البريتزل الصّغير على أيّ حال؟ هل كان كبيرًا لدرجة أنّنا احتجنا إلى تقليص حجمه؟».

لا أعرف كم طالَت فقرة كيو. لم أنتبه سوى إلى أنّه كان قاتلًا، وخارقًا، ومدمّرًا. عندما أنهى عرضَه، انحنى للجمهورِ انحناءةً مُعبّرةً غايةٌ في التأثير، ثم أسقطَ الميكروفون، إلا أنه لم يصطدم بالأرض، لأنه كان لا يزال مُعلّقًا بالحبل. سحبَه خلفًا بواسطة الحبل وضحك: «مجرّد مزاح، أعرف أنّ هذا يكلّف أكثر من رواتب هذا الجمهور بأكمله في عام واحد. هذا الشيء ثقيل جدًّا. ممَّ

مكتبة ياسمين

يُصنع؟ سبائك ذهب؟ لم أكن أرغب في كسرها، لأنني بمجرد خروجي من هذا المسرح، سأخبِّئها في بنطالي، وآخذها معي إلى أوهايو».

ولا يهمّ إن كنت أتذكّر الآن كم كان كيو طريفًا. لا يهمّ إذا وقعت أمريكا كلّها في حبِّ سحره وتواضعه. كان أملي أن يقدِّروا ما عاشوه حينها. كان أملي أن تتسرّب كلماته إلى أدمغتهم في منتصف يوم ثلاثاءٍ ما ليبدؤوا بالضّحك على ما يبدو قادمًا من العدم، لأنّ كوينسي مايكل بارانتيس ليس مجرّد كنز ذهبٍ في الكوميديا. إنه ذهبٌ صافٍ، وانتهى.

13

ذهبنا إلى مطعم إيطاليّ لتناول العشاء الاحتفاليّ، فقد تملّكت كيو رغبةٌ عارمة في تناول المعكرونة، وقالت ويت إنّها قد تقتل شخصًا مقابل قطعة من التيراميسو، وكنّا بالطبع سنجد طريقةً لنضمن أن نُلبّي رغبةً، وننقذ حياةً في آنٍ معًا.

رنّ هاتفي بينما كنّا نتناول التحلية.

سأل السيّد أوكلاهوما:

- كيف كانت أمسيتك في الأستوديو السجن؟

- لن أكذب يا رجل، إنّ معرفتك لأدقّ التفاصيل في حياتنا تُخيفني نوعًا ما. على أيّ حال، كان أداء كيو رائعًا، حتى أنك كنت لتضحك.

- ماذا لو انهار على خشبة المسرح؟ ماذا كنتم لتفعلوا؟!

- هذه ليست طريقةً للحياة، سيّد أوكلاهوما!

ساد الصمتُ لوهلة.

- يسرّني أنّ كوينسي قد نجح في تحقيق حلمه.

- أنا أيضًا -ولعلّه كان من الوقاحة قول التالي، لكنني قلتُه- سيّد أوكلاهوما، لم ترُق لي عندما قابلتُك لأوّل مرّة.

- إعجاب الناس بي ليس جزءًا من عملي.

- قلتُ عندما قابلتك لأوّل مرّةٍ.

- أعرف ما قلتَه.

مكتبة ياسمين

يا لهذا الرجل!

- إذن، هل هذا كلّ شيء؟ هل اتصلت للتوّ للتّحدّث عن مدى نجاح العمليّةِ التي أديناها لجعل كيو يشارك في عرض «ليتر تونايت»؟

- لا، يا جمال (وقفة طويلة) لقد اتصلت لأقول إنك أحسنتَ التصرُّف. لذا، أحسنتَ يا جمال.

وقبل أن أتمكّن من الرّدّ، أنهى المكالمة.

12

طلبَت ويت سيّارةً، ووقفنا ضمن تجمّع خارج الحانة الصغيرة.

سألَت السيّدة بارانتيس:

- والآن إلى أين؟

ابتسمتُ:

- لم يتناول الحلوى سوى أحدنا.

رمقتني ويت بنظراتها المتوعّدة.

نقرَت أوتوم على قائمة تحوي أفضل خياراتِ الحلويّات في مدينة نيويورك، وقرأَتها لنا.

قلتُ:

- اختر أنت يا كيو.

لكنه هزّ رأسه:

- اللعنة، حقًّا؟ يجب أن أموت مرّاتٍ أكثر.

لكن عندما وصلَت السيّارة، أمسكتُ بيد أوتوم، ومنعتُ كيو عن الدّخول، وقلتُ:

- دعونا نسير، يبعد المكان بضعة شوارع فقط.

ابتسم كيو:

- فلنتأهّب، تلمع تلك النظرة في عينيك.

- نظرة؟ أيّ نظرة؟! (ضحكتُ) لا أعرف ماذا تقصد!

مكتبة ياسمين

11

ما فهمته أخيرًا حول عرض كيو الكوميديّ، حول جانسي، هو أنّ الطرافة لم تكن المحور الوحيد، فقد وجد شابّان صوتهما، وتعلّما أن يؤمنا بنفسَيهما. ولعلّ الأهم من ذلك كله أنّها كانت وسيلة لجمع الناس. وفي بعض الأحيان، إعادة جمعهم.

10

في تلك الليلة، قبل أن نغفو، كانت أوتوم قد بدأت تُشخّر قليلًا، التفتُّ إلى ويت، وكان يفصل بين أسِرّتنا طاولةٌ صغيرة، وسألتُها: «كيف حالفني الحظُّ لهذه الدرجة؟».

وفي البداية، لم أستطِع التأكّد من أنها مستيقظة، فقد كانت الغرفة مظلمةً باستثناء أضواء المدينة المائلة الممتدّة عبر الجزء العلويّ من السّتائر المفتوحة، لذا سألتُها مرّة أخرى: «هيه، هل أنت مستيقظة؟ لأنني جادٌّ يا ويت. لم أشعر بهذه السّعادة منذ... شكرًا لكونك أروع أخت على الإطلاق، ولا أقول هذا، لأنني في مزاج جيّد وحسب».

لم أسمع جوابًا مع ذلك، أو أيّ حركة. أنصتُّ محاولًا أن أسمع أنفاسها، لكن بين أوتوم وضجيج السيارات العابرة في الخارج، لم أسمع أيّ شيء من ناحيتها.

«ويت؟»، ناديتُ في الظلام، وظننتُ أني سمعتُ شهقةً صغيرةً، ولكن حادّة، بدايات انتحاب خفيفة، ولكن على الرغم من هدوئي، وإبطائي لتنفسّي، لم أسمعه مرّةً أخرى.

«ألا تكرهين الأشخاص الذين يستخدمون الكلمات الكبيرة فقط لإثبات أنهم ليسوا بغيضي الأنفُس؟»

سألتُها، على أمل أنّها إن كانت مستيقظة، فستضحك، لكنها لم تضحك. لذا وضعتُ سمّاعاتي في أذنيّ، واستمعتُ إلى أحدث ألبوم لفرقة «مايتي موت»، «تُفرحني الأغاني الحزينة»، حتى انجرفتُ بعيدًا بعيدًا...

مكتبة ياسمين

اليوم السادس

تبقّى 7 ساعات تقريبًا من حياة كيو

مكتبة ياسمين

9

حُدِّدتْ رحلتنا عند مطلع الفجر، لذا عندما تجمّعنا في حافلة الفندق، كانت السماء لا تزال مظلمة. تعاطفتُ مع سائقنا، لأنّ الجميع كانوا يشخِّرون معًا مثل جوقةٍ، لكن كنّا قد مررنا بأيّامٍ عصيبة.

عندما عدنا إلى أوهايو أخيرًا، اعتراني شعور غريب بينما كنّا نسير عبر مرأب انتظار المطار إلى سيّارة السيّدة «بي»؛ ذلك الشعور عندما تكون قد عشتَ لحظة مؤثِّرة وحميمية مع مجموعة من الأشخاص دون أن تكون مستعدًا للانفصال عنهم، حيث تزداد حساسيّتك لكلّ ما حولك -إن صحّ القَول-، ويصبح كلّ شيء شديد البرودة، أو شديد الحرارة، أو متعِبًا للغاية، أو محبِطًا للغاية، أو مضحكًا للغاية، كأنّنا فقدنا جميع المرشّحات والحواجز، والوسائد والمخازن المؤقّتة، وصرنا مجرد مشاعر مباشرة، دون ضوابط.

ولم يساعدني أنّني لم أستطِع التوقّف عن النّظر إلى ساعتي، حتى عندما كنّا نضع أمتعتنا في السيارة، رأيتُ الجميع يفعلون الشيء نفسه، على الرغم من أننا حاولنا جميعًا افتعال ذلك خِفيةً. ألقينا نظرات خاطفة على شاشات هواتفنا، وكأننا نتحقّق من وجود رسالة أو تنبيه أو أيّ شيء آخر، لكن كلّنا كنا نراقب الشيء ذاته؛ مقدار الوقت المتبقّي لـكيو، ولم أكن لأخبر القرّاء، لأنني لم أشأ أن يكون هذا هو محور التركيز، لكنني أعرف أنّه الموضوع الذي يفكّر به الجميع مضطربين.

لذا أقولُ من أجل متعة العدّ التّنازلي:

نحن على بُعْد ساعتين من نافذة رحيل كيو التي تبلغ أربع ساعات.

هل يُرضيكم هذا؟

8

حشرنا آخرَ حقيبة في سيّارة السيّدة «بي»، وأغلقنا الصندوق الخلفيّ. وكان السّؤال الذي تجنّبناه جميعًا، مُراوِغين، باذلين قصارى جهدنا لئلّا نُجفلَه ونمشي على رؤوس الأصابع، ولكن كان علينا معالجتُه.

رأى كيو هذا.

مكتبة ياسمين

- وإذًا، ألن تسألوني يا رفاق أين أريد أن أكون عندما تحين ساعتي؟

وسادَ الصّمتُ في السّيارة.

ضحك كيو:

- يا رفاق، هذا سيحدث. أعني، إنّه أصلُ هذا الأمر برمّته، صحيح؟

وقد كان على حق، لذلك حاولتُ أن أكون شجاعًا:

- أين تريد أن تكون إذًا حين...؟

لم يتردّد كيو؛ أجاب على الفور، كما لو أنّه كان ينتظر الإجابة على هذا السّؤال طيلة حياته. ولعلّه قد فعل.. طيلة حياته الثانية.

سألَت السيّدة «بي» من مقعد السائق:

- هل أنت متأكّد؟ أليس هذا نوعًا ما...

- قالت ويت:

مازوشيّ!

- أعتقد أنه مناسب (أومأ كيو) دائرة الحياة وإلى ما هنالك.

هزّت السيّدة «بي» رأسها:

- حسنًا، هذا قرارك يا كوينسي، وسنساندك مهما يكن ما تريده يا حبيبي.

تبادلا الابتسامات من خلال مرآة الرؤية الخلفيّة.

قال:

- شكرًا ماما.

اقترحَت أوتوم:

- ربّما ينبغي لنا الذّهاب إلى هناك مباشرة، صحيح؟ لاستغلال الوقت.

وافقنا جميعًا.

وقد حزِرتُم المكان.

قضينا السّاعات الأربعة الأخيرة من حياة كوينسي مايكل بارانتيس في.... الشاطئ، مما كان مُريبًا بصراحة... لكنها كانت جنازته. اللعنة! كان ذلك فظيعًا!

حسنًا، الشخص الوحيد الذي يحقّ له إلقاء الدعابات حول وفاة كيو هو كيو.

مكتبة ياسمين

بدأت السيّدة بارانتيس تدمع قبل أن نصل إلى الرّمال، قالت: «أنا لا أبكي، أعتقد أنني أعاني من حساسيّة تجاه شيء ما هنا».

ضحك كيو: «تجاه الرمل؟ أم الماء؟»، وعانقها. عندما بدآ في المشي بجانب الماء، تراجعنا أنا وويت، وأوتوم.

لكن البكاء مرضٌ مُعدٍ على ما يبدو، لأنّ ويت انفجرَت باكيةً. ولحقتُها أنا، ثم انضمّت أوتوم إلى المرح. وأقسم أنّ المرء لا يعيش قبل أن يحضر حفلةَ بكاء تعِس.

عندما عاد كيو، رمقنا بنظراته، مثل رقيب تدريبٍ عسكريّ يفحص طلابه:

- يا للخزي! من المفترض أن تكون هذه حفلة، هل تذكرون؟ هذا مثير للشفقة! حسّنوا أداءكم. تماسكوا، هل تسمعونني؟

- نعم، سيّدي (قلنا رافعين أيدينا إلى جباهنا في تحيّةٍ).

- الآن، فلنشغّل الموسيقى، ولنُجرِ مسابقة رقص سيّئ. التفَت إليَّ: لا تقلق، لن أجعلك تبدأ، لأنك ستدمرنا جميعًا.

دفعتُه بعيدًا:

- لا يمكنني الرقص بشكل قبيح حتى لو حاولتُ.

- ها! (بأصابع قدميه، رسم كيو خطًّا في الرمال) حسنًا، فلنبدأ يا صديقي.

بدأت الموسيقى، وكنا بالكاد قد اندمجنا في معركتنا حين سبقني كيو بفارقٍ كبير، لأنّ رقصه العاديّ سيّئ بالفعل، وكان قد بدأ السباق عند خطّ النهايةِ عمليًّا، لكن مهما يكن، وعندها رأيتُ شخصًا يسير نحونا أوّلَ الشاطئ.

توقفتُ عن الرّقص، فرمقني كيو بنظرة. أومأت برأسي، واستدار.

- بري (قال بهدوء، ثم بصوت عالٍ): بري!

اجتاز الشاطئ بلحظة، وتعانقا وهو يرفعها عن الأرض، وأفهم ما قاله كيو، أننا مثيرون للشفقة، وأن هذه حفلة. لكن لصبر القلبِ حدود. وكان الأمر مستحيل الحدوث، لكنني شعرتُ أنّ أحدًا قد أرسل بري لتُحيي حفلتنا. في غضون ثوانٍ من استئناف الموسيقى، توضّح أنّ هذه ليست أول بطولة رقص سيّئ لها، بل كانت محترفة بين الهواة. ما كان ليفاجئني على الإطلاق خبرُ أنها محتالةُ رقص سيّئ تتجوّل من مدينة إلى أخرى، ومن بلدة إلى بلدة، وتستدرج الغافلين لتحدّيها في مبارزة الرّقص، وتخدعهم لزيادة رهاناتهم،

مكتبة ياسمين

حتى تهزمهم برقصٍ أسوأ. في الشارع المغبرّ، والعمدة، وسكّان البلدة، ينظرون بلا حول ولا قوّة: أيّ أنّ رقصة بري السيّئة غلبتنا جميعًا، وتُوِّجَت بطلة الرقص السيّئ... في شاطئ إليتاون. ظلّ كيو يناديها ملِكَته الرّاقصة، مما كان دليلًا آخر على أنّه وُلِد في القرن الخطأ، لكن من أنا لأقول ما أقول؟

تناوبنا جميعًا على قضاء بضع دقائق بمفردنا مع كيو، وكنتُ أتوتّر بصراحة كلّما مشى مع شخص ما مبتعدًا، وأخاف من أننا لن نتحدّث قبل أن يرحل، ولكن بعد ذلك بخمس وأربعين دقيقة تقريبًا، طلب منّي كيو أن أتبعه إلى الشاطئ.

قالت السيّدة بارانتيس:

- لا تذهبا بعيدًا، أو تتأخّرا.

هزّ كيو رأسه:

- سنكون قريبَين، وسنعود حالًا. عليَّ أن أحادِث صديقي قليلًا.

سرنا تقريبًا ثلاثين مترًا تجاه الماء وتوقّفنا، وظهرنا للجميع. كانت الأمواج موحلةً أقلّ مما كانت عندما وصلنا، وانخفضت الشّمس في السّماء.

قلتُ:

- نكاد نقترب.

- هاها، أنت تعرف أنني أحبّ أن أتمهّل، وأفعل الأشياء كما ينبغي.

ابتسمتُ:

- أعرف هذا، نعم. من بين أشياء أخرى كثيرة أعرفها عنك. بعضها كنت أتمنّى لو لم أكُن أعرفه!

ضحك كيو:

- هذا يقلقني بصراحة. سجلّك ليس الأفضل فيما يتعلّق بحِفظ الأسرار مؤخّرًا.

- واو! (قلتُ، وأنا أغطّي فمي بيدي، في انذهالٍ مبالغٍ فيه) هل قلت ذلك للتوّ فعلًا؟ رائع. لقد تماديت لهذه الدرجة.

هزّ كيو كتفيه، وهو لا يزال يضحك، ولم يسعني إلا أن أشارك.

مكتبة ياسمين

- اسمع، لقد كتبتُ خطابًا كاملًا الليلة الماضية. أردت أن أكون ذكيًّا ولمّاحًا عندما نتحدّث. أردت أن تكون كلماتي الأخيرة الخاصّة معك من النّوع الذي يظلّ معك إلى الأبد، لكن...

- كلّ شيء يخصّك سيبقى معي إلى الأبد يا كيو.

أرغم نفسَه على التبسُّم، لكن وجهه صار أثقل الآن:

- سأرتجل وحسب، إن كنت لا تمانع، اتفقنا؟

انتظر أن أومئ برأسي موافقًا قبل أن يتابع:

- تعرف كيف تقضي معظم وقتك في تجميع الأشياء التي تريد فعلها يومًا ما في عقلك؟ كيف تنتقل من فكرة رائعة إلى أخرى دون حتى أن تبدأ، أو على الأقلّ أن تنتهي من الفكرة الأولى، لأنك تقول لنفسك: «لمَ لا إن كنتُ سأعود إليها في النهاية؟». حسنًا، لا تفعل ذلك بعد الآن. لا تنتظر أن تأتي تلك الأيام إليك يا جمال. اجعل تلك الأيام تحدث، لأنه كما اتّضح، لا نملك مقدارًا هائلًا من الوقت، بل نحصل على كميّة محدودة فقط. لا تضيّعها بالحزن أو الغضب أو الإحباط. لا تضيّعها بالندم. لا تضيّع ثانيةً. عِش كلّ يوم كما لو كانت ساعاتك الأربع الأخيرة. عِش كلّ ساعة مُثمِّنًا كلّ ثانية. والأهم من ذلك كلّه، لا تخَف من أن تكون أنت يا جمال، لأنك رائع، بغض النظر عمّا يقوله الآخرون. أنت الأروع يا رجل، والعالم بأكمله بين يديك، لذا، عِش على هذا الأساس، حسنًا؟ عِش على هذا الأساس!

وأومأتُ كأنّ رأسي يحترق، وقلتُ:

- أنت تعرف أنني أحبّك، أليس كذلك؟

- بلى، لكن من الجيّد دائمًا سماعك تقولها.

- آسف، لأنّني لم أسبح بشكلٍ أفضل، لأنّني لم أنقذك.

- ماذا؟ كفاكَ (لكمَني في صدري) أنا آسف، لأنني وضعتك في ذلك الموقف.

- كنت تحاول أن تؤدّي عملًا بطوليًّا وحسب.

- ها! من كان ليخمّن كوينسي مايكل بارانتيس بطلًا؟

- أنت (قلتُ، ووضعتُ إصبعي على صدره) بطلٌ بالطبع.

مكتبة ياسمين

ضجّ حشدٌ من طيور النورس آخرَ الشاطئ، وركض أمامنا كلبٌ، ومن خلفه امرأة ترتدي سروالًا قصيرًا، وقبعة بيسبول، ومِقودًا أسود ملفوفًا حول يدها. لوّحَت لنا، وهي تقترب منّا.

- تذكّر عندما حاولتَ إقناعي بأنّ اسمي الأوسط يُلفظ «ميشيل»؟ أقسمتَ أن والدتي قد أرَتك شهادة ميلادي، وأنه كان هناك علامةٌ على حرف الألف[1].

- ماذا تقصد بقولك إنّني حاولت إقناعك؟ لقد أقنعتُك طبعًا. السّبب الوحيد الذي دعاني لإخبارك بالحقيقة، هو أنّك قلت إنك لن تعيد لي الملصق المعتمد رسميًّا وراء الكواليس لفرقة «مايتي موت»: الجولة الأولى الأخيرة.

- لقد كنت مهووسًا بذلك الملصق.

- وقفت في الطابور مدّة سبع ساعات من أجله. وقد وقّعه كلّ فرد في الفرقة، لذا فإن مجرّد حقيقة أنني سمحت لك باستعارته تُظهر مدى ثقتي بك.

- هذا صحيح. لم تدع بريندا ويليامز تمسكه، وقد عرضَت أن تقبّلَك.

قلتُ واضعًا يدي على كتفه، التي دائمًا ما تكون أعلى بكثير مما تبدو عليه، وأضغط عليها:

- كيو، سأفضّلك دائمًا على بريندا ويليامز...

- شكرًا يا جاي.

- ولكن ليس أكثر من الملصق الرسميّ المعتمد وراء الكواليس لفرقة «مايتي موت»: الجولة الأولى الأخيرة.

- هذا عديم الإحساس بحقّ، يا رجل. ضحك كيو، وهو يحكّ ذقنه، وكأنه يقلّب الأمر في ذهنه: ولكنني أحترم الصدق بالمقابل، فشكرًا لواقعيّتك.

وتعانقنا، وليس عناق الإخوّة غير الآبِه وغير المبالي الذي نفعله عادةً، بل عناقًا كاملًا بأذرعٍ ملفوفة، وصدرٍ متعرّق إلى صدرٍ متعرّق، حتى كدنا نقع

---

(1) Michael: تُلفظ مايكل.
Michelle: تُلفظ ميشيل.

مكتبة ياسمين

على الرّمل. ويا إلهي كم كان رائعًا! ويا الله! لم أشأ أن أتركه، لكن أعتقد أنّ هذا فحوى الأمر؛ كلّ شيء ينتهي في لحظةٍ ما.

أرخى كيو ذراعيه، وتراجع:

- اعتنِ بفتياتنا، اتفقنا؟ وبأختك الرائعة. وبابن أختك، الذي آمل ألا يشبهك بشيء. والأهم من ذلك كلّه، بأمّي، لسببين؛ الأوّل أنني متحيّز، والثاني أنها ستحتاجك. سوف تحتاج إليك، وعليك أن تكون حاضرًا. هل تسمعني؟

- أنا أسمعك، وسوف أفعل -ابتسمتُ- خاصةً والدتك. سأتأكّد من أن تكون آمنة تمامًا، إن كنت تعرف قصدي.

دفعتُ حوضي نحو الأمام عدّة مرات في حال لم يكن قد عرف قصدي.

تململ كيو:

- بجديّة يا رجل؟ أمي؟ هذا شنيع وحسب!

- حقًّا؟ بهذا السوء؟

- نعم، وظننتُ أننا اتفقنا على أنك اكتفيت من تمثيليّة الأمير ساحر النّساء!

- صدّقني، يومًا ما ستجعل شخصًا ما يضحك.

ابتسم كيو ابتسامته المميّزة، تلك التي تضيء الغرف منذ سبعة عشر عامًا:

- ما كنتُ لأعقد عزمي على ذلك.

- أوه! بمناسبة الحديث عن العزم... تنحنحتُ، وأومأتُ نحو الأمواج، وانتشرَت في الأفق مجموعةٌ من قوارب الصيد الصغيرة: هل تريد أن تلعب جولةً أخيرةً من لعبة الرّحمة؟

حكّ كيو رأسه:

- هل تريد حقًّا أن يكون آخر شيء تتذكّره عنّي هو هزيمتي المبرّحة لك للمرّة المليون؟

- أشعر أن سحرًا سيحضر الليلة.

ضحك كيو:

- هذا ما تقوله دائمًا، تمامًا قبل أن تخسر.

- حسنًا، رئتاك أكبر، وهذه أفضليّة وراثيّة.

مكتبة ياسمين

ابتسم كيو:

- أستخدم ما أملكه، يا صغير. كما أنّك تملك خدود سنجاب ضخمة، يُفترض أن تكون قادرًا على حبس أربعة أضعاف كمية الهواء التي أحبسها!

أَمسك خدّي، وصفعتُ يده بعيدًا، ابتسمتُ:

- نعم، حسنًا، سأحطّم الرّقم القياسيّ هذه المرّة.
- جيّد، ولا تفكّر حتى في السماح لي بالفوز. أريد أن تأتي كلمة فاشل النهائيّة التي سأقولها لك بعد خسارة لا يمكن إنكارها.
- أيًّا كان.
- كما أنّك تحبّ التأفّف كما تعلم. لا أريدك أن تظنّ أنك كنت تستطيع الفوز لو أردت ذلك.
- دعكَ من هذا الهراء. لطالما كنت هكذا يا رجل. كنت أفوز سبعًا وأربعين مرةً على التوالي، ولكن حالَما تفوز أخيرًا، لا تعود ترغب في اللعب مرةً أخرى إطلاقًا. كانت بالكاد تنتهي اللعبة حين تذهب بمؤخّرتك السّعيدة خارجًا من ممرّ منزلي، وعائدًا إلى منزلك. تذكر أنك ذات مرّة هزمتني أخيرًا في لعبة «غُزاة ومحاربون» (الجزء الثاني)، وكنت خائفًا جدًّا من أنك لن تفوز يومًا مرّة أخرى لدرجة أنك كسرت قبضة التحكم الخاصّة بك؟

ضحك كلانا بشدّة.

رفع يده ليعرض عليَّ مصافحةً عاليةً، وقابلتُها بضربة من كفّي بسعادة قائلًا:

- هيه، حتى عندها كنت أعرف أنه يجب أن نخرج ونحن في المقدّمة دائمًا.

* * *

ومثل كلّ نوافذ الأربع ساعات، حيث يخبرونك أنهم سيتسلّمونه بين الساعة العاشرة والثانية، وأنهم سيتّصلون بك عندما يكونون في طريقهم، لكن بالطبع، لا يتّصلون أبدًا. ودون شكّ، يصلون دائمًا في السّاعة 1:59.

هذه المرّة كنت ممتنًّا لكونها في اللحظة الأخيرة.

غريزيًا، أمسكتُ بيد كيو، وأمسكَت السيّدة بارانتيس يده الأخرى.

مكتبة ياسمين

أمسكَت ويت يدي، وأمسكَت أوتوم يدها، وأغلقَت بري دائرتنا. بقينا هكذا حتى...

- وإذًا، هل يمكنني أن أقول إنّ كوني سأموت في غضون دقائق قليلة يُغضبني؟

أومأت برأسي:

- أنا متأكّد من أنّه باستطاعتك أن تقول مهما يكن ما تريد قولَه يا كيو.

- حسنًا، رائع. سأختصِر.

قفز كيو إلى منتصف دائرتنا، وأزال الرمل عن مؤخّرته:

- ستعتقدون أنني مجنون يا رفاق، لكن لا تضحكوا، اتفقنا؟ لأنّ هذا حقيقيّ.

- عزيزي، لا أقصد أن أستعجلَك، ولكن...

أومأت السيّدة بارانتيس إيماءة الموجة الدائريّة بيَدٍ مفتوحة، التي مفادها المطالبة بفحوى الموضوع.

- صحيح، صحيح، أعتذر، لكن أولًا، يجب أن تعِدوني جميعًا بألّا تضحكوا.

- يا إلهي يا كيو، من يُبالي إذا ضحكنا يا رجل؟ (تململتُ)

وافقَت بري:

- صحيح، فكلّ ما تقوله مضحك نوعًا ما، لذلك هذا طلبٌ صعب.

- اللعنة، لن تحاولوا حتى تلبية الطّلب الأخير لرجل يحتضر؟!

- حسنًا، حسنًا، نقسم أننا لن نضحك (قلنا جميعًا في ما كاد يكون انسجامًا).

ضحكنا جميعًا، وكان كيو أكثر من ضحك.

- حسنًا، هذا ما يُغضبني! (هزّ رأسه في اشمئزاز) إنني لن أكون جَدًّا. ذلك الجدُّ الذي يختلق القصص والتّعبيرات التي تبدو حكيمة ومستنيرة حقًّا، على الرّغم من أنّه في معظم الأوقات لا يُعرف ما تعنيه؟ أقصد، أريد ذلك بشدّة، ولن تفهموا الأمر. لطالما تخيّلتُ أحفادي، وهم يقولون لأصدقائهم، لمعلميهم، لمنسّقي أزيائهم: «اعتاد جدي أن يقول»، لكن لا، لن يحدث ذلك، وهذا بالتّأكيد تحت قائمة ما يغضبني.

مكتبة ياسمين

عاد كيو ليجلس في مكانه بين بري ووالدته، لذا كان في قبالتي مباشرة.

التزمنا الصّمت للحظة بينما حلّقت طائرة.

قلتُ:

- سأحرص على أن يعرف أطفالي كلّ الأشياء الحكيمة والمضحكة التي قلتَها. وربّما لن يتجولوا قائلين: «قال جدي»، لكن هل تقبَل «عمّي» أو، لا أعرف، ربّما «أقرب صديق لوالدي، الذي كان بالمصادفة الشخص الأكثر سحرًا ومرحًا وروعة من بين كلٍّ من قابَلَهم»؟

ضحك كيو:

- اللعنة! قد لا يملك ذلك ذات الجَرْس الذي يحملها «قال جدي»، لكنني أشعر أنها قد تَفي بالغرض.

- أنا معك يا رجل.

ضرَبنا قبضات أيدينا ببعضها بعضًا هاتفين:

- كلّنا معك.

- وأنا معكم.. دائمًا.

7

اسمعوا، لن أواصل تنسيق الألاعيب.

إن كنتم هنا من أجل الحديث حول الموت، فسيخيب ظنّكم، لأنّ ثمّة أشياء في الحياة (وفي الموت) لا ينبغي مشاركتها. وبعد كلّ ما حدث، فكيو يستحقّ بعض الخصوصيّة أخيرًا. مع ذلك، فأنا لست وحشًا، وأتفهّم أننا جميعًا بحاجة إلى كُلّ الختام الذي قد نحصل عليه، لذلك فلنكتفِ بالتّالي:

عند السابعة وسبع دقائق، محاطًا بأصدقائه وعائلته، خرج كيو كونيًّا من هذا العالم إلى غياهب المجهول. قلتُ «كونيًّا»، لأنّ أولئك الذين يعرفون كيو جيّدًا يعرفون أنّه دائمًا آخر شخص يغادر الحفلة.

«أنا أكره فكرة أن يفوتني شيءٌ ما!»، اعتاد أن يقول.

وثِقوا بي، حتى الموت لا يمكن أن يُغيِّر كيو.

مكتبة ياسمين

6

سألتُ السيّدة «بي»: «هل تريدينني أن أتّصل بالسيّد أوكلاهوما؟».

لم أكن أعرف كيف سأشعر، كيف سأكون عندما يحدث الأمر بالفعل. الآن بعد أن حدث، شعرتُ بهدوء مفاجئ، وبدَا أن تلك حال السيّدة «بي» أيضًا. كأنّك لم ترتطم بالأرض بعد.

أومأت برأسها.

أجريتُ المكالمة.

رفع كيو عن بطانيّة الشاطئ رجلان يرتديان بذلَتَي مركزٍ سوداوين. سِرنا معهما، وهما ينقلانه. شاهدناهما يُنزلانه إلى صندوقه الأبديّ.

وقف السيّد أوكلاهوما والسيّدة «بي» جانبًا، وتحدّثا خِفيةً، حتى ربَّت على ذراعها في النهاية برفقٍ، وابتسمَ ابتسامةً حزينةً. وكنتُ أعرف أنه أمر غريب أن تراودني هذه الأفكار الآن، لكنني تساءلتُ إن كانوا يسمعون الموسيقى أثناء أخذهم لشخصٍ من بين مُحبّيه؟

هل هم تقليديّون، ويستمعون إلى أيّ شيء عشوائي على الراديو؟

هل لديهم تطبيق موسيقى؟

وإذا كان لديهم واحدٌ، فهل لديهم قائمة أغانٍ مفضّلة؟

هل يمتلك السيّد أوكلاهوما مجموعةً خاصّةً يسمعها في آخر يومٍ لشخص ما؟

هل يُعِدُّ قائمة أغانٍ لكلِّ حالة ولكلِّ شخص؟

ما الأغاني التي قد يختارها لـكيو؟

- جمال...

قال وهو يمشي نحوي. توقّعتُ لوهلةٍ أن يضع يده على كتفي، ويقول شيئًا بالغًا مثل: «هيه، سيكون كلّ شيء على ما يرام. ستتجاوز هذا الأسى، إلّا أن وجهه بدأ بإصدار صوت غريب و...».

سألتُه:

- هل تبكي؟ أنت تبكي!

- لا. ثمّة شيءٌ ما في عيني (قال وهو يُشيح بنظره).

مكتبة ياسمين

هزّ السيّد أوكلاهوما رأسه، وخلع نظّارته، ومسح خدّيه.

- تُدعى هذه دموعًا يا صديقي. أهلًا بك في كوكب الأرض. قد تُحبُّ الوضع هنا مع الوقت.

ضحِك قائلًا:

- سررتُ بلقائك يا جمال. لعلّنا نتقابل مرّة أخرى.

- آمل أن يكون اللقاء قريبًا جدًّا، وفي ظلّ ظروف مختلفة كليًّا.

- أوافق (قال ومال برأسه، ثم مشى إلى جانب الشاحنة).

- مهلًا، انتظر. (ناديتُه.. رفعتُ كلتا يديّ، كأنّني أوجّه حركة المرور) لديّ سؤالٌ عليَّ أن أطرحه عليك، وأريدك أن تخبرني بالحقيقة.. الحقيقة الفعليّة.

لم يهز رأسه، أو يتجهّم، أو يتحرك، وظلّ وجهه على حالته الطبيعيّة المحايدة. كان ينتظر منّي أن أتحدّث، لكنني حدّقتُ إليه لفترة طويلة، راغبًا في أن يفهم مدى أهميّة اللحظة التالية بالنسبة لي.

- لماذا تفعل هذا؟ ورجاءً، لا ترمِ لي بالمزيد من خطاباتك حول تحطيم أحجار دومينو الموت. كلانا يعلم أنه ما من علاج للموت، ليس حقيقةً. لماذا تفعل أيًا من هذا إذًا؟

رفع نظّارته، ومال برأسه:

- لأنه من الصعب التخلّي عمّن نحبّهم، حتى عندما نعرف أنّ ذلك سيحصل.

- سأجعلك تخاطبني مباشرةً يومًا ما.

ابتسم، وفتح باب الشاحنة. وهمهم محرّك الباب مُستعدًّا لينغلق، ولكن بينما كان لا يزال هناك ما يكفي من ضوء النهار لأمدّ ذراعي، وألمس كتفه، أمسكتُ يده، وقلتُ: «اعتنِ بنفسك».

إلى كيو: اعتنِ بنفسك.

إلى السيّدة بي: اعتني بنفسك.

إلى السيّد أوكلاهوما: اعتنِ بنفسك.

إلينا جميعًا: من فضلكم، اعتنوا بأنفسكم.

مكتبة ياسمين

من مقعد الرّاكب الأماميّ، أعطانا تلويحة صغيرة، من النّوع الذي تظلّ فيه ذراعك مشدودة على جسمك، في حين أنك ربّما لا تريد أن تقول وداعًا، وحتى عندما صارت الشاحنة بعد مسافة طويلة على الطريق بحيث بدَت وكأنّها لعبة، حتى بعد انعطافها في طريق آخر بحيث صار يستحيل علينا رؤيتها، فقد بقينا واقفين في أماكننا.. لم يزحزحنا شيء.

5

وأخمّن أنّ القصّة أخلاقيّة، وهي:

قد نموت، ونواصل العيش.

قد يستنزفنا الموت، ونحن أحياء.

الفرق بين الحياة والعيش هو:

كلّ شيء.

4

سِرنا مع بري إلى سيارتها. أكّدت هي وأوتوم خططهما للقاء نهاية ذلك الأسبوع.

قالت لها السيّدة «بي»:

- مُرحَّبٌ بك في أيّ وقت.

- هل تمانعين العناق؟ (سألتُها، فأجابت بعناق).

مسحَت أنفها بأكمامها قائلةً:

- لقد التقينا للتوّ، لكنني أشعر أنه مُقدَّرٌ أن نعرف بعضنا بعضًا. كأنّ سببًا جمعنا معًا.

ولم أعرف إن كان هذا صحيحًا.. إن كان ثمّة هدف كبير وراء كلّ هذا. بصراحة، أشكّ في ذلك، لكنه لا يغيّر ما حدث، ولا يجعل رحلة الأيام القليلة الماضية أقلّ واقعيّة.

«اعتني بنفسك»، قلتُ وهي تغلق بابها، وتشغل المحرك.

مكتبة ياسمين

اصطحبنا السيّدة «بي» إلى منزلها، لأنها أرادت أن تبقى بمفردها لبعض الوقت، بعد أن سألَت إن كان هذا مناسبًا للجميع.

أسندتُ مقعدي لأقصى الخلف، وفتحتُ غطاء السّقف المتحرّك. فوقنا كانت النجوم تخِزّ الليل، ثم سِرنا أسرع، ولم تعد الأجرام السماويّة المتوهّجة مثاليّة؛ بل شرائط ملوّنةً ترفرف وتحترق.

ماذا لو أصبحنا نجومًا عندما نموت؟

سيكون من السّهل تحديد كيو؛ الألمع والأسطع.

أطرَفُ نجمٍ رأتهُ الكوكبة على الإطلاق.

بحثتُ عنه هناك.

ثم أغمضتُ عيني.

احتضنتني أوتوم عند ممرّ سيّارات منزليّ.

قالت:

- رحَل مغمورًا بالحبّ، هذا يعني الكثير.

- أحبّك يا أوتوم، وهذا يعني كلّ شيء.

قبّلتني مطوّلًا وبشدّة، قبل أن تدخل سيّارتها، وكانت جدّتها تتصل لتدعوها للقدوم إلى المنزل لتناول العشاء.

من المضحك كيف تستمرّ الحياة، يا رفاق! تستمرّ ببساطة مثيرة للسخرية.

اخترتُ مقطع فيديو من هاتفي، وبثثتُه إلى التلفاز.

سألَت أوتوم:

- ماذا تفعل؟

- أعتقد أنه علينا إعادة ضبط ذاكرتنا.

جلست على الأريكة بجانبي، ولفّت ذراعها حولي. ضغطتُ زرّ التشغيل، وتركتُ المقطع يغمرنا.. فليغمرونا، كما الأمواج.

- أندريه، أندريه، أنت كبير جدًّا بالنسبة لهذا الشيء! ألَم تقُل إنّ هذا للأطفال!

صاحَت أمّي عبر الفناء، وعيناها نصف مغمضتين في ضوء الشمس السّاطعة. كانت واقفةً على المصطبة الخلفيّة. كنتُ قد نسيت أنّها كانت

مكتبة ياسمين

حمراء. تململ أبي طوال الوقت وهو يدهنها. أنا لا أفهم وحسب، مصطبة حمراء يا جيدا؟ حتى انتهى من دهنه، ووقف هو وأمي وأنا وويت بعيدًا عن المنزل، ووضع أبي ذراعه حول كتفَيْ أمي وضغط عليهما، وقالت:

- لن أقول حتى أنني أخبرتك بذلك.

ردّ أبي صياحًا:

- حبيبتي، هل تعتقدين أنني سأترك ولدَيْنا يدخلون هذا الشيء دون أن أتأكّد أوّلًا من أنه آمن؟

- أندريه!

لكن الأوان كان قد فات. «كرة المدفع!»، حاول أبي ثني ركبتيه، لكنه انزلق وغاص ووجهه في المقدّمة، متجهًا إلى الكرات الحمراء والصفراء والزرقاء والخضراء. غرق كليًّا على الفور. إلا أنّ يده انبثقَت عبر السطح الكرويّ البلاستيكيّ، وسمعنا صوتًا متقطّعًا: «أنا بخير. لا تطلبوا الإسعاف... حاليًا».

وهزّت أمّي رأسها، إلا أنها كانت تضحك.. كانت تضحك بشدة، وكذلك أنا، و... كيو. كنّا نبلغ من العمر اثني عشر عامًا، دون قمصان، وسراويل السّباحة التي تتدلّى من بطنَيْنا والمتخبّطة على لعبة المِزلقة المائيّة التي أحضرتها السيدة بارانتيس. أتت ويت والسيّدة بارانتيس، وهما تركضان عبر باب الفناء المنزلق.

«ما الذي يحدث هنا؟»، سألَت السيّدة بارانتيس.

وكلنا أشرنا إلى المنزل النطّاط وحسب، لأننا كنّا نضحك بشدّة حتى صار الكلام صعبًا للغاية. كان كيو أكثر من ضحك، مما فسّر الاهتزاز القاسي.

- هيه، جاي..

قال كيو بصوتٍ رقيق للغاية وحادٍّ بالفعل.

مددتُ يدي لألمسه، وقرصَت يدي صدره الصغير، لكنه لم يلاحظ، فقد كان مشغولًا جدًّا بتصويري.

- نعم (قال جمال الصغير مستديرًا نحوه).

قرّب كيو الكادر من وجهي ببطء:

- ماذا ستتمنّى؟

- لا أستطيع أن أخبرك يا رجل. هل تحاول تخريب أمنيّتي مثلًا؟

مكتبة ياسمين

ضحك كيو أكثر:

- إطلاقًا.

- عيد ميلاد سعيد يا كيو.

- عيد ميلاد سعيد يا جاي.

- أصدقاء إلى الأبد.

- وما بعد الأبد.

لأنه بالنسبة لنا، كان الأبد يعني شيئًا مختلفًا.

لأننا احتفظنا بالأبد في صدرَيْنا الصغيرين، شعرنا بها في زغب شعرنا المراهق.

كنّا مسافرين عبر الزمن، كما ترَون.

عرفنا المستقبل.

ما كان ثمّة مفاجآت.

رأينا كلّ شيء قبل أن يحصل.

مكتبة ياسمين

14 يومًا بعد إعادة الإحياء

مكتبة ياسمين

3

كنا أنا وويت على الشّرفة عندما حدث ذلك.

انكمش وجهها ألمًا، قالت:

- يا إلهي يا جمال!

- ما الأمر؟

- جمال!

- أخبريني ما الذي يجري.

- علينا الذهاب إلى المستشفى يا جمال. علينا الذهاب الآن!

أمسكتُ بأكياس المبيت الجاهزة عند الباب الأماميّ:

- هل يمكنك المشي؟ هل يمكنك الوصول إلى السيارة؟

صرّت بأسنانها، وأومأَت برأسها بالإيجاب.

- سأجلب السيارة!

مشيتُ بالسيّارة عبر العشب نحو أقرب ما استطعت من الباب الأماميّ، لكن ويت لم تتحرّك. ارتعش جسدها كلّه، واستحال وجهها إلى عقدة شديدة من الألم.

- ويت ما خطبُك؟ هل أنت بخير؟ ماذا يحدث؟ ويت! ويت!

رأيتُ وجهها يرتاح قليلًا فقط:

- سألِدُ طفلًا يا جمال. هذا ما يحدث!

ساعدتُها لتدخل إلى السيارة، ومشيتُ بها في الاتجاه المعاكس، ثم انطلقتُ إلى نهاية الشارع. وأضاءَت كلّ إشارات المرور في الطريق إلى المستشفى، كلّها بالأخضر اللامع؛ ما كان ليوقفنا أيّ شيء. ركنتُ السيّارة أقرب ما يمكن من مدخل قسم التوليد. كنتُ واثقًا من أننا في ممرّ الطوارئ، لكنني حاولتُ التركيز على الأولويّات.

ألقيتُ نظرةً على ويت:

- هل تظنّين أنه بإمكانك المشي؟

هزّت رأسها:

مكتبة ياسمين

- أستطيع المشي.

قفزتُ خارج السيارة، وركضتُ إلى جانبِها، وحدث عندها تمامًا انكماش آخر؛ تأوّهَت، ساحِقةً يدي في يدها بقوّة مفاجئة مثل الرّجل الأخضر[1]. كبَتُّ صرخة. انتظرنا أن يهدأ ألمها ثم وقفت على قدميها بتأنٍّ. اتّجهَت يدها على الفور إلى ظهرها، والأخرى إلى بطنها، في وضعيّة الحمل الشهيرة.

- أنتِ تؤدّين عملًا رائعًا يا ويت!

- لا تكذب عليَّ.

- ما كنتُ لأفعل.

- أنا سعيدة حقًّا، لأنّك هنا.

إلّا أنّ الطريقة التي قالت ذلك بها أوحَت بأنها حذفَت «**ما زلتَ**». أنا سعيدة، لأنك **ما زلت هنا**. وهي أحد الآثار الجانبيّة للفقدان المتكرّر.

- ماذا؟ هل ظننتِ أنني قد أفوِّت هذا عليَّ؟!

مشينا بضع خطوات، ولكن التشنّجات عادَت، فمالَت إليَّ ووجهها أشبه بقبضة مشدودة:

- أعتقد أنني قد أحتاج إلى كرسي متحرّك.

- حقًّا؟ حسنًا، بالتأكيد. لا مشكلة.

إلّا أنّه ما كان من كراسي متحرّكة في الأفق، أو بضعة منها عند المدخل الرئيسيّ، لكن لم أكن أستطيع أن أتركها وضوحًا.

انفتح الباب الزجاجيّ، واتّجه كرسي متحرّك نحونا. كان صريره صارخًا، لكنه كان أفضل ما حصل طوال اليوم. حسنًا، ثاني أفضل ما حصل. والأوّل هو الشخص الذي كان يجره.

- هيّا يا ويت، اجلسي (قالت السيّدة بارانتيس، وهي تضغط المكابح).

- يا إلهي! أنا سعيدة جدًّا برؤيتك

قالت ويت، ونحن نساعدها على الجلوس، رافِعةً قدميها على قواعد القدم اللامعة، وأضافت: أعتقد أن الطفل قادم الآن، سيّدة بي.

- لماذا عدتِ إلى العمل بهذه السرعة؟ سألْتُها وأنا أفتح الفرامل.

---

(1) Hulk (هالك) أحد أبطال عالم مارفل.

مكتبة ياسمين

دارَت السيدة بارانتيس حول الكرسي:

- أحاول أن أشغل نفسي وحسب -ضحكَت- كما أنني عندما أبقى في المنزل، يعتقد شخصٌ معيّن أنه عليه مرافقتي طوال اليوم.

هززتُ كتفي:

- لا يعتقد أنه عليه ذلك، بل يرغب بفعله وحسب.

ركضتُ لأسبقهما، وفتحتُ الباب الزجاجيّ وأسندتُه، وأبعدتُ قدمي عن الطريق، وهي توجِّه ويت نحو الداخل. صفعَت السيّدة بارانتيس زرّ المصعد. تأوّهت ويت، ويداها تضغطان على مقابض الكرسي، وظهرها مقوَّس قليلًا.

انفتحت الأبواب، ودخلنا المصعد.

- ويت، أعرف أنّ هذا صعب يا عزيزتي، لكن حاولي ألا تدفعي، اتفقنا؟ كدنا نصل إلى قسم فرز المرضى. تشبّثي، تبلين بلاءً حسنًا يا ويت. ستكونين أنت وطفلك على ما يرام.

أصدر المصعد رنينًا، وانفتح الباب. انتظرَت على الجانب الآخر ممرضتان أخريان. وكان د. ستروكس خلفهما يهزّ يديه كأنّه مشجّع فريقٍ رياضيّ، ويغني: «فلنُخرِج الطفل».

لم يسمح لي بدخول غرفة الولادة. حسنًا، أعتقد أن «غير المسموح به» تعبير خاطئ. وكان السبب الأساسيّ هو أنّه يكون من الغريب وجودي في الغرفة بينما تلِد أختي طفلًا، لكنني وقفتُ بجانب الباب.

سمعتُ ويت تجلب الحياة إلى هذا العالم.. سمعتُ صراخ طفل.. سمعتُ ويت تشهق. لم أسمع أيّ شيء أكثر روعة من قبل، أو ما يجاريه روعةً.

2

كانت ويت متبسّمة عندما دخلت الغرفة.

- انظروا من أتى. إنه خالك جمال.

مع كلّ خطوة نحو السرير، تعارك الخوف والفرح ليغنما بعقلي، لكن حالَما رأيتُ وجهها كان الفوز الحاسم، رُفِعت يد الفرح المنتصر. مع أنّ

مكتبة ياسمين

العيون البنيّة شائعة للغاية، فقد كانت عيناها مدمرتين، مثل اثنتي عشرة طوربيدة فوتونيّة تصطدم بقلبي في الوقت نفسه من مسافة قريبة.

قلتُ:

- إنها فتاة! كنتُ أعرف.

- صحيح.

قلتُ ضاحكًا:

- إنها أجمل إنسان على قيد الحياة يا ويت. هذا أداءٌ هائل. انظري ماذا صنعتِ. يا للروعة! لا شيء تفعلينه من الآن فصاعدًا قد يتفوّق على هذا، أنت تعرفين ذلك، صحيح؟

ضحكَت ويت:

- أريد أن أعارضك، ولكنك على حقٍّ غالبًا.

- هل لي أن أعرف اسمها الآن، أم أنه لا يزال سرًّا؟

- في الواقع، أظنّني قد غيّرته للتوّ، لكنني أردت أن أعرف رأيك.

- أسمعكِ.

- جيدا كوين آندرسون.

وكان اسمًا مثاليًّا.

- هل تعتقد أن أبي سيشعر أنه مُهمَل؟

هزّت ويت كتفيها:

- الطفل التالي له.

- الطفل التالي!

قلتُ، لكن قبل أن أتمكّن من الاستفسار عن التفاصيل، طُرِق الباب. ثم دخلَت السيدة بي، وكانت قد غيّرَت لباس التمريض إلى ثيابٍ يوميّة.

قالت ويت:

- هيه! انظري يا جيدا، إنها ممرضتنا المفضّلة.

ابتسمَت السيدة بي. كانت عيناها حمراوين، ربّما بسبب البكاء، وربّما من الإرهاق، كنت لأراهن على كلَيهما.

قالت السيّدة «بي»:

مكتبة ياسمين

- هل تمانعون القليل من الصُّحبة؟

أومأت ويت بالإيجاب:

- جيدا كانت تنتظر عرَّابتها لتعود وتراها.

بدأت السيّدة «بي» تفعل ما يفعله الجميع أمام الأطفال، ونقلتُ «جيدا» بتأنٍّ إلى ذراعيها، ودندنت:

«جيدا كوييين.. جيدا كوييين...»

وأقسم أنني رأيتُ «جيدا» تبتسم، رغم أنني أعرف أن ذلك من غير الممكن بالنسبة لمولود جديد!

سمعتُ صوتًا مألوفًا عند الباب: «سمعت بوجود حفلة هنا!»، قالت أوتوم، والزهور ومجموعة من البالونات في إحدى يديها، وحقيبتا هدايا مضغوطة معًا في يدها الأخرى. أسرعتُ، وأخذت البالونات، وباقة الزهور. قبّلتُ وجهها، وشعرتُ بالاندفاع الذي أشعر به دائمًا عندما تقبّلني مرّة أخرى.

قلتُ:

- مرحبًا حبيبتي.

- مرحبًا حبيبي (دندنَت أيضًا).

- يا للإزعاج! تحتاجان غرفة تحفَظ خصوصيّتكما!

صاحَت ويت، وهي تلوح بيديها كأنّها متقزّزة من شيء ماديّ.

- لكن ليس غرفة هنا أو في أيّ وقت قريب! قالت السيّدة بي، وهي تحدّق بنظرتها المعروفة: هل تسمعانني، أنتما الاثنان؟

ضحكنا بشدّة على الرغم من أننا كنا نعرف أنها جادّة للغاية. كانت قد أخبرتنا سابقًا أنها ستستغلّ الوقت الذي تملكه للتأكّد من أننا جميعًا نُحسن التصرّف. وقد اقترحَت طلاء غرفة لجيدا حين تُجالسُها عندما تعود ويت إلى دراستها في الخريف.

تساءلتُ إن كانت تقصد غرفة كيو. تمنّى جزء مني ألّا تكون غرفته، ولكن بالمقابل، خمّنتُ أن كيو كان ليحبّ ذلك... كان ليرغب بذلك. وعندما ظننتُ أنّه لا يمكن لهذه الغرفة أن تتّسع للمزيد من البهجة، سمعنا ثلاث نقرات سريعة على الباب، واقفًا هناك وفي يده المزيد من البالونات المعدنية اللامعة، ومزهريّة من الزهور الصفراء الملتصقة بصدره، والدموع في عينيه:

مكتبة ياسمين

- ويت، يا إلهي! يا إلهي! لا أستطيع أن أصدّق... أنا آسف جدًّا، لأنني لم أكن هنا يا حبيبتي. لكن يا للروعة! (أسرَع إلى السرير) تبدين جميلة جدًّا.. متألّقة!

- كذّاب! (مسحَت ويت عينيها، ومسّدَت شعرها الذي كانت قد لفَّته في كعكة فوضويّة) أبدو شنيعة!

قبّل جبين ويت برفق، كأنّها قد تتهشّم:

- لم تبدِ شنيعة يومًا في حياتك كلّها.

تنحنحتُ بصوت عالٍ جدًّا. لوَّحتُ لأختي، ولأنجيليس.

- أعتذر، يا لوقاحتي! (قال أنجيليس، وهو يجذبني إلى عناق:) كيف حال صديقي؟

- أتدبّر أمري.

- إما أنك كنت تُدرّب عضلاتك، أو أنّك تحاول كسر ضلعي وضوحًا! (قال أنجيليس، وهو يضغط على عضلتي ذات الرأسين).

فرك الجزء العلوي من رأسي، ثم نظر إلى بقيّة الغرفة، وقال:

- أوتوم! هل وصلكِ رابط المقال الذي بعثتُه عبر البريد الإلكتروني؟

- مقال الطاقة المتجدّدة؟ نعم، قرأته ثلاث مرّات.

ضحك:

- خمّنتُ أنك ستُعجبين به. كيف حالكِ؟

- أتدبّر أمري.

شدَّت ويت قميص أنجيليس:

- أنجيليس، أريدك أن تقابل شخصًا آخر. هذه... هذه أمّي... ماذا أناديك؟

- هذه ماما «بي» (شاركت).

- لهذا الاسم وقعٌ جميل! قالت ماما بي، والتفتَت إلى أنجيليس: هل تريد أن تحتضن ابنتك؟

ابتسم أنجيليس يبتسم، وارتعشَت يداه: «أحبّ أن أحتضنها».

مدّ يده للأسفل، ورفعَت ماما «بي» جيدا: «قولي صباح الخير يا أبي. تسرّنا رؤيتكَ».

مكتبة ياسمين

كانت ابنة أختي في غرفة مليئة بأشخاص يحبّونها.. أشخاصٍ سيحمونها. وأعرف أننا حتى عندما نبذل قصارى جهدنا للحفاظ على أمان الأشخاص الذين نحبّهم، لا مفرّ من المصاعب، إلّا أننا نحاول في كلّ الأحوال. نحبّهم بكُليّتنا... نحبّهم إلى الأبد، حتى لو تبيّن أن الأبد لا يكفي.

- لديها عيناك يا جمال. قال أنجيليس، ولم أعرف إن كان هذا صحيحًا أم لا، ولكن كان من الجيّد سماعه.

- لكن لديها فم والدتها. انظر! يبدو عليها التذمّر منذ الآن!

وضحكنا جميعًا، لكن ويت كانت أعلانا ضحكًا.

- لا يبدو التذمّر على فمي. قد يفتعل حركاتٍ مخبولة، لكنّه ليس متذمّرًا!

أومأ أنجيليس:

- أراها تسحر القلوب منذ الآن.

تأرجحَت جيدا بين ذراعي أنجيليس، وعيناها الصغيرتان ترفرفان، منهكةً، مثل حالنا جميعًا.

كيف نعرف إذًا أنّ الوقت قد حان للتوقّف عن الحزن.. لتمضي قلوبنا قدُمًا؟

ظننتُ أنّ الجواب هو عند سكون ألمِ الفقدان.

عندما لا يعود التنفّس مشقّة.

لكن شدّة الأذى لم تكلّ.

قلبي لم يكن جاهزًا ليهدأ.

أظنّ أنّ الأمر أشبَه بأن يسأل من يعاني من أذيّة جسديّة **كيف يعرف الجسد متى يتوقّف الألم؟**

لا يمكننا اتخاذ القرار.

ننتظر... وبينما ننتظر، نستثمر وقتنا.

نظرتُ نحو النافذة، والشمس تشقّ طريقها عبر السّتائر المغلقة.

انهمَرَت عدّة دمعات على وجهي، لكنني ضحكتُ متجاهلًا.

«إنها تنحدر من عائلة تسحر القلوب!».

ضحكنا أكثر.

فالقاعدة الأولى في الكوميديا هي أنّ الدعابات أكثر طرافةً عندما تكون حقيقيّة.

مكتبة ياسمين

1

عزيزي كيو، البارحة في جلسة العلاج، اقترح د. أوشن أن أكتب لك حين أفتقدك للغاية، ولأكون صادقًا، لست متأكّدًا من شعوري حيال ذلك. إنه أمر غريب، لكن كم أتمنّى وجودك هنا والآن! لذا ها أنا ذا. ولن أكذب عليك. منذ غادرت، تمرّ أيّامٌ أعاني فيها بحقّ، فلا أرغب بفعل شيء سوى البقاء في السرير لبقيّة حياتي، ملتفًا بألف بطانيّة.

لا أعرف كم مرّة التي خطرَت لي فكرة مضحكة، فأمسكتُ هاتفي لأتّصل بك. وبين الحين والآخر، أتصل بك فقط لأسمعك تقول «مهلًا»، هل تفكّرون حقًّا في ترك بريد صوتي لي؟ اسمعوا، عليكم بالرّسائل النصيّة. أحيانًا أقلّب رسائلنا وأضحك. فعلت ذلك البارحة بينما كنتُ أنتظر أن يُنهي د. أوشن جلسته مع مريض، وكانت موظّفة الاستقبال تحدّق إلى وجهي، وكأنني تجاوزتُ سيّارتها في الزحام، وألومك على هذا.

لكنَّ الأهمّ هو أنني أراه بمنزلة شهادة حقيقيّة على موهبتك. أنت مضحك للغاية، أقرأ دعاباتك وحسب، وأضحك للغاية. أظنّ أن نكاتك خالدة نوعا ما، لكن لا يُصِبْكَ الغرور، حسنًا؟ ما زلتُ أكثر طرافةً.. ها!

وبمناسبة الحديث عن الطّرافة، جيدا مضحكة للغاية؛ تملك تعابير حيث يتقلّص وجهها بالكامل، وترتسم على فمها الصغير ابتسامة رائعة. تقول ويت إن غازاتها هي السبب وحسب، لكن أنا وأنجيليس لا نوافق. إنها متقلّبة المزاج، ونحبها، كما أنني قد أدركتُ أنني لن أتمكّن أبدًا من رفضِ طلبٍ لها، فيا للروعة!

والدتك بخير. نتناول العشاء معًا عدّة مرات في الأسبوع. إنها تعلّمني الطبخ! الأسبوع الماضي، صنعنا طبق انتشلادا. حسنًا، كان مذاقه غريبًا بعض الشيء، ولكن لا يهمّ! أريدك أن تعرف أنني سأفي بوعدي. إنها في أيدٍ أمينة، لا تقلق.

حسنًا، لقد وصلَت أوتوم للتوّ. أسمعها تضحك في الطابق السفلي. إنها تستخدم الباب الأماميّ هذه الأيّام، هاها. أظنّ أن كلّ شيء يتغيّر في النهاية.

هذا كلّ ما لديّ لأقوله حاليًّا.

مكتبة ياسمين

أحبّك يا كيو.

مع خالص الشكر، مساعد المضيف المفضّل لديك.. جمال

نزلتُ إلى الطابق السفلي، ودخلتُ المطبخ. كانت ويت في المنتصف، وتوضّعَت علبة خلاط فارغة على المنضدة، بجانب ما بدا أنه خلاط جديد. نظرَت إليَّ، وابتسمَت.

- هيه، هل حظيتَ بقيلولة جيّدة؟ لم أوقظك بالضجيج، أليس كذلك؟

- أختك باتت تُحضِّر طعام الأطفال بنفسها الآن. قال أنجيليس، وهو يلاعب جيدا على ركبته: وسنكون ذوّاقي أوّل دفعة لها. مرحى!

رمقَته ويت بنظرة، لكنه كان مشغولًا برفع جيدا حتى يشمّ مؤخّرتها. بدا الاشمئزاز على وجهه، وأشار إليَّ:

- مرحبًا، أيّها الخال المفضّل، ابنة أختك تريدك.

لوّحتُ مُتجاهلًا وقبّلتُ خدّ ويت:

- محاولة لطيفة يا رجل، لكن الخال جمال لا يتعامل مع الفضلات، آسف!

ألقيتُ نظرة خاطفة على غرفة المعيشة: أوتوم ليست هنا؟ ظننت أنني سمعتها!

لكن قبل أن يتمكّنا من الإجابة، صرخ أحدهم «بووو» خلفي، وكدت أقفز من الذّعر. تشبّثتُ بصدري: «يا إلهي! كان من الممكن أن تقتليني!».

ضحكت أوتوم:

- من السهل جدًّا إخافتُك، لم أستطع المقاومة (قالت، وهي تهزّ كتفيها).

- نعم، نعم (قلتُ، متظاهرًا بالضيق).

- لا تغضب! (قالت، وهي تلف ذراعيها حول رقبتي، وتجذبني إلى قبلة) هاك، هل ساعد ذلك؟

عبستُ:

- قليلا، لكني ما زلت جافلًا للغاية.

ضحكَت وقبّلتني مرّة أخرى:

- والآن؟

- أتحسّن...

مكتبة ياسمين

- يا إلهي! ما هذا الإزعاج؟ (صاحَت ويت) اعتقدت أنكما ستخرجان يا رفاق.

- سنفعل (قلتُ والتفتُّ إلى أوتوم مجدّدًا) إلا أنّ أوتوم لم تخبرني ماذا سنفعل.

قالت أوتوم:

- سنقضي وقتًا رائعًا... ثِق بي.

وبالمتعة كانت تقصد... ركوب الدّراجة.

قالت: «ركوب الدراجة دواءٌ للروح».

وكان مظهرنا مريعًا بوسادات الكوع والخوذات ذات الضوء الوامض، ومرآة الرؤية الخلفيّة الصغيرة التي تمتدّ مثل الهوائيّ أمامنا، فالأمان أهمّ شيء، أليس كذلك؟

ناوبَت ويت بين التقاط الصور والضحك بشدّة، على الرغم من أنني أقول إن النسبة أكثر من ثلاثين إلى سبعين لصالح الضحك. أما أنجيليس فكان يرفع ذراعي «جيدا» لأعلى ولأسفل، وكأنها تُشجّعنا. وأقسم أنها ابتسمت لي ابتسامةً ساخرةً!

قالت ويت: «تبدوان ظريفين للغاية!».

أوتوم هي واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين تظلّ دراجتهم متّصلة بسيّارتهم في جميع الأوقات، ولا تنفصل عنها. واحدة من أولئك الأشخاص الذين نراهم في نتفليكس يتجولون، ويُصرّون على أنّ القليل من الهواء النقي هو الحلّ لجميع مشاكلنا.

بعد قولي هذا، أنا أحبّها للغاية، وعليّ أن أعترف أنها لم تكن مخطئة، فالوجود في الهواء الطلق جعلني أشعر بسكينة أكثر بالفعل. باستثناء أنّ امرأةً ظلّت تصوّرنا كمهووسي المشاهير.

هتفَت ويت خلفنا:

- أراكم قريبًا يا رفاق.

- تذكّر أن تستخدم إشارات يدك (صاح أنجيليس، فلوّحتُ له مودّعًا بإصبعي الأوسط).

مكتبة ياسمين

عوَت الريح بعنف. كنتُ أقف مع كلّ ريح، كما نفعل عندما نشعر بدفءٍ عارمٍ، ويدخل شخص ما من البرد، ويفرك أقدامه الجليديّة علينا.

- تلُّ الرجل الميّت (صاحَت أوتوم مع النسيم).

- اعتقدت أنك قلت رحلة لطيفة مُرفّهة؟

- هل أنت موافق؟

رفعتُ لها إبهامي، وأسرعنا ونحن مصمّمان على هدف. وتهشّمت أوراق الشجر تحت عجلاتنا دون أن تكون ندًّا للمطاط المُحترق.

أبطأت السيّارات لتطلق أبواقها، وتشجّعنا على العبور، أو ربّما لتشجّعنا على الابتعاد عن طريقها، لكن في كلتا الحالتين، لاحظنا الناس. ركنَت أوتوم أوّلًا، وأوقفَت درّاجتها بقدميها على الأرض بثبات.

سألَت:

- هل أنت متأكّد من أنك مستعدّ لهذا؟

لم يكن يُدعى تلّ الرجل الميّت كدعابة، فبانحداره، وأسفلته المعرِّض للانزلاق، حتى المشي عليه يبدو مخاطرةً بالحياة دون داعٍ، لذا فإنّ ركوب الدّراجة، قد لا يكون أفضل شيء يمكننا فعله.

لكن لا معنى للحياة إن لم تكن سلسلة من المخاطر، وانتهاز الفرص، ورمي النرد.

فككتُ قفل حزام الذقن، وأعدتُ إقفاله، لأجعله أكثر إحكامًا. ألقيتُ نظرة إلى كِلا الجهتين. لم أرَ حركة مرور.

قلتُ:

- لا يقلقني سوى أنني لستُ واثقًا من أنك ستتمكّنين من مجارات.

ضحكَت أوتوم:

- أوه! من فضلك، سأحاول الحدّ من الغبار الذي سأتسبّب به من أجل رئتيك!

- هاها، أنتِ مضحكة للغاية. آمل أن تكوني من محبّي جوائز المشاركة، لأنّ هذا كلّ ما سوف...

لكن لم أستطِع إنهاء تبجُّحي، لأنّ أوتوم امرأة مجنونة.

مكتبة ياسمين

شرعَت أوتوم تدوس بشكل محموم على المنحدر، قبل أن ترفع قدميها، وتترك الجاذبيّة تفعل الباقي.

ناديتُها:

- هيه! أنت تغشّين يا هذه!

ضحكَت مع الريح، وعوَت من الإثارة، وانطلقتُ وراءها، خائفًا بعض الشيء، نعم، لكنني شعرتُ بالحياة تدبُّ فيّ. عند النهاية، ألقَت أوتوم ذراعيها في الهواء، وضحكَت، وابتسمتُ وضحكتُ. هذا ما نشعر به عندما نجد شيئًا كنّا قد فقدناه؛ السّعادة.

0

توبروَن

جانسي مجدّدًا

19.812 مشاهدةً، 1392 إعجابًا، 19 عدم إعجاب، ثنائيّ جانسي الكوميديّ الاشتراك: 37.321

مرحبا يا رفاق! سيكون هذا مقطع فيديو قصيرًا جدًّا، إنّما رائع جدًّا في المقابل، لأنّ ضيفًا مميّزًا جدًّا جدًّا سينضمّ إليَّ! جمال! صحيح! اتّحدَت العصابة مجدّدًا!

جمال: وقد جلبَ الاتّحاد معه الكثير من المشاعر الرائعة. نعم، لا تُعدّلوا شاشاتكم، فأنتم لا تتخيّلون. كيو وجاي، الثنائيّ الكوميديّ المفضّل لديكم، الذي لم تعرفوا من قبل كم أنتم بحاجة إليه، قد عاد.

كيو وجاي: جانسي!

جاي: كيف الحال يا رفاق؟!

كيو: كما ترون، إنه متحمّس جدًّا لوجوده هنا!

جاي: الأحمَس!

مكتبة ياسمين

كيو: حتى أنه يبتدع الكلمات، هذا الرجل متحمّس لهذه الدرجة. لذلك ربّما قد يتساءل البعض منكم مثل، لماذا لم تستضف أحدًا من قبل يا كيو! وأنتم على صواب!

نوعًا ما! لأنّ هذا الرجل لم يكن أحد أعزّ أصدقائي منذ أيام الحفاضات وحسب، بل كان أيضًا نصف جانسي، وهي سفينة كوميديّة ثنائيّة كنّا نملكها يومًا ما... ثم عانينا من فجوة..

جاي: لأنني وضيع.

كيو: لستَ وضيعًا يا رجل.

جاي: بحقّ الله يا رجل، لقد كنتُ وضيعًا.

كيو: حسنًا، كنت وضيعًا، لكنك لست وضيعًا الآن.

جاي: أبذل قصارى جهدي حتى لا أكون وضيعًا. كيف أُبلي يا رجل؟

كيو: ليس سيّئًا، ليس سيّئًا. لديك مستقبل مشرق.

جاي: هذا يعني لي الكثير.

كيو: انظر من الذي تغلّبَت عليه العاطفة الآن. طلبتَ مني ألا أتأثّر بكلّ شيء، والآن أنت من يفعل ذلك.

جاي: لم تتغلّب عليَّ العاطفة تمامًا.

كيو: طبعًا. لا بأس، يا رجل. فرّغ مشاعرك.

جاي: هل يمكنني فقط... أنا فقط أريد أن أقول شيئًا...

كيو: المسرح لك يا صديقي.

جاي: الحياة قصيرة، أكثر مما نتوقّع أحيانًا، ولا يمكننا التأهُّب لهذه الفكرة التعيسة، وحتى لو استطعنا، فسنظلّ غير جاهزين. ومن ثمّ... اسمعوا، أفضل ما يمكنكم فعله هو أن تجِدوا لأنفسكم صديقًا جيّدًا، مثل هذا الرجل هنا.. إنه ليس صديقي فقط.. إنه أخي.

كيو: جاي.

جاي: حسنًا، هذا كلّ ما لديّ لأقوله بهذا الخصوص. هل لنا... فلننفذ ما خططنا لفعله.

كيو: لدينا مفاجأة لكم جميعًا.

مكتبة ياسمين

جاي: استعدّوا.

كيو: تنبيه بإفساد المفاجأة، إنها...

جاي: لا، لا تخبرهم.

كيو: هل يمكنني أن أستبعد بعض الأشياء؟ أشعر أنهم قد يعتقدون أنها قصيدة ملحميّة أو مسرحيّة من ثلاثة فصول إذا لم نفعل ذلك على الأقل.

جاي: حسنًا، حسنًا.

كيو: يا رفاق، إنها...

جاي: مهلًا، قلت إنك ستستبعد أشياء.

كيو: إصدار خاصّ من جانسي!

جاي: اللعنة! لقد أخبرتهم.

كيو: لقد كانوا على وشك اكتشاف ذلك في غضون عشر ثوانٍ، لذا...

المشهد التالي: رصيف مزدحم في مدينة

كيو: لقد جهّزنا مفاجأةً رائعةً لكم اليوم يا رفاق! فهذه الحلقة من جانسي تأتيكم من شوارع...

يتوسّع كادر الكاميرا ليشمل جمال، واقفًا إلى يمين كيو.

جاي: مدينة.. نيو.. يورك.

كيو: هذا صحيح! جانسي أصبح دوليًّا!

جاي: ما زلنا في الولايات المتحدة تقنيًّا...

أظهرَت الكاميرا وجه كيو، محرجًا للغاية.

كيو: صحيح، صحيح، لكنك كما تعلم، مدينة نيويورك فيها الكثير من التنوّع.

أظهرَت الكاميرا وجه جمال، وهو يفرك ذقنه، وحاجباه مرفوعان.

كيو: تبًّا! أتعرف؟ قصدت في الواقع أن أقول عابر للقارّات...

تقترب الكاميرا أكثر إلى وجه جمال، ويفرك ذقنه، ويتقوّس حاجباه أكثر. عبور القارّات لا يختلف عن الدوليّة، أليس كذلك؟

جاي: أعتقد أن هذا قد يكون الوقت المناسب لتحيّة مصوّرتنا على الكاميرا، التي تكون بالمناسبة، حبيبة هذا الرجل. قولي مرحبًا للناس، حبيبتي.

مكتبة ياسمين

استدارَت الكاميرا، وصارَت قريبة جدًّا من وجه أوتوم.

أوتوم: مرحبًا جميعًا. في حال كنتم في حيرة من أمركم، فاسمي هو أوتوم، وليس حبيبتي.

كيو: حسنًا، حسنًا، الآن بعد أن أحرجت نفسي تمامًا، وقدّمنا أوتوم، أعتقد أنه حان وقت جانسي...

كيو وجاي: فلنأخذها إلى الشوارع!

المشهد التالي: رصيف قطار الأنفاق

كيو: نعم، يمكنك أن تسألي أحدنا، أو ثلاثتَنا، سؤالًا واحدًا، وعلينا الإجابة عنه بصدق مهما يكن.

سيدة ترتدي بيجاما: أريد أن أعرف من كان أوّل شخصٍ قبّلتموه؟

كيو: طيب، مَن تسألين؟

السيدة ذات البيجاما: ثلاثتكم.

كيو: حسنًا، فلأفكر. مولي روبنسون.

جاي: يا للهول! ماذا تقول؟! مولي روبنسون!؟

أوتوم: من مولي روبنسون؟

جاي: إحدى عاملات الكافتيريا!

كيو (بلامبالاة): كان عمرها تقريبًا التاسعة عشر.

جمال: مهما يكن. أعتقد أنّ رغيف اللحم الأرجوانيّ لم يكن الشيء الوحيد الذي كانوا يقدمونه.

غمز جمال بشدّة تجاه الكاميرا.

المشهد التالي: الرصيف أمام صيدليّة

كوينسي: ما رأيك في التشريع الذي أُصدِر مؤخرًا هذا الشهر، والذي يمنع الأشخاص فوق سن الثمانين من شراء الأدوية الموصوفة؟

رجلٌ بلحية ضخمة: هذا... سيئ بالتأكيد... لكن... بصراحة، هناك الكثير من الناس في هذا البلد، وأقصد، هل سيكون الأمر بهذا السوء إذا، مثل، كما تعلم...

كيو: لست متأكّدًا من أنني أفهمك.

مكتبة ياسمين

ذو اللحية الضخمة (بلا مبالاة): إذا كنتَ في الثمانين، فقد عشت حياة طويلة بالفعل...

كيو: إذًا أنت تقترح أن نترك كبار السن... يموتون؟

ذو اللحية الضخمة: لن نقتلهم جسديًّا، أو أيّ شيء من هذا القبيل.

كيو: نحرمهم من الأدوية التي تنقذ حياتهم وحسب؟

ذو اللحية الضخمة (يفرقع أصابعه): بالضبط. مثل، كم عدد الشقق الخاضعة للإيجار التي تعتقد أنها ستفتح الآن؟

كيو: أنا... أنا لا أعرف حتى ماذا أقول.

ذو اللحية الضخمة: أنت تعرف ماذا يقولون، لقد انتهى الوقت!

كيو: هذا ليس ما تشير إليه هذه العبارة على الإطلاق...

ذو اللحية الضخمة (يفرك ذقنه): إنه الوقت المناسب ليكون المرء حامي عقارات، اللعنة!

رجل يدفع عربة: عندما سمعت عن ذلك، هززتُ رأسي، لكن هذا هو العالم الذي نعيش فيه.

كيو: كيف تعتقد أن هذا سيؤثّر في الأشخاص في سن الثمانين وما فوق؟

الرجل الذي يدفع العربة: بصراحة؟ سيجدون طريقة للحصول على الدواء. قد يشترونه من الشوارع.

كيو: يبيع الناس حبوب ضغط الدم في الشارع؟

الرجل الذي يدفع العربة: يا رجل، هذه مدينة نيويورك، يبيع الناس الدم البشريّ في الشارع.

يصدر رنين، وتومض الشاشة مع جملة «إجابة صحيحة».

المشهد التالي: منتزه بجانب النهر

جمال: من الأجمل بيننا نحن الثلاثة؟

(يبتسم جمال ببهاء).

سيدة ترتدي بيريه: الفتاة التي تمسك الكاميرا.

مراهق يرتدي سترة بياقة عالية: هي.. قطعًا. تلك العيون.. يا إلهي! أهي عازبة؟

مكتبة ياسمين

رجل يهرِول: إنها لطيفة، لكن عليَّ أن أختار هذا الشاب. كم طولك؟

كوينسي: مترٌ وتسعون.

المهرِول: أراهِن أنك قد ركّبتَ الكثير من المصابيح.

تقترب الكاميرا من وجه كيو المحتار.

مهرِول آخر: أعتقد أنها تتعادل هي والفتى الطويل.

جمال (يغمز الكاميرا): في المرتبة الثانية؟

المهرِول: لا، بل أنت.

جمال: أعتقد أن السّبب هو الإضاءة حيث أقف. إنها لا تُبرز أفضل ميزاتي حقًّا.

يصدر صوت صفير، وتظهر على الشاشة: «إجابة خاطئة».

المشهد التالي: مقعد في حديقة

لاعب الشطرنج: حسنًا، هل تفضّلون أن تعيشوا إلى الأبد، وتجدوا من يُعجب بكم دون حُبٍّ، أو أن تعيشوا لفترة قصيرة، ولكن مع حُبٍّ حقيقيّ؟

ويت: الحبّ بالطبع، هذا سهل.

ماما بي: من الأفضل أن نحصل على الحبّ، حتى لفترة قصيرة.

أوتوم: نختار الحبّ من كلّ بدّ.

جمال: الحبّ هو الجواب دائمًا.

تقترب الكاميرا ببطء من وجه كيو.

كيو: نعم، إن كنتُ مخيّرًا بين أن أعيش الحياة التي عشتها، أو أن أبدأ من جديد، وأعيش إلى الأبد، ولكن بشكل مختلف قليلًا؟ بكلّ صراحة؟ سأختار هذا. بمعرفة كلّ ما أعرفه الآن، ما زلت سأختار هذه الحياة. بالضبط ذات الشيء.. كلّ مرة.

لاعب الشطرنج: لا بدّ أن حياتك رائعة، أيها الشاب.

يصدر رنين، وتومض على الشاشة «صحيح».

كيو: حسنًا، انتهى الوقت يا رفاق.

جاي: لقد كانت ممتعة للغاية.

كيو: هائلة!

مكتبة ياسمين

جاي: هائلة ومهولة.

كيو: نسيت كيف نختتم الحلقة، أليس كذلك؟

جاي: إمممممم.

كيو: نعم، لقد فعلت.

جاي: نعم، لقد فعلت.

يضحك جمال.

كيو (ضاحكًا أيضًا): من المفترض أن تقول إننا نأمل أن تكونوا قد استمتعتم بهذا الإصدار الخاصّ من...

جاي: ثم نقول جانسي في الشوارع، أليس كذلك؟

يصفّق كيو، ويضحك كلّ من جمال وكيو.

كيو: ها هو، سيّداتي سادتي. الجمال الذي نعرفُ، ونحبّ نوعًا ما أحيانًا. أهلًا بعودتك يا رجل. إذن، هل تذكّرتها الآن؟ هل أنت مستعدّ لإنهاء هذه الحلقة؟

جاي: تذكرتُها، يا رجل. أنا مستعدّ.

كيو: حسنًا، لنحاول مرّة أخرى. هذه المرّة معًا.

جاي: مرّة أخرى، ولكن هذه المرّة معًا.. فهمتُك.

(ينتهي بسواد تدريجيًّا)

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين